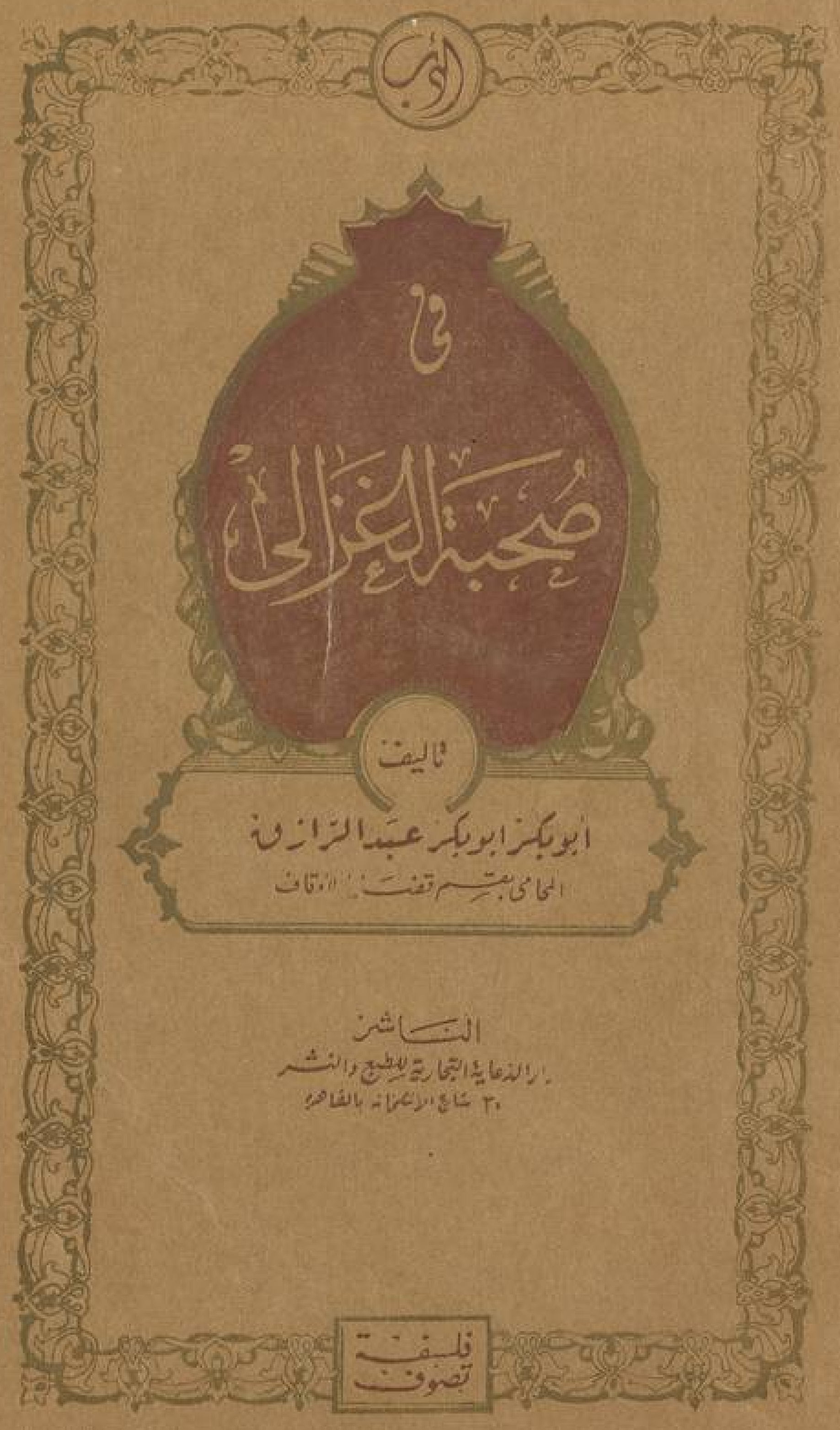


أدب

في صحبة الغزالي

تأليف

أبو بكر أبو بكر عبد الرازق

المحامي بقسم قضايا الأوقاف

الناشر

دار الدعاية التجارية للطبع والنشر

٣٠ شارع الأنتكخانة بالقاهرة

فلسفة

تصوف

مطبعة شبرا الفنية



بقلم

أبى بكر أبى بكر عبد الرازق

المحامى

بقسم قضايا الأوقاف

الناشر

دار الدعاية التجارية

للطبع والنشر

٣٠ شارع الانتيكخانة بمصر - تليفون ٤٥٠٣٢

طبع

بمطبعة شبرا الفنية ١ شارع البعثة شبرا

تليفون ٤١٧٤٩

بسم الله الرحمن الرحيم

(وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما)

اهـــداء الكتاب

إلى روح شيخي وإمامي ومولاي . . . . الغزالي

هدى الله على يديك الحائرين . . . . ياوريث الأنبياء ياقدوة الصالحين
لك سرّ أنت عليه ضنين . . . . أوتيته على علم ورزقته فى الدين !
هو من نور المصطفى قبس . . . . ومن الله منحة للعارفين
يا عاملا بما علم . . . . هكذا جزاء العاملين
ورّثك الله علم ما لم تعلم . . . . وأتاك من لدنه علما لست عنه تبين
فإن باح صبّ بسرّه لست تبوح . . . . لأنت القوى عند ذى العرش مكين
وإن تحدث بالصبابة عاشق . . . . فسرّك أنت فى الضلوع دفين
كتمته حرصا عليه وهوى . . . . كذاك يحفظ السرّ الأمين !
تلك حكمة الله فى الكون جرت . . . . وكذاك قال سيد المرسلين
من عمل بما علم ورثه الله علما . . . . تقصر دونه أفهام العاجزين !

* * *

يا كاتم السرّ فى الصدر الأمين . . . . يا دائب الذكر لله رب العالمين
قد ظهرت أنواره فى « إحيائك » . . . . وشعّت فى قلوب القارئين
وسرت بأقباس الهداية تجرى . . . . هدى ورحمة لقوم عابدين

* * *

يا ساقى الأرواح بالراح الحلال . . . . حديثك الخمر لكن أحلّت للشاربين
وهى ألذّ طعماً لو درى القوم . . . . أين خمور الدنان من خمور الذائقين !؟
تلك عتقتها أيدى السكارى . . . . وهذى أنضجتها أرواح العاشقين !
أدرت كأسها لا لغو فيها ولا تأثيم . . . . فسكرت بعبيقها أرواح المحسنين !

قد شربت بها حتى انتشيت ... رويدك اسقنى على مهل وترفق بالسالكين
قد أتعبتنى يا إمام أنوارك .... وطفت كأسى من صبابة الوجد ولوعات الحنين
أنا بين يديك بالعهد رهين .... والله ورسوله على ذلكم من الشاهدين
فزدنى يا إمام من العلم زدنى .... ستجدنى إن شاء الله من الصابرين
ما كان لى فى حقك شكوى .... كيف أشكوك وأنا لك بالفضل مدين
يامن يخفى صنائعه والله يظهرها .... هيهات طيب المسك يفضح الكاتمين
عبّرت باللسان العربىّ المبين .... وأتاك الحق من لدنه حجج الملهمين
فسحرت القلوب بغير سحر وتزيين ....وجرت ألفاظك العذاب كالماء من علين
لبس المعنى عندك لفظه .... أعجز به وباللفظ الرصين
أنت يامن علمتنى الرجاء فى الله. . . . دعنى أبثك اليوم بعض صبابات العاشقين

* * *

وجدتنى حائرا فأخذتنى فى بحرك .... وسقيتنى بكأس لى أبدا اليها حنين
ذقت قدرها فعرفت فإن .... قلت فيها قصّرت، لكنّ سكوتى يبين
ومن الكلام عجز ومن الصمت كلام .... إذا حارت المعانى على ألسنة الناطقين
فاليوم أشكر لك يا إمام حالى .... ما انفسح المجال لأعين الطالبين
وأذرف دمعة الحق بمّا عرفت .... هكذا علّمتنى أن أكون فى الشاكرين!

* * *

ياحجة الإسلام . يا إمام العارفين .... ووريث النبى والصحابة الأوّلين
لك سيرة زهت فى الصالحين .... وذكرك دوما فى سجل الخالدين
حياتك قدوة لمن تأسى بالمرسلين .... وعلمك عبرة لطلاب الحق السالكين
ستبقى أبداً يا إمام .... حيّا . فى قلوب الراسخين

اذا ما طويت لغـيرك صفحة .... نشرتَ أنت على مرّ السنين
فتقرأ منك القلوب أسطرا .... لله جرت فى قلوب الصادقين

⁂

يا متأسيا بالرسول فى فعاله .... ما جعلك الله الاّ رحمة للعالمين
سرتَ على نهجه وحدّثت بأقواله .... لك الأجر فى الدارين وبشر المؤمنين
يا عظيما فى حياته وفى مماته .... باقياتك الصالحات تذكرك كل وقت وحين
وسع قلبك الرحيم أمثالى .... ولم يضق بظلم الخاطئين
أتيتك أسعى فلم تردّ يدى .... واستجبت لى بالروح لا بالبدن المهين
فتحت لى كتابك كالصدر .... فوسعتنى وما كنت بطارد المؤمنين
وجلت بى فى أقطار من رحمة الله .... كنت أقف دونها وقفة المتهيبين
ما كان لى أن ألجها لولاك .... ياسيدى وقائدى . يا إمام المرشدين
مشيت بنورك فيها وخطرت منك بقدم ....
.... ولولا نورك وخطاك مااستبنت طريق الراشدين
ولشدّت فى وجهى السبل .... وكم سُدّت من طريق وكم ضلّ من مريدين
لكن بوحيك سرت . وبهديك أمنت .... وكان الفضل من الله رب العالمين
يامن جعلك الله فى هداى السبب .... انى لربّى فيك من الشاكرين

⁂

فإلى روحك أرفع اليوم كتابى .... وأنشر للناس صفحة فى صحبة الأكرمين
لو قدرت لجعلت أسطرها نوراً .... وتلوت ماخطته فيها أيدى الكرام الكاتبين
فما هو بالكتاب مُخطّ ومُسطّر .... ولكنه الصدر عمّا أكن يبين
فاقبله يا مامى على قدرى جهداً .... أفى ببعض دينى وذاك سداد المعوزين

كريم أنت والكريم سمح . . . . خبرى ياروح ما حال الكرام فى عليين؟
وكيف جازاهم ربهم بما صبروا . . . . فأصبحوا اليوم من الفائزين
لباسهم فيها سندس وحرير . . . . وطعامهم وشرابهم أذن برب العالمين
ياأخا الكرام الألى قدروا الله قدره . . . . والخاشينه بالغيب العابدين التائبين
ورفيق الألى سموا فكانوا . . . . شموسا للهدى وبصائر المسلمين
القانتين بالأسحار مستغفرين . . . . والصابرين الصائمين الراكعين
دعا لك «الصدّيق» بخير . . . . وكذا «الفاروق» فى عليين
«وعثمان» وأبو الحسنين مع الاولاد . . . شهودك الكل يوم لا خير فى مال ولا بنين

⁂

يامن أحسنت فى الدنيا لك الحسنات فيها . . ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين
جنات عدن من تحتها الأنهار تجرى . . لك فيها ما تشاء كذلك يجزى الله المتقين
يامن توفتك الملائكة طيبا يقولون . سلام عليك ادخل الجنة ولنعم أجر المحسنين
آتاك ربك فى الدنيا حسنة . . . . وانك فى الآخرة لمن الصالحين
اتّبعت ملة ابراهيم حنيفا . . . . وما كنت من المشركين
كم دعوت الى سبيل ربك بالحكمة . . والموعظة الحسنة . كذاك منطق العارفين
وجادلتهم بالتى هى أحسن . فحصحص الحق واستبانت سبيل المجرمين
وأوذيت فصبرت ماضقت بمكرهم . . . . وقلت ياقوم ماعلىّ الا البلاغ المبين
الله حكم . بينى وبينكم . . . . يقصّ الحق وهو خير الفاصلين
ان ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله . . . . وهو أعلم بالمهتدين
ماسرتُ على غير قدم الرسول . . . . أبعد قدم الرسول طريقة للسالكين؟
رائدى القرآن والسنة وجهتى . . . . أبعد هذين منطق للراشدين ؟
فإن كان ذاك عندكمو الرفض . . . . فليشهد الثقلان أنى فى الرافضين
ياحجة الإسلام حسبك الفاطر . . : . ما للقوم فى دعواهم من يدين

حجج الكاذبين تمضى سراعا . . . . ما للزبد بقاء كذاك حجج المبطلين
من ينكر الشمس غير أعمى . . . . ألا لعنة الله على الظالمين
يانصير سيد الانبياء وأول المسلمين . . . . النبى العربى سليل بيت الأكرمين
كل امرىء بما كسب رهين .... هنيئالك ما كسبت ولنعم أجر العاملين
يحشر المرء مع من أحب .... فشفيعك يوم العرض أكرم المصطفين
ياحبيب المصطفى وزين المرسلين . . . . سلام عليك فى الاحياء المرزقين

مريدك
أبو بكر أبو بكر عبد الرازق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

جاء فى تقدمة رسالة أيها الولد لحجة الاسلام الامام الغزالى ، أن أحد مريدى الغزالى وتلاميذه المتقدمين « لازم خدمة الشيخ الامام زين الدين حجة الاسلام أبى حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى قدس الله روحه ، واشتغل بالتحصيل وقراءة العلم عليه حتى جمع من دقائق العلوم واستكمل من فضائل النفس . ثم أنه فكر يوما فى حال نفسه ، وخطر على باله فقال إنى قرأت أنواعا من العلوم ، وصرفت ريعان عمرى على تعلمها وجمعها : فالآن ينبغى أن أعلم أى نوعها ينفعنى غداً ويؤانسنى فى قبرى ، وأيها لا ينفعنى حتى أتركه ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع » . فاستمرت له هذه الفكرة حتى كتب إلى حضرة الشيخ حجة الاسلام محمد الغزالى رحمة الله عليه إستفتاء ، وسأله مسائل والتمس منه نصيحة ودعاء . قال : وإن كانت مصنفات الشيخ كالأحياء وغيره تشتمل على جواب مسائلى ، لكن مقصودى أن يكتب الشيخ حاجتى فى ورقات تكون معى مدة حياتى ، وأعمل بما فيها مدة عمرى إن شاء الله تعالى . فكتب الشيخ هذه الرسالة إليه فى جوابه »(١) إنتهى .

وقفت عند هذه التقدمة وسبحت روحى طويلا ، وأخذت سحب لأنواع من المشابهات والمقارنات تنعقد فى نفسى فأبصر خلالها أشياء .....

---

(١) تقدمة رسالة أيها الولد لحجة الاسلام الغزالى .

فهناك تلميذ من تلاميذ الغزالى ، محب له ومريده ... وهنا كذلك محب للغزالى ومريد . لازم الأول خدمة الشيخ ، واشتغل بالتحصيل وقراءة العلم عليه .... والثانى لازم خدمة الشيخ كذلك ولكن فى عالم الروح لا فى عالم المادة ، على بعد ما بين الزمانين . فإن أخذنا خدمة الأول للغزالى على أنها خدمة أدبية ، بنشر تعاليمه والتحدّث بفضله ، والسير على نهجه ، لا على أنها خدمة بالمعنى العادى الذى ينصرف إليه مدلول الكلمة ، من قضاء حاجة من حاجات الانسان ، من مأكل أو ملبس إلى غير ذلك من الحاجات المعيشية ولوازم الحياة ، لكان ذلك أسمى وأجل ، وإذن لما كان هناك فرق فى هذه النقطة أيضاً بين تلميذ الغزالى المتقدّم فى ذلك الزمان ، وصاحبنا اليوم ! والأول كان يشتغل بالتحصيل وقراءة العلم على الغزالى ، والثانى حاله كذلك . فإن كان الأول قد أسعده الزمان فلقى الشيخ بالروح والجسد فالثانى لم يخسر كثيراً بعدم إلتقاء العينان . إذ صحب الغزالى فى كتبه ، وعاش وإياه بالروح والوجدان . فخاطبته روح الامام من خلال السطور والجند المجنّدة ، تتعارف وتأتلف فى ذلك العالم الذى لا يحدّه زمان ولا مكان ، والنفوس التامة الكاملة تحيا فى النفوس الأقل منها التى تتولّى تهذيبها وإرشادها ، حتى بعد موتها ، كما يقول الصوفية . وما كان الله ليعجزه من شيء فى السموات — حيث روح الامام — ولا فى الأرض — حيث يحيا المريد — إنه كان عليما قديراً . وهكذا التقت بإذنه الروحان ، واجتمعت بأمره النفسان ، والروح من أمر ربى ، والله غالب على أمره وقد كان ! فخاطب الغزالى بلغة الروح مريده ، وسيّان عبّر اللسان أو أدرك الجنان ، فليست العبرة بطريقة الأداء ، ولكن العبرة بوصول معنى القائل لفهم من يتخاطب وإياه .

إن الكلام لفى الفؤاد وانما

جعل اللسان على الفؤاد دليلا

ولكن ثم قلوب تتخاطب بغير حاجة إلى الألسن . ولغة القلوب كلغة الأثير لا يلزم أن يتقارب فيها المتخاطبان ، فليكن أحدهما بالمشرق وليكن الآخر بالمغرب ، لا تهم المسافة ما دام الأثير بينهما الرسول ! فإذا كان الأثير موجوداً ، والجهازان اللذان يتخاطب بهما الشخصان هما قلباهما لا آلات من معدن أو سلك أو حديد ، فلتزد المسافة بينهما بعدا ولنجعل أحدهما فى السماء ، روحا علويا من أمر ربه ، ولنجعل الثانى على الأرض إنسانا لا زالت فيه بعد الحياة ! سينقل الأثير وتستقبل القلوب الكلام ، ولكن بغير لغة وحديث ... « بلا سلكى » القلوب ، وبما فى الروح من أسرار من أمر ربى . هى كالكهرباء لا ندرى ما هى ، ولا نعرف عن كنهها شيئاً ، وإن رأينا من آثارها عجباً .

واذا كان من يحلق فى السماء راكبا طائرة ، مستطيعاً أن يتخاطب « باللاسلكى » مع أهل الأرض ، أفليس الذى يحلق فى السماء بروحه العلوى ، على هاته المخاطبة بأقدر ؟ فإذا كان الإنسان على الأرض غير حامل لجهاز الإستقبال ، أو كان حامله ولكن به خلل فهو معطل ، فما هو بمستطيع أن يتلقى رسائل من يحلق بالطائرة . فإذا كان هذا يرسل « الإشارات » وذاك لا يستقبلها لعجزه ، أفننكر على « المرسل » قدرته محتجين عليه بعجز الحامل للجهاز المختل المعطل عن سماعه ؟ ما كان لنا ذلك ! .

فأولى لك ثم أولى ، ألا تنكر على أرباب القلوب . أصحاب الأرواح العلوية ، حيث هم فى السماء أحياء غير أموات ، عند ربهم يرزقون ، ارسالهم

« الإشارات » الى أهل الأرض ... الى حيث قلوب محبّيهم وأتباعهم ومريديهم الذين يصطفون ، صافية مهيّأة ، مستعدّة لتقبّل رسائلهم ، ووحى أرواحهم ، وما يبعثون به من هيئة المكنون ! .

واذا كان غالبية البشر ، يحملون قلوبا قد صدأت ، وأصبحت غلفاً عليها الأكنّة ، قد اختلّت موازينها وتعطلّت عن « ارسال الإشارات » فضلا عن « استقبالها » ، كما أرسل عمر رضى الله عنه اشارته لسارية ، فسمعها ووعاها ، فإنّ ذلك لا يدلّ على انعدام « الإشارات » بل على خلل فى الآلات « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » . ولو ساروا فى الأرض وكانت لهم أعين يبصرون بها ، وآذان يسمعون بها وقلوب يعقلون بها ، لما كذبوا فؤاد عمر ما رأى ، ولما ماروا سارية على ما وعى ... ولكن ما تقول وأعينهم مفتّحة ، ولكنّها فى غطاء ، وآذانهم منصتة ، ولكن بها صمم . وقلوبهم فى صدورهم . أجل ! ولكن غلف عليها الأكنّة فهى رسوم بغير معانى ، وهى أقداح ولا خمر . فارغة الا من إبليس وجنوده !

فكلنا نحمل القلوب ، كلنّا نحمل « الآلات » ، كلنّا بشر ممن خلق الرحمن أحياء . ولكن قليلون منّا — ياندرتهم — أولئك الذين تصل اذاعة أرواحهم ما بين الأرض والسماء !

أولئك الذين صفت قلوبهم ، ورقت أحاسيسهم ، وخلصت نفوسهم فكانوا أرباب البصائر « أولئك الذين هدى الله »

آمن صاحبنا بهذا كلّه ، أو هكذا علّمه الغزالى ، فعاش مع حجّة الإسلام ، أستغفر الله — ما كان له أن يسمو فيكون معه — بل عاش معه الغزالى ، اذ هو ليس مع القوم بعد على قدم .

فتنازل الإمام من عليائه ، حين عرف فيه صدق الرغبة ، واستطاع أن يجعل مريده الفتى يفهمه ، ويسمعه خلال الأسطر ، بفضل الله وكرم المربّ لا بقدرة « السالك » — ما أعجزه — ولا بصفاء نفسه — لا زال بها الكدر — ولا بتهيء قلبه لتلقى « الاشارات » — أكذب به إن قال ذلك — ألا رحم الله أمرأ عرف قدر نفسه . فلو وكله الغزالى إلى نفسه لما إستطاع أن يفهمه ، ولحجب عنه بما فيه من نقائص ، فقد تكاثرت الذنوب ، ونور الله لا يهدى لعاصى ! فلم يفهم صاحبنا الغزالى إذن ، بالقدر الذى إستطاع — فأفق الغزالى لا يحدّ بأمثاله من االعاجزين — لفضل فى نفسه مكنته ، من أن يسبح فى بحر ماله قرار .. ويطير فى جوّ لا يقدر على احتماله الضعفاء .. ويتطّلع إلى النور المستمدّ من الله ، بعيون ليس لها من نظر القلوب بصر ، فليس من جهد لها وليس من قدرة واحتمال ... أين قطرته فى بحره ؟ ! وأين ذرّته فى جوه ؟ ! وأين ظلامه من نور وريث الأنبياء ؟ !

أقصر فؤادى !

بل كان ذلك رحمة من الله ، واستجابة من الشيخ لفتاه ، حين علم صدق رغبة المريد فى التلقّ عنه فأعطاه ! ولكن بقدر . . . وليس لصاحبنا ما يستطيع أن يقدّمه بين يدى شيخه مهراً للتلقّ عنه ، سوى عبرة الندم ! والشعور بالعجز وبالنقص وبالألم ! فلو جازاه بما هو أهل له ، لا نصرف عنه — ما الهوى سهل — واتركه لشيء غير هذا ، فالغرام له أهل !

لقد سمع صاحبنا فيما روته له الكتب ، أن كان للغزالى مريدون كثيرون ، صاروا أئمة الهدى بعلمهم والتلقّ عنه . مثل القاضى أبى بكر بن العربى وغيره ، وعرف أنهم كانوا يتقدّمون إليه بصالح الأعمال ،

وتطهير الأنفس ومراقبة الأحوال، ليقبلهم ويجتبيهم ... فلما جاءه هو يمشى على استحياء كان شعاره .

وإن تقدم ذو تقوى بصالحة .·. قدّمت بين يديك عبرة الندم .

وقدقبلها منه الغزالى!

عرفت صاحبنا إذن من يكون ؟ وكيف أصبح مريداً للشيخ فيمن يعشقون؟ماهو من أرباب القلوب — كما رأيت — ولا أصحاب البصائر. هو مريد للشيخ فى لجج مريديه، وإن لم يصبح مثلهم فى النظائر. قبله الشيخ عفوا وتكرماً. وشأن الكرام ساتر!

وهكذا تعارف الشيخ وفتاه، وأصبح الغزالى يزور صاحبنا خلال السطور!..

كانا يلتقيان كلّ ليلة. ثم يفترقان على وعد باللقاء، وما كانا يفترقان، فقد كان صاحبنا يستحى من الشيخ فى قرارة نفسه ويجده معه دائما، حتى بعد قفل الكتاب، وانفضاض الزيارة! لقد كان حاله معه مع من قال:

وإنى لأستحييك حتى كأنّما

علىّ بظهر الغيب منك رقيب

ولو أننى أذكر الله كلما

ذكرتك لم تكتب علىّ ذنوب

وكان ذلك أول درس فى المحاسبة والمراقبة علّمه الشيخ فتاه!

كيف استطاع الغزالى أن يفرض رقابته الروحية على صاحبنا هكذا؟! لاتسألوه، وصدقوه إن قال لا أدرى، واسألوا عنه الغزالى فى ذلك يجب بلسان الحال، ان جلستم اليه، فى حلقات احيائه خشّعاً تنصتون!

وهكذا أخذ صاحبنا يقف عند كل معنى ، جاء فى تقدمة رسالة « أيها الولد » فيجد صداه يتردد فى نفسه .

لقد رأى فى نفسه صورة مصغّرة من ذلك « الولد »

فثم العهد الواحد يجمع بين « الولد » و « صاحبنا — كما رأيت — عهد الغزالى . وثمّ الملازمة للشيخ ، على ما عرفت من اتجاه معناها فى نفس صاحبنا وثم الاشتغال بالتحصيل وقراءة العلم على شيخ واحد ... وسيّان من حضر « الحلقة الغزالية » فسمع بأذنه . وأبصر بعينه ، وتلقى بالمشافهة ، ومن يحضرها كل ّليلة ، فيستمع بروحه ، وينصت بقلبه ، ويرى المتكلم بالغيب(١) من خلال السطور ، ويحسّ به معه ، فى نفسه !

ثم عنّ « للولد » أن يبصر فى نفسه يوما ففكر « فى حال نفسه ، وخطر على باله فقال - إنى قرأت أنواعا من العلوم ، وصرفت عمرى على تعلمها وجمعها : فالآن ينبغى أن أعلم أى نوعها ينفعنى غدا ويؤانسنى فى قبرى ، وأيّها لا ينفعنى حتى أتركه ، فقد قال رسول الله صلىّ الله عليه وسلم : اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع » .(٢)

وهنا تجىء المشابهة الرابعة ... فطالما حدّث صاحبنا نفسه بمثل هذا الكلام ، وياطالما ساءلته نفسه : أىّ علم لى عند ربى أنفع ؟ حتى جاء « الولد » المريد يسأل شيخه هذا ، فضمّ صاحبنا صوته لصوته فى ذلك السؤال ، وانتظر الجواب بفارغ الصبر .

ثمّ تقول تقدمة الرسالة بعد ذلك أن المريد « استمرت له هذه الفكرة حتى كتب إلى حضرة الشيخ حجة الإسلام محمد الغزالى رحمة الله عليه

---

(١) بالقلب

(٢) راجع ماسبق أن أوردناه من نص تقدمة رسالة « أيها الولد » المؤلف

استفتاء ، وسأله مسائل ، والتمس منه نصيحة ودعاء . قال : وإن كانت مصنفات الشيخ كالاحياء وغيره تشتمل على جواب مسائلى ، لكن مقصودى أن يكتب الشيخ حاجتى فى ورقات تكون معى مدة حياتى ، وأعمل بما فيها عمرى ان شاء الله تعالى ، فكتب الشيخ هذه الرسالة فى جوابه »(١) .

رأى صاحبنا أن يجعل من نفسه ذلك «الولد» المريد للغزالى - لما مر بك من تشابه بينهما استعرضت صوره ونواحيه - فتناول القلم ليكتب هو هذه الرسالة لشيخه - كما كتبها الولد - شارحا له حاله ، وكاشفا له عن خبايا نفسه ونوازعها ووجدانياته ، ومايعانيه من قبض وبسط ، والتمس منه التماس «الولد» أن يدلّه على العلم الذى ينفعه وينجيه ، فإنه يعوذ بالله مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، من علم لاينفع !

وهكذا خرج الى عالم القراءة ، الفصلان الاولان من الكتاب . وان شئت فقل هكذا ولدت فكرة كتاب « فى صحبة الغزالى » عند صاحبنا ، وتركزت فى فصليه الأولين .

فجاء الفصل الأول تمهيدا لظهور الفكرة ، يدور محوره حول حوادث تاريخية فى حياة الامام الخالد ، حيث كان يلقى دروسه ببغداد ، قبل خروجه إلى العزلة . فيلتقى القارىء هناك بصاحبنا أو بذلك « الولد » المريد ، وهو يحضر للامام آخر درس له ألقاه ببغداد !

وفى ذلك الدرس سيسمع المريد من شيخه تفسيره لحديث : اللهمّ انى أعوذ بك من علم لاينفع - أرأيت كيف تطلّ الفكرة من هنا ؟ - فيكون لهذا الدرس الاخير من الأثر فى حيـــاته ، ماتراه مفصّلا بعد ذلك فى فصول الكتاب .

---

(١) راجع ما سبق أن أوردناه من نص تقدمة رسالة « أيها الولد »

ثم يخرج الإمام من بغداد ـ كما ورد ذلك فى منقذ الغزالى ـ مهاجرا الى حيث اعتزم العزلة . ويكرّ صاحبنا عائدا الى مصر بلده ، ليعيش القارىء معه فى حجرته ، ويستمع لهواجس نفسه ، فيصل معه الى الفصل الثانى من الكتاب ، حيث يكتب « الولد » رسالته لشيخه .

وفى هاته الرسالة ـ أو فى ذلك الفصل ـ سيعيش القارىء فى نفس كاتبها ، الفتى المتصوّف . سيألم معه حينا ، وسيبتسم حينا آخر ، وسيمرّ على الحياة الروحية ، بناحيتيها ، الاسى والطرب ، كما يقول الشاعر(١) ، أو القبض والبسط ، كما يقول الصوفية . وسيرى نفسه معه شاعرا مرّة ، وصوفيا مرّة أخرى ، وان وجد نفسه بعد ذلك صوفيا شاعرا ، أو شاعرا قد تصوّف . وليس الشعر هنا بالنظم ، ولكنه الشعور والحسّ والوجدان ، فى أىّ صورة من البيان . كان نثرا أو قصيدا أو .... خفق جنان ، فى أى صورة من البيان عبرّ !

وسيجد القارىء فى مرآة هاته الرسالة ، صورة الغزالى كما هى فى نفس مريده ، صورة صادقة ماقدرت أن تحيط بأوصافها العبارات ! فحين يسكت قلم الكاتب عن شىء لم يستطع ابانته ، اذ لم يجد له لفظا مسعفا ، سينطق قلب القارىء له بذلك المعنى الذى أمسك عنه بيان الكاتب . وسيصل بنظرات قلبه ، ماانقطع من نظرات عينه ، من كلام احتجب عن السطور فلم يره ، فانساب معناه فى القلب ، ليترقرق فى دمعة قد تظهر منه اشفاقا ، حين يألم مع « الولد » ، أو ليضىء فى بسمة على شفتيه يشارك بها المريد اعجابا بشيخه ! فى هذه الرسالة تاريخ صاحبنا مع الغزالى وكيف دخل فى حماه ، وكيف غيرّ الشيخ من نظرة مريده فى الحياة ، وفى الناس ، وفى الاشياء !

ثم تختتم الرسالة وينتهى الفصل الثانى ، فيكون القارىء قد أصبح ملمّا

«١» امير الشعراء المرحوم شوقى بك

بمعالم الكتاب ، وتشرق عليه فكرته. فإن وجد على ضوئها مايرضيه فليحمده للغزالى بعد الله « ماأصابك من حسنة فمن الله » .. وقد جعل الله فيها الغزالى السبب .. وان بدا له ماليس يعجبه فليلم « الولد » فما فى الكتاب من فضل ؛ فمن الله أجراه على يد الغزالى منّة واحسانا ، وما فيه من نقص فمن « صاحبنا » ؛ جزاء وفاقا !

وصاحبنا هو الرمز الذى يحتجب وراءه قلم المؤلف ؛ وسيرى هذا القلم محتجبا وراء هذا الرمز دائما ؛ فى كل فصول الكتاب . فإن الفكرة كالعذراء تحتاج دائما الى قناع ؛ تطلع به على الناس فإن كشفت وجهها لامها أهل الحياء ! وكرهوا منها السفور ؛ كرههم للقلم حين يسفر عن « أنا » . وشهد الله لولا الرغبة فى التحدث بفضل الغزالى ورد بعض فضله ما تيسر الرد، لما ظهرت العذراء مستترة وراء القناع ، ولما احتجب وراء « صاحبنا » القلم ! ولبقيت العذراء فى خدرها ، لاترى الناس ولايروها، ولاتكشف وجهها إلا لحبيب لايغيب .

ثم يأتى الفصل الثالث . . . فى ظاهره تسلسل حوادث الكتاب والسير به حتى يتم فصولا ، فحوادث كل فصل تجرى مكملة لما سبق ، وفى باطنه معنى آخر قصده صاحبنا . فهو يكشف فى كل فصل حجابا من حجب نفسه ، ويرفع سترا من استارها .. ومن وراء كل حجاب ، وخلف كل ستر ، خيال الغزالى ! فهو الملقن وصاحبنا الممثل ـ على مسرح الحياة ـ الذى يؤدى دوره وفقا لما يمليه عليه الملقن ، ويوجهه به . فهو حر أسير ، مخير مسير ، عند من ينظر فى قاع الكأس ليرى صورة الساقى فيها تحجب بالحبب ؛ وتظهر إذا

رق الزجاج وراقت الخمر ⁂ فتشابها وتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولاقدح ⁂ وكأنما قدح ولاخمر

فينكشف الحجاب ويرتفع الستر ، ويتضح الأمر ويظهر السرّ . . . ليس لصاحبنا مع الغزالى من وجود ! ففى كل فصل من فصول الكتاب ، صورة صادقة ، من صور الغزالى فى نفس صاحبنا .

وهنا فى ذلك الفصل لتفهم المراد - أى ماوراء القصة . يجب أن نرجع قليلا للوراء .... كان صاحبنا قد انتهى من الجلوس إلى الغزالى فى آخر حلقة من حلقات إحيائه ، التى يتحدّث فيها عن معنى الاخوة فى الله . وكانت هذه المعانى التى تنساب من الإمام خففا ، تصل إلى موضع الهوى من فؤاده ، فيجد لها طعما بالسماع ، وذوقا بالمعنى ، فإذا به يهدف للخليل فى الله . . . ولكن أين ؟ ... مرّت سنوات ثم التقيا فى الله ، فكانت محبتهما فى الله ، وكان اجتماعهما فى الغزالى ! وجد صاحبنا فى ذلك الخليل ، ما كان يرسمه الغزالى من صورة الأخ فى الله . وأحسّ من اتجاه جند روحه إليه ، أن ثم ائتلافا بين الجنديين ، فعرف من ذلك انسجام روحيهما . وقد كان ! . . . لقد تعارفا ... وتعاهدا ... وتحابا فى الله ، وأصبحا ليسا صديقين فحسب وليسا أخوين فحسب ، بل مريدين من أصدق مريدى الغزالى . فقد كان هو الآخر مثل صاحبنا يحب الإمام . وإن شئت الدّقة ، فقد كانت أرض نفسه سمحة طيبة ، أعدّت وصلح جوّها المشبّع بروح التصوّف والتقوى لأن تلتى فى تربتها بذرة محبّة الغزالى ، لتنبت بعد ذلك شجرة تعاليمه فى نفسه وتؤتى أكلها ، إذا ما حان وقتها ، بإذن ربّها .. .. ولكن ما كادت البذرة تلق ، ثم تسق ، ثم تبدأ الشجرة فى الظهور ، حتى عصفت ريح الزمان ، وصاح ريب الدهر بالشمل فانصدع ، فأصبح

كأن لم يك بين الحجون الى الصفا

أنيس ولم يسمر بمكة سامر

وأخذت سليمى (١) تبعد عن صاحبنا ، وبيدها أخوه فى الله، وفى عهد الغزالى ؛ الى حيث تلقى به فى بلد آخر بعيد عن مصر .

فتأتى ليلى لتصل ما انقطع بينهما ، فتكون رسائل بين مصر و .. ..
وهكذا ظلّ التقاء الأخوين فى الله زمنا - ليته طال - بالروح فيما تبادلاه من رسائل ، وفى حلقة الغزالى فى احيائه الخالد ، حين يجلس فيها كل ليلة مريدان أحدهما بمصر ، والآخر حيث ألقى عصاه واستقرّ به النوى ، ولكن أبت سليمى الا أن يكون لها النصر على ليلى أخيرا - ليته أطاع - فسكتت الرسائل وأخذ العهد يطول .. فقنع صاحبنا بليلى ، ورضى الثانى بسليمى ، أو هكذا ظن صاحبنا اليوم فيه ! فعادت الحلقة ثانية وليس فيها غير اثنين ، صاحبنا والغزالى ، والذى مامن نجوى اثنين إلا وهو ثالثهما ! سبحانه !ولم يبق لصاحبنا غير الذكرى ، ولكن لاينتفع بها غيره ، إذ تعاوده بين حين وحين ، كلما سمع الغزالى يحدثه عن معنى الاخوة فى الله .

وقد اتخذ صاحبنا فى ذلك الفصل — كاسيرى القارىء — من القاضى أبى بكر ابن العربى ، أحد تلاميذ الغزالى النجباء ، ستاراً تختفى وراءه شخصيـــة ذلك الأخ فى الله ، الذى سارت به سليمى فأبعدته عن حلقات الغزالى ! ...

ثم يجىء الفصل الرابع ... فيتخذ صاحبنا من القاضى أبى بكر ابن العربى ستارا يختفى هو وراءه ، هذه المرة . حيث يذهب القاضى أبو بكر إلى مكة للبحث عن الغزالى ، ليوصل اليه رسالة صاحبنا — التى عرفت حديثها فيما سبق — وهنا تبدو ملامح أبى بكر بن العربى فى ذلك الفصل هى عين ملامح صاحبنا ، وعلى هذا فلندع القارىء يتبينها بنفسه

(١) يرمز المؤلف دائما بسليمى للدنيا ؛ وبليلى عن الآخره ، وسيلاحظ القارىء ذلك دائما

خلال سطور الفصل . ولكن نحب أن نقف معه قليلا لدى نقطة تستوجب الشرح ، لا لغموض فيها ، فمن جهة تسلسل القصة سيكون ظاهر المعنى واضحا ، بل القصد باطن المعنى ، حيث يستوجب الأمر ، أن يلقى صاحبنا بصيصا من ضوء ... فعندما يلتقى القاضى أبو بكر ابن العربى بالغزالى فى البرية — كما سيرى القراء — ويدور بينهما الحوار ، يشير الغزالى إلى ذلك الشيخ الذى تعرّف به أبو بكر قبل أن يلقى الغزالى ، فدلّه على الطريق الذى أوصله اليه ، فيسأل الغزالى القاضى أبا بكر هل سأل ذلك الشيخ إسمه ؟ فلمّا يجيبه بالنفى ؛ يعرّفه إيّاه (١) «أنه الشيخ الفاضل ؛ محمد عبده . فاحفظ له يا بنى ذلك الفضل ! » . ففى هذه الحكاية — كما ترى — كثير من الاشارات التى عناها صاحبنا فالشيخ محمد عبده — يرحمه الله — هو استاذ صاحبنا الروحى الذى عرفه قبل أن يعرف الغزالى ؛ وهو الذى مهّد للغزالى فى نفسه ؛ كما روى صاحبنا عن نفسه فى مقدمة كتابه « مع الغزالى فى منقذه من الضلال » . فإذا رفعنا الستر عن حيرة القاضى أبى بكر فى البحث عن الغزالى فى البرية ؛ حيث تجرى حوادث الفصل ؛ نجد صاحبنا الفتى الحائر ، فى هذه الفترة من حياته ؛ قبل أن يتجه للتصوف ؛ وإن كانت نزعته الدينية المكبوته ؛ ترغب فى صورة خارجية لها ؛ تنفّس بها عن نفسها بعض الشيء ؛ ثم ما كان من التقائه بالشيخ محمد عبده — يرحمه الله — فى سيرته التى ألّفها تلميذه ؛ رشيد رضا (٢) ؛ ثم فى كتبه الخالدة بعد ذلك ؛ ومن ثم يتجه للهدف بعد أن وضح أمامه ؛ ويسير فى طريق التصوف العلمى .... فيصل إلى الغزالى ! وفى ذلك يقول الغزالى لصاحبنا مشيراً للأستاذ الامام — يرحمه الله — « إن لقاءه بركة لك ؛ أردت ألا أحرمك منها . فقد مهد لى فى نفسك ؛ ويسر لروحك سبيل لقائى ؛ فهو شيخ له درجة

---

(١) الفصل الرابع

(٢) المرجع السابق « مع الغزالى فى منقذه من الضلال »

عند ربه ، عند ذى العرش مكين . وكانت بروحك حاجة إلى مزيد قوة من روحه ، فأمدك الله بها منه .

وبذا أصبحت الآن أهلا لأن تتقبل منى ، وتأخذ عنى ، وتستفيد مما ألقيه عليك . ولربما خشيت عليك لو أتيتنى لأول مرة ، دون أن تمر عليه ، أن تنوء بما تحمله منى ، وإن كنت قد اعتزمت ألا أعطيك إلا بقدر(١) ! »

وهكذا يروى لك ذلك الفصل حكاية فى الظاهر ، وما هو وراء الحكاية مما عرفت من حديث ! « ذكرى لمن كان له قلب » .

والتقاء القاضى أبو بكر بالامام الغزالى — رضى الله عنه — فى شعاب مكة — كما ترى فى ذلك الفصل — له أصل من الواقع كذلك . فقد اعتمدنا فى ترتيب هذا اللقاء ، على وقائع التاريخ ، مما أورده ابن العماد فى شذرات الذهب (٢) . ولذلك أوردنا حواراً قصيراً بين الغزالى والقاضى أبى بكر مستقى من « شذرات الذهب » ، وذلك حتى يكون محور القصة دائراً دائماً حول أساس ثابت من الوقائع التاريخية . فتمتزج الحقيقة بالخيال ، والوقائع بصور الفكر ، والواقع بما يقصده صاحبنا من معان وإشارات !

ترى هل أفلح ؟ رب إنه لا يملك إلا جهد الضعيف !

ثم نتصرف أيضاً بعض الشىء ، إتماما للفائدة ، واستكمالا للمعنى المقصود فنجعل القاضى أبو بكر يسأل الغزالى — يرحمه الله — عن أشياء فيجيبه عنها الامام الخالد ، بكلامه الذى تحدث به عن نفسه فى منقذه الخالد ومن ثم يلم القارىء بخط سير الامام الغزالى — رضى الله عنه — منذ أن التقى به ليلة المسجد ببغداد فى حديث الوداع ، إلى أن لقيه القاضى أبو بكر

---

(١) الفصل الرابع من ذلك الكتاب

(٢) شذرات الذهب ، لابن العماد

فى شعاب مكة ، فى البرية . فيعرف القارىء ، لم اعتزل الغزالى ؟ وكيف فارق بغداد ؟ وأين ذهب قبل زيارة مكة ، حيث تجرى حوادث الفصل. وعلى ذلك تكون مهمة « الخيال » فى حبكة هذا الفصل ، هى ربط الوقائع الصحيحة بعضها فى سلسلة القصة . فيخرج القارىء من ذلك الفصل بنبذة عن تاريخ الغزالى ، خلال الفترة الحاسمة فى حياته ، وبفكرة جديدة عن تاريخ صاحبنا مع شيخه ، ويخرج أيضاً — حيث ظاهر القصة — بفصل جديد يضيفه لحوادث الكتاب الذى يقرأ

. . . ثم يأتى الفصل الخامس ، حيث يرجع القاضى أبو بكر إلى مصر عائداً من مكة ، بعد أن قابل الغزالى — هذه المقابلة التى تمت فعلا كما حدث ابن العماد — حاملا رسالة الشيخ لفتاه رداً على الخطاب الذى أرسله « الولد » للشيخ .

ومرور ابن العربى بمصر بعد زيارة مكة ، ثم ذهابه إلى الأسكندرية بعد ذلك — كما سنرى فى حوادث الفصل فى ذلك الحوار الدائر بين صاحبنا وبينه — قد حدث حقيقة أيضاً ، وذلك نقلا عن « طبقات المالكية » لابن فرحون ، حيث أورد خط سير القاضى أبى بكر من مكة إلى مصر فالأسكندرية ، ليحضر هناك دورس الطرشوشى .(١)

وهكذا يعيش القارىء فى وقائع التاريخ تترى فصولا ، وتتسلسل لتسير بالقصة ، مترددة أصداؤها فى أجواء نفس صاحبنا . . . والغزالى أيضاً — كما جاء فى تقدمة رسالة أيها الولد — قد بعث إلى مريده بالرد الذى سأله أياه . . وهنا — كما رأيت — يصل صاحبنا رد الغزالى كذلك .

أما رد الغزالى على « الولد » فى الأصل ، فهو رسالة « أيها الولد » بفقراتها الثلاثة والعشرين ؛ أما هنا فقد أرجأنا هذا اللب ، فتركنا فقرات

(١) طبقات المالكية لابن فرحون

الرسالة فى الأصل — وهى محور كتابنا — لنلتقى بها بعد حين . . . حين يرحل صاحبنا إلى مكة ، ليلقى الغزالى ؛ بناء على دعوته له ؛ فيجلس إليه ثلاثة وعشرين جلسة ؛ تستوعب فقرات رسالة « أيها الولد » الخالدة . . فصبراً حتى نلتقى بأول فقرة من هذه الرسالة ؛ فى الفصل السابع . . . أمّا هنا — فى ذلك الفصل — فقد جعل صاحبنا الرّد الذى وصله من الغزالى ؛ رسالة مطوّلة يتحدّث فيها الشيخ إلى فتاه ؛ بما وعاه صاحبنا من تأديب الغزالى له ، وتعليمه أياه ، وسيجلس القارىء فى هذه الرسـالة مع صاحبنا بعض الوقت ، فى « الحلقات الغزالية » ! .

فالحديث الذى يجرى إذن ؛ على قلم صاحبنا ، متحدّثا به بلسان الغزالى موجّها الخطاب إلى مريده ؛ هو فعلا صدى مايتردد فى نفس صاحبنا ممّا وصل إلى فهمه ، واستكنّ فى قلبه ، وسرى فى كيانه — مسرى النور فى الظلم — من تعليم الغزالى أياه . ما كان حديثا على الغزالى يفترى ؛ بل تصديقا لما أحسّ قلب فى صحبته ووعى ؛ فحدّث بما أحسّ ، وأخبر بما رأى ؛ فعين القلب تقصّ اليوم على الناس ماجرى ؟

ترى هل أفلح القلم ؟ . . وهل لبس المعنى لفظه ؟ إن تعثر فاعذروه . . وان بدا المعنى عاريا فاستروه . . باللطف منكم والكرم . تجاوزوا عن الهنات فقد أثقل الوتر النغم . والطريق وعر لاتسلم فيه من الزلة القدم ! وأين قطرة صاحبنا إذا هى صعدت تروى عن بحر الغزالى بعض الكلم ؟ . . إنّه يكتب بلسان الغزالى رسالة ! ! — أجل ! ستتحدث القطرة بلسان البحر ، ولكن لتروى بحال ضعفها ، عظم البحر ، وتكاثر الموج ، ووفود المدد . وهى لاتملك إلا أن تقول . . من البحر أتيت ، وإليه أعود ، لأفنى فيه

وأنعدم ! ما أنا بغيره شيء ، وأنا فيه كل شيء . فى البحر أسبح ، وإن فارقته جففت ، فلا أنا أفدت ولا استفدت . . رحم الله امرأ عرف قدر نفسه فعذراً يابحر . . أقصرت دون شاطئيك عيونى . ماأردت أن أسبر غورك هيهات — بل سبحت وقلت الناس أتبعونى ! حتى فى ذاك ، ترى هل أفلحت لى العذر إن هم لم يفهمونى . ولهم العذر إذ ظنوا بى الجرأة ، فراحوا يلومونى ! إن قالوا للقطرة : أنت لا تمثلين البحر ! تقول صدقتم . لكن بالبحر تعرفونى !

. . ثم يقبل الفصل السادس ، حيث يرحل « الولد » المريد ، إلى مكة ليلتقى الغزالى — كما قلنا — تلبية له . ولذاك السفر حديث روحى ، ندع الفصل يرويه للقارىء كاملا ، حيث لا تجزىء الإشارة عن العبارة هنا ، لأن كل عباراته إشارات « لمن كان له قلب » ! فالسفر سفران ، سفر صاحبنا فى القصة ليلتقى شيخه — وهكذا تتسلسل القصة — والسفر الآخر — فى باطن القصة — حيث يجول صاحبنا بروحه فى هذه الربوع التى يجول فيها قلبه ، فيرى بروحه ويصف بالغيب (١) ، مالم تقع عليه بعد عيناه ! ويكون فى ارتحاله من مكان إلى مكان ، معنى تنقله من « حال » إلى « حال » . ويكون فى خاتمة المطاف ، التقاءه بالغزالى !

وكما أخذ الغزالى بيد صاحبنا — فى القصة كما سترون — بعد أن « وصل إليه ، وسار به فى « الطريق » — خاتمة الفصل السادس — إلى حيث صارا يلتقيان كل يوم لمدة اثنى عشر يوما ، تسجلت جلساتها فى اثنى عشر فصلا بعد ذلك ، استوعبت فقرات رسالة « أيها الولد » ، كذلك كان شأن صاحبنا مع الغزالى فى الحياة — حيث تكمن روح الكتاب فى هذه الفصول منه — . سار أليه ، فلما التقى به ، وتفاهمت روحاهما ، وأخذ عليه إمامه بظهر الغيب عهدا ، أخذ الغزالى بيده وسار به فى « طريق » التصوف ! وكان صاحبنا يلتقى به كل يوم ، ويجلس إليه يتلقى عنه ، كما سبق أن مر على القارىء بيانه .

---

(١) أى بالقلب

وهكذا جاءت باقى فصول الكتاب من بدء الفصل السابع ، إلى نهاية الفصل الأخير منه ، محورها الذى ترتكز عليه فقرات رسالة « أيها الولد » وذلك فى ظاهر القصة ، ولكن إذا سبرنا غور هذا المحور ، وتوغلنا معه إلى النهاية لنبصر نقطة ارتكازه الحقيقية ، لرأيناها فى صميم نفس صاحبنا ! فليس محور القصة الذى تدور حوله إذن ، هو حوادث القصة ومافيها من أخيلة جرى بها تصوير الواقع فحسب ؛ بل أحاسيس صادقة ، وخواطر مكنونة ، هى صدى لما يتردد فى أجواء نفسى ، عرفت الغزالى فأحبته وأجلته ، ورأت من آياته فيها ، وفى الآفاق ، ماجعلها تطمئن اليه فى الله فتنقاد له عملا بقوله تعالى « فاتبعونى يحببكم الله » وكلها رضا واطمئنان واستسلام . ومن يفز بالغزالى فحسبه أن يأتمّ بحجة الإسلام !

ورسالة « أيها الولد » هى دستور صاحبنا الذى اعتنق، وآمن به وصدّق وجعله هدفاً له فى الحياة !

إنها توصية الغزالى « للولد » — ومَا كمثل الغزالى إن أوصى من يحب ولكل من سار على نهج ذلك « الولد » مع الغزالى ، من المريدين والأحباء فلهم فى هذه التوصية ، كما كان « للولد » نصيب . فأدب المريد مع شيخه . وان وجه الكلام لغيره . أن يسمعه دائما يخاطبه بلسان « الحال »

وان جرت الألفاظ يوماً بعبرة
لغيرك انساناً فأنت الذى نعنى !

صدق الشيخ . ترى هل صدق الولد ؟

قد بلّغت ... اللهم فاشهد !

أبو بكر أبو بكر عبد الرازق

الفصل الاول

حديث ليلة . . .

كان آخر عهد المريد الفتى بشيخه الإمام ، مساء ليلة ، فى حلقة من هاته الحلقات الخالدة . التى كان يعقدها الشيخ الجليل ببغداد .

لقد كانت ليلة لا ككل الليالى ، من شهر لا ككل الشهور . انها ليلة القدر من شهر رمضان ، الذى أنزل فيه القرآن . هدى للناس . وبيّنات من الهدى والفرقان .

لقد ضاق المسجد هذه الليلة ، بمن قصده من رجال ، يعمرون بيوت الله ، وبيومه الآخر يؤمنون . ولكن ضاق بهم مكاناً ، ولم يضق بهم صدرا كيف ؟ ! وما هو بطارد المؤمنين !

لقد كان الحرص بكل مسلم ألا تفوته هذه الليلة ، فى ذلك المسجد ، فان الإمام المبارك ، سيلقى فيها آخر درس له ببغداد . وستختم بهاته الليلة المباركة ، هاته الحلقات المباركة ، التى كان يعقدها « الغزالى » للتدريس كل ليلة .

ولم ؟ — لقد اعتزم الغزالى السفر

الى أين ؟ — الى مكة .. الى بيت الله العتيق

فلا تسل عن النفوس وما بها من حسرة ، ولا عن عيون محبيه كيف تغالب دمعاً ، ولا عن عقول وقلوب مريديه كيف تجد صبرا ، وقد قصدوه من كل فجّ عميق ، حتى كأنّ بغداد مكة ؟ ! فكنت لا تسمع فى بغداد

طيلة سنين قضاها الإمام فيها للتدريس ؛ سوى عبارة ألفتها من كثرة التكرار أسماع بغداد .. أيها الإمام الجليل ؛ سعيت اليك من بلدى على عظم المشقة جئتك لآخذ عليك عهداً .. وما كان « عهد » الغزالى ككل العهود التى أجاد وصفها من قال

انما هذه المذاهب أسبا

ب لجذب الدنيا الى الرؤساء

بل « السالك » على طريقته ؛ ليس له أن يتّخذ بعد الله ، الا ّ العلم قصدا . وكانت « حلقاته الغزالية » الوسيلة !

وكان صاحبنا الفتى واحدا من هؤلاء القاصدين ، ترك مصر بلده ؛ الى بغداد حيث الإمام يقيم . وسرعان ما انخرط فى اتباعه وأصبح من صفوة مريديه . ماغاب عنه منذ أن وطئت قدماه أرض بغداد ؛ درس من دروس الإمام . وكان الفتى عند شيخه من المقرّبين .

أخذ فتانا يسترجع الذكر فتعود به إلى الوراء ، لتقف به — كما رأيت — عند هاته الليلة المشهودة ، ليلة الوداع ببغداد ، ولتلك الليلة فى حياته حديث ... المسجد مكتّظ ... والمقرىء يرتل بصوت حلو ...

« إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنّا لانضيع أجر من أحسن عملا » فتنفتح أسماع ، وتخشع قلوب ، وتلين جلود لذكر الله .

إنّه ليذكر جيّداً كيف كان ينصت للمقرىء وروحه خاشع ، سابح فى عالم ثانى ، ودمعه ينسجم على خديه فى هدوء وإتزان . لقد علمه أستاذه وإمامه — الغزالى — كيف يخلص لله نيّته ، وكيف يفتح قلبه للقرآن ويتفهم معانيه ، كما تتفتح الزهرة للطلّ مالها بغيره حياة . شدّ ما أثرّ فيه الغزالى ! وما كان ليهديه لولا أن هداه الله .

لقد خشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا . وكلما مضى المقرىء

فى تلاوته ، مضت معه نفوس الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، إلى حيث يريد لها الله .. فهى تارة ترتعد فرقا من غضبه إذ ترى جهنم وتمر بواديها وخزنتها وملائكتها الغلاظ الشداد ، فى آيات الوعد والوعيد حتى لتمسح بعض الجباه ماتفصد عليها من عرق ! بينما أخذ البعض يتقى لفحات النار ، مستعيذاً بذكر الله ! ثم إذا بالعرق قد جف ، وإذا بلفحات النار ولت ، ليحل محلها نسيم طيب منعش .. لقد اجتاز المقرىء وادى النار ، حيث رأى الذين تفيض أعينهم بالدمع مما عرفوا من الحق، النار « فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا » إلى حيث يعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات « جنات الفردوس نزلا » . فكان الأمل فى الله بعد اليأس ، وكان الأمان بذكر الرحمة بعدما ، أبلغ ذكر عذابه القلوب الحناجر . وكانت نفحات الجنة ، بعد لفحات النار ، فحق للعرق أن يجف ، وللشفاه أن تبسم ، وللقلوب أن تطمئن ، وللآملين فى الله أن يأملوا .... إنه عند ظنهم ، وفوق ما يظنون ... و « صاحبنا » قابع بجوار المنبر ، وما خلا من تلك الأحاسيس . فقد ارتعد تارة ، وابتسم تارة أخرى ، وانتقل مع القارىء من حال إلى حال ! لقد سبق أن أعطاه الغزالى فى ذلك درساً !

أخذ صاحبنا يتأمل ساعتئذ ماحواليه من وجوه . ثم وجوه ناضرة إلى ربها ناظرة ، فحدث نفسه أن قد أحسن هؤلاء ولاشك صنعا ..

فهم من فزع يومئذ آمنون ، وفى رحمة الله وثوابه يأملون ، وثم وجوه قاتمة ، عليها غبرة ، ترهقها قترة .. لقد ضل سعى أصحابها فكانوا فى الأخسرين أعمالا

لقد نصب صاحبنا نفسه حكما على الناس ، يستطلع سرائرهم من قراءة وجوههم ، إذ هم إلى المقرىء يستمعون وينصتون ! فهل أصاب !؟

كان قلبه مع الله نخيل إليه أنه ينظر بنوره — لعله أصاب ! — وأن تلك فراسة المؤمنين . إن كان قلبه مع الله حقا فقد صـــدق « ما كذب الفؤاد ما رأى » . والناس ؟ أليس منهم « شقى وسعيد » ؟ أخذت كل هذه الأفكار تجول برأسه فيجد لها صدى فى نفسه . . أن قم فأنذر — إن صح لمثله أن ينذر ! ـ وإلى ربك فادع ـ إن صحت لمثله دعوة ـ ولا تأخذك بعاص فى الله رأفة ـ إن لم يكن هو أيضا فى العصاة ـ . صح فى الناس صيحتك : يأيها الناس إنما أنا نذير — أليس للمسلمين فى الرسول الأسوة الحسنة ؟! — لم لا يكون كل من على الأرض صديقاً ؟ ماذا أفدتم أيها العاصون لله . . وماذا من عصيانكم جنيتم ؟ أقدر لبشر من قبلكم الخلد . فأنتم الخالدون ؟ أم ترى الموت على غيرنا كتب ، فأنتم فى حل أن تفعلوا ما شئتم مادمتم غير ملاقيه ؟ فإن عرفتم أن كل نفس ذائقة الموت ، وما يدرى إنسان ماذا يكسب غدا ، أم بأى أرض يموت ، فلم إصراركم على الإثم وأنتم تعلمون ؟

وهنا أخذت الحدة صاحبنا فهم أن يقوم ، لكن سرعان ماذكر قوله تعالى « قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين » . فسكت عنه الغضب قليلا .. لكن ما لبث أن عاد يفكر من جديد ... ما دام كل مسلم يعرف هذا ، فلم لا يحاول كل أمرىء أن يصلح نفسه قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال .. أليس الله يقبل توبة التائبين ؟

حدثته نفسه : إن هى إلا صيحة واحدة . صحها فإذا هم قيام ينظرون . ولكن — حدث نفسه — إن فعلت أتراهم يستجيبون ؟ ترى ما عساهم فى يقولون ؟ متصوف به العلم أضر ، أم خيال شاعر هذا ، أم تخيلات وجنون ؟ وأين قطرة نصحى إن هى فى بحر الناس ذهبت ؟ لا أنا وجدت نفسى فيهم ولا هم عن غيهم يرجعون . ستغيب قطرتى ويذهب أثرى ، ولا يكون لدعوتى من صدى سوى ما يسخر به منى الساخرون . رسول الله هزءوا به قبلى

ـ يا ويحى أين أنا من الرسول ؟ ـ فقالوا ـ وما ينطق عن الهوى ـ « يأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون »

ذكر صاحبنا هذا فأخذ يتردد ،وقلبه فى خفوق..أيصيح بمن فى المسجد صيحته ؟ ـ وإن ضاع أثرها !ـ أم حسبه نفسه ، ينطوى عليها ، وتنطوى عليه ، وللدين رب ساهر يحميه ؟

لم يطل تردده كثيراً ، فقد كان كل ما يحيط به ، عاملا على إذكاء لهيب حماسه فى الله ... المقرىء وما تبعثه فيه تلاوته من نشاط ، وجو المسجد الرهيب ، وذكرى ليلة القدر ، وجلال الشهر الذى تفضل ليلة فيه ألف شهر ، ثم .. ماذا ؟ .. شعوره بقرب الغزالى منه !

سيلقى الامام فى هاته الليلة آخر درس له ببغداد ، فلم لا يبدأ هو أول درس له فيها ؟ أيترك مكان أستاذه وشيخه وإمامه شاغرا ؟

ألا يثبت لأستاذه ، أن قد نفع علمه فيمن علم ؟ وما فائدة صحبته للغزالى طيلة هذه المدة ، إن لم يجد فى نفسه الجرأة التى تدفعه لأن يصيح صيحته ، مناديا بشىء يعتقده ؟ أليس ختام دروس الغزالى الذى سيلقيه هذه الليلة كما أخبره شيخه، هو تفسيره لقول المصطفى عليه السلام: اللهم إنى أعوذبك من علم لا ينفع صاحبه ؟ ألا يثبت لأستاذه إذن أنه قد عمل بما فى الدرس، وأن الذكرى نفعته ؟ فليقم إذن...

وهنا بلغ المقرىء قوله تعالى « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد . فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » . مختتما بذلك سورة الكهف . وكان ذلك إيذانا ببدء درس الإمام

فأخذ الغزالى مقعده ، وتكونت الحلقة ، وخشعت الأصوات للعلم فلا تسمع إلا همسا . وأخذت الأحداق والقلوب الغزالى . تضرب هذه حواليه

نطاقا ، وتقيم تلك حواليه سورا ، ماإستطاع الجهل أن يظهره ، وما استطاع الشيطان له نقباً ... إن الشيطان ليفر من دروس الغزالى ، كما كان يفر من طريق عمر !

وصاحبنا ؟ ما ذا عنه ؟ لقد وقف . ولبث حائراً ! فى قلبه كلمة يريد أن يقولها ، وعلى لسانه صيحة يريد أن يرسلها ، وفى عينيه دمعة تعبر عن ذلك كله ، لمن إستطاع أن يفهم ما يقوله الدمع من كلام !

وما كان فاهم كلام الدمع منه ببعيد . ثم من له قلب ، ومن يلقى السمع وهو شهيد . لقد التقى نظره بنظر إمامه ، فابتسم له هذا — فمريده أثرة عنده كما علمت — وأسر له ذاك شيئاً ، ولكن بغير لغة الحديث !

لقد عرّفت الشيخ ، دمعة المريد الحائرة ، ما يريد أن يقول . إنها لتصيح وإن لم تهم ... أى شيخى وإمامى . لم لا يكون كل من على الأرض صديقاً ؟ إنبعثت هذة الرسالة الروحية من قلب المريد الفتى لتقع فى قلب شيخه الإمام على أشد ما تكون قوة . فتأثر بها قلب الشيخ العارف بحال مريده ، وتبسم اليه ضاحكا من قوله ، ونظر اليه نظرة فيها جواب سؤاله :

ليس عليك هداهم « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً : أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » ؟ أم لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين . هيهات إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل وما لهم من ناصرين . عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا أهتديتم . سبح بحمد ربك وكن من الساجدين . واعبد ربك حتى يأتيك اليقين . وقل ربى زدنى علما

وقع هذا موقعه من نفس صاحبنا ، فإذا بغضبه قد سكت ، وقلبه قد اطمأن ، وروحه قد رضيت .

صدق الله العظيم . أصبت ياشيخى .. رب زدنى علماً !

فإذا به قد انتظم فى سلك القاعدين . لقد أرجع إليه الإمام نفسه ، وأثاب إليه رشده .. فعرف أن الأمور مرهونة بأوقاتها ، وأن الله غالب على أمره ، وكذا جرت حكمته أن يلبث الناس مختلفين ، ولو شاء لجعلهم أمة واحدة - ما كان ليعجزه من شيء - فليتول إذن عنهم حتى حين ، فهو غير ملوم . وليصبر حتى يحكم الله بأمره وهو خير الحاكمين . إن يريد إلا الإصلاح ماقدر ، فلينتظر حتى يأذن الله له ويوفقه لما يحب ويرضى ، من القول والعمل . أما عن صيحته لو صاحها فى غير وقتها ، إذن لذهبت هباء كالزبد جفاء ، ولم تك شيئا !

جلس الفتى .. .. وابتدأ الغزالى درسه .. .. وقلت مستعينا بالله ومتوكلا عليه ، ومستوفقا منه ، وملتجئا إليه . اعلموا أحسن الله تعالى إرشادكم ، وألان للحق قيادكم .. .. »(١)

شاءت حكمة الإمام الخالد أن يكون ختام دروسه ، تفسيرا لقول المصطفى عليه السلام : اللهم إنى أعوذ بك من علم لاينفع صاحبه» وإن صاحبنا ليذكر الآن جيدا كيف أثر هذا الدرس فيه ، ونال من نفسه ! لقد غير من نظرته فى الحياة ، وفى الناس ، وفى العلم والعلماء . كان يظن الحياة رتبة وجاها ، فأصبح يراها شيئا دون ذلك !

وكان يظن بالناس خيرا ، فقطع أمله فيهم ويئس منهم ، وأصبح شأنه وإياهم ماسمعه من شيخه يرويه عن الجنيد(٢) « رأيت الناس موتى فكبرت عليهم أربع تكبيرات ! »

وكان يحسب العلم قوة حجة وبرهان ، وظهورا على الخصم وإفحامه بأى شكل كان .. فعرف علما يتحدث به القلب ، ويسكت دونه اللسان ! إنه

---

(١) ورد هذا الاستفتاح القوى فى المنقذ من الضلال لحجة الإسلام الغزالى

(٢) القطب الصوفى المعروف

أنه كهيئة المكنون، لايعلمه إلا العالمون، بالله تعالى . فأين علمه فى هذا وأين هو من هؤلاء ؟! ـ كان يحسب العلم طريق الظهور فى الدنيا ، فأصبح يرى العلم طريقا من طرق الآخرة ! أصعب به !

وكان للعلماء عنده مكانة ، وياطالما اشتهى يوما أن يكون مثلهم عالما فأصبح يفرّ من علماء الدنيا ، ويسأل الله ألا يحشره معهم يوم القيامة أعمى لقد عرّفه الغزالى، ماالعلم ، فعرف العلماء من يكونون !

لذاك عنده حديث ، شرحه يطول ، سيرويه لك بعد تفصيلا، فلا تسأله الآن عن شيء،حتى يحدث لك منه ذكراً .

لقد تحدّث الغزالى . . وتحدّث . . ولحديثه روعة ـ ما بعدها روعة ـ وللمكان هيبة . أنظر . . لقد خشعت الأصوات فلا تسمع شيئاً ، غير هذا الصوت الحلو المحبّب ، وقد راح صاحبه يتحدث ، فيلعب بالقلوب ، كما يمرّ العازف الماهر على أوتار قيثاره ، فإذا الأوتار ألحان وأنغام ! لقد توحد اللحن فى كل القلوب : اللهم إنى أعوذ بك من علم لاينفع ، فغدا يتحرك به كل جنان . فإذا القلوب قلب فى الله واحد . . قلب مؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن ، والغزالى مذكّر ، والله مسيطر ، ألفّ بينهم وهو العزيز الحكيم . .

فتعال بنا نبحث عن صاحبنا بين هؤلاء . . لقد نسى نفسه ، ونسى الناس من حوله ، ولم يعد سوى شيء واحد . أذن تسمع ، وقلب يعى ، وطرف عن الغزالى ماتحوّل .

. .   . .

اللهم إنى أعوذ بك من علم لاينفع !

لقد تعلم صاحبنا وأفاد علماً كثيراً ، وقبس عن شيخه الغزالى مايضيق

عن حصره لو أراد . ولكن مافائدة هذا العلم كلّه ، أيستعيذ بالله منه ؟ أم ذلك هو العلم النافع ؟ لقد سمت نفسه فأصبحت لاترضى بشيء ولاتقنع . فان سأله أحد ، ما تبتغى ؟ لكان حرياً به أن يجيب ـ ما أبتغى جلّ أن يسمّى ! ..

وكلما مضى الإمام الخالد فى حديثه ، إزداد صاحبنا تصغيرا لنفسه ، وتحقيرا لها ، لقد قاس علمه على مايذكره الغزالى ، فلم يعد يراه شيئامذكورا

لقد كان يظن أنه على شيء من العلم بالشريعة والفقه والفلسفة وعلم الكلام والأدب والتصوف ، وكان يظن أن كل ذلك ينفعه ، ولكنه حين أبصر فى نفسه بالعين التى أوجدها الغزالى فيها ، لم يعد يرى إلا زبدا مافيه غناء ، فأين ماينفع ؟

شدّ ماتضاءلت نفسه فى ناظريه حين سمع الإمام الخـالد يفسر العلم ويبين النافع منه والضار ، لقد خيل اليه أن كلّ مايعلمه لاينفعه ، أو هو لم يستطع أن ينتفع به حتى الآن ، فهل إلى انتفاع من سبيل ؟ لقد أصبح يشك أنه قدعرف حتى الآن مايصح أن يسمى علماً ! وشدّ ماصغرت همته فى عين نفسه حين تحدث الغزالى عن الصحابة وعلوّ منصبهم وكيف أجمع على أنه لايدرك فى الدين شـأوهم ، ولا يشقّ غبارهم ، ولم يكن تقدمهم ، للدرجات العلى ، بالكلام والفقه ، بل بعلم الآخرة ، وسلوك طريقها !

فأين هو من ذلك العلم ؟ وأين هو من ذلك الطريق ؟ لقد استعاذ بالله من علم لاينفع !

ثم أخذ قلب صاحبنا يتزايد خفقه حين بلغ الإمام قوله « وما فضل أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ الناس بكثرة صيام ولا صلاة ، ولا بكثرة رواية

ولافتوى ولا كلام ، ولكن بشىء وقر فى صدره كما شهد سيد المرسلين صلى الله عليه وسلّم» (١) .

فأخذ يقارن نفسه بأبى بكر ، ويمسح عن عينه دمعة ، حين أخذته عظم المفارقة. أين الصديق الخليل من سمّيه ؟ ! لا يستوى السادة والعبيد على أن أسماء الجميع موالى !

ثم عاهد الله على شىء حين هتف شيخه:

« فليكن حرصك فى طلب ذلك السر ، فهو الجوهر النفيس والدر المكنون »(٢) ، وكم شعر بنفسه تؤنّبه وتريه تفاهة قدره وضآلة علمه وتثور بين جنبيه ثورة قوية ، حين مضى شيخه يقول :

« ودع عنك ماتطابق أكثر الناس عليه وعلى تفخيمه وتعظيمه لأسباب ودواع يطول تفصيلها . فلقد قُبض رسول الله صلّى الله عليه وسلم عن آلاف من الصحابة رضى الله عنهم ، كلّهم علماء بالله ، أثنى عليهم رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، ولم يكن فيهم أحد يحسن صنعة الكلام ولا نصب نفسه للفتيا منهم أحد ، إلاّ بضعة عشر رجلا . ولقد كان ابن عمر رضى الله عنهم منهم ، وكان إذا سئل عن الفتيا يقول للسائل إذهب إلى فلان الأمير الذى تقلّد أمور الناس وضعها فى عنقه ، إشارة إلى أن الفتيا فى القضايا والأحكام من توابع الولاية والسلطنة . ولمّا مات عمر رضى الله عنه قال ابن مسعود ، مات تسعة أعشار العلم ، فقيل له ، أتقول ذلك وفينا جلّة الصحابة ؟ ! فقال : لم أرد علم الفتيا والأحكام ، إنّما أريد العلم بالله تعالى ! أفترى أنه أراد صنعة الكلام والجدل؟ فما بالك لاتحرص

---

(١) إحياء علوم الدين — باب العلم
(٢) إحياء علوم الدين

على معرفة ذلك العلم الذى مات بموت عمر تسعة أعشاره ، وهو الذى سدّ باب الكلام والجدل وضرب ضبيعا بالدرة لمـّا أورد عليه سؤالا فى تعارض آيتين فى كتاب الله ، وهجره وأمر الناس بهجره(١) » ؟!

فتعال بنا ننظر أثر ذلك الكلام فى نفس صاحبنا . . . لقد أخذ على نفسه عهدا .. أن يدع - كما قال شيخه - ماتطابق الناس عليه وعلى تفخيمه وتعظيمه ، فلن يعظم إلا شعائر الله ، فإنها من تقوى القلوب ! ولن يظاهر بعلمه بعد اليوم أحدا . وسيكون به الحرص - كما دعاه استاذه فيمن دعا - أن يعرف ذلك العلم الذى مات بموت عمر تسعة أعشاره ! كل هذا والإمام ماض فى درسه :

« فاعلم أن ماينال به الفضل عند الله شىء ، ومماينال به الشهرة عند الناس شىء آخر . فلقد كانت شهرة أبى بكر الصديق رضى الله عنه بالخلافة ، وكان فضله بالسر الذى وقر فى قلبه .

وكانت شهرة عمر رضى الله عنه بالسياسة ، وكان فضله بالعلم بالله الذى مات تسعة أعشاره بموته ، وبقصده التقرب إلى الله عز وجل فى ولايته وعدله وشفقته على خلقه ، وهو أمر باطن فى سرّه ؛ فأما سائر أفعاله الظاهرة فيتصور صدورها من طالب الجاه والإسم والسمعة والراغب فى الشهرة . فتكون الشهرة فيما هو المهلك ، والفضل فيما هو سر لا يطلع عليه أحد . فالفقهاء والمتكلمون مثل الخلفاء والقضاة والعلماء وقد انقسموا ، فمنهم من أراد الله سبحانه بعلمه وفتواه وذبّه عن سنة نبيه ولم يطالب به رياء ولا سمعة فأولئك أهل رضوان الله تعالى ، وفضلهم عند الله لعملهم بعلمهم ولإرادتهم وجه الله سبحانه بفتواهم ونظرهم ، فإن كل علم عمل فإنه فعل مكتسب ، وليس كل عمل علما والطبيب يقدر على التقرب إلى الله تعالى بعلمه فيكون مثابا على

---

(١) إحياء علوم الدين

علمه من حيث أنه عامل لله سبحانه وتعالى به . والسلطان يتوسط بين الخلق لله فيكون مرضيا عند الله سبحانه ومثابا ، لا من حيث أنه متكفل بعلم الدين بل من حيث هو متقلد بعمل يقصد به التقرب إلى الله عز وجل بعلمه (١) »

نال هذا الكلام من نفس الفتى مناله ، وتغيرت له . كما عرفت ـ فى الحياة نظرة. فلن يطلب بعدم اليوم إلا العلم الذى يُنفعه وعلى ذلك النحو الذى سمعه من شيخه . سيتخذ علمه منذ اليوم ، زلفى تقربه إلى الله ! أخذت هذه الأفكار تحتدم فى رأس صاحبنا فيشعر لها بما يشبه الدوار ، وقد فعلت درجة الحماس فى نفسه مايشبه الحمّى ، حتى ضاق جسده عن مدى روحه ، فلولا رحمة الله نزلت عليه إذّاك ، لتجعل نار حماسه فى الله برداً وسلاما ، لذاب هذا الجسد ، وانفجر ذاك الدماغ ! لقد أوقد الغزالى فى نفسه الشعلة الخالدة ، فاستبان له على ضوء هذا النور ، طريقه الذى يجب عليه السير فيه . ولكن أترى ما حصّله من زاد روحى حتى الآن ، كافيه للسير فى هذا الطريق ومعينه على ذلك السفر ؟ أم ترى يفرغ زاده منه ويحتاج إلى مزيد ، كلمّا مضى فى طريقه وتوغـّل خلاله ، وقتا قد يطول وقد يقصر ؟ فالطريق وإن كان قد بدا له منيراً واضحاً ، بيد أن به من الطول شيئا غير قليل ، كذلك به قطـّاع طريق على طول طريق السير يكمنون . يتربصون بالسائر فيه الدوائر . إنها شهوات الدنيا ، جنود إبليس ! « ولأقعدنّ لهم صراطك المستقيم » . لقد أقسم اللعين لربه أن يحتنك من ذريةّ آدم إلاّ قليلا ، لم يجعل الله له عليهم من سلطان ، فهم الذين آمنوا « إنما سلطانه على الذين يتولوّنه والذين هم به مشركون » . لكن مايدرى صاحبنا أن سيكون هو ضمن هذا القليل ؟ أليس من الجائز أن يفعل فعل أهل الجنة ، حتى إذا لم يبق بينه وبينها غير شبر واحد ، إذا به يعمل عمل أهل النار ، فيكون من الضالين ؟ ألم يدع الله نبي قبله ـ وأين هو من الأنبياء ؟ ـ بألاّ يجعله ذلك المحروم . . . ربنا

---

(١) إحياء علوم الدين

لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ». وسيد البشر ! ألم يقل يوما : قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن ؟

فأين صاحبنا من هذا كله ؟ ماهو ؟ ماعلمه ؟ ماقدره ؟ ماإيمانه بالله ؟ وفى أى درجة من درجات المؤمنين هو ؟ . لقد سمع من شيخه من صفات العارفين بالله ، ماجعله يرى نفسه قطرة فى بحر هؤلاء ليس لها من وجود !

إنّ كلّ ماناله من عرفان ، هو منّ الله عليه أن هداه للطريق ، وسخّر له الغزالى سببا ، يرشده - إن ضلّ - ويبيّن له ماغمض عليه . إنّه يرى بنفسه عجزا عن السير ، وعدم قدرة على « الوصول » . . رحم الله امرأ عرف قدر نفسه ! . .

.. ..

أخذت نفس صاحبنا تحدّثه بهذا ، حتى غفل عن الغزالى ، ولم يستطع أن يتمشّى معه فى بقيّة درسه ، وهو الذى ماغفا عن شيخه من قبل لحظة . لقد بقى شىء واحد يطنّ فى أذنيه ! اللهم إنى أعوذ بك من علم لاينفع ! لقد كان فى غفلة . إن صحّ أن يسمى هذا غفلة ! لبث فتانا على هذا ماشاء الله له أن يلبث ، حتى أفاق وقد ختم الإمام درسه أو كاد . فطرقت أذنيه آخر عبارة يختتم بها الغزالى درسه كما بدأه : اللهمّ إنى أعوذ بك من علم لاينفع !

فبقى قلبه معلّقاً بهذه العبارة ، وسترى مايكون لها فى حياته من حديث !

رحل الغزالى إلى مكة حيث اعتزم العزلة . . . وشدّ فتانا إلى مصر رحاله ، إذ ماعاد له فى بغداد أرب .

أخذ كل هذا يمرّ بمخيّلة صاحبنا ، وقد انفرد بنفسه فى حجرته ، بعد أن أحكم غلقها عليه - كعادته - ثم شمله تفكير عميق ، أخذ عليه نفسه ، فراحت

تغوص فى بحره . . . . وقد كان هذا أيضاً مما علمه إياه شيخه ! فقد حبب إليه التأمل ، وإنه ليذكر جيداً ذلك اليوم الذى جلس فيه مع الغزالى فى حلقته ، لينصت مع من معه للإمام الخالد يتحدث فى تفسير قوله عليه الصلاة والسلام : تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة . لقد علمه إمامه ليلتئذ كيف يبصر فى نفسه مصداقا لقوله تعالى « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » متفكراً فى خلق السموات والأرض . . . ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك! وهكذا أصبح التفكر طبعه الملازم له .

فاليوم إذ تعوده هذه الذكرى ، ذكرى ليلة بغداد ، فيرخى لها عنان الخيال يسبح به وبها كيف يشاء ، إنما يتمشى مع رغبات نفسه المتفكرة المتأملة وهذا من جهة ، وليبحث عن مخرج له من شىء أصبح يقض مضجعه وذلك من جهة أخرى . أما عن ذلك الشىء الذى يقلقه ويحاول أن يجد له مخرجا منه ، فقد عرفت شيئا عنه مما سبق أن رويناه لك . فمنذ تلك الليلة ببغداد ، ليلة المسجد ، وحديث الغزالى مافارق أذنيه ، ولا غاب عن قلبه لحظة . . . اللهم انى أعوذبك من علم لاينفع ! لقد مرت على تلك الليلة شهور ، رحل فيها الإمام الى مكة للعزلة كما عرفت ، وعاد هو الى مصر كما رأيت . وكان اختلاف الليل والنهار كفيلين بأن ينسياه من ذلك شيئا . لكنه لم ينس ! وكان الظن بالأهل والوطن أن يشغلاه عن تفكيره نوعا ما ، ولكنه لم ينشغل . لقد بقى قلبه معلقا بآخر ماسمعه من شيخه : اللهم انى أعوذبك من علم لاينفع ! قد عرفت كيف سها عن نفسه فى المسجد ، فيما روته لك الذكرى ، وكيف كان يتحسس وقع هذه العبارة من نفسه ، حتى انتهى الإمام من درسه وهو ماانتهى من التلفت الى عبارته الخالدة يرويها عن الرسول الكريم . لقد كانت عينه معلقة بشيخه كأنها ابرة قد تمغنطت به ، فإبان حولت عنه تعطف . وهاهو شيخه قد رحل الى بلد وعاد هو الى آخر ولكن أصبح قلبه هو الذى يتلفت الآن . .

تلفتت عيني فذ غابت .·. عنى الطلول تلفّت القلب !

والآن ؟ لقد أزمع أمراً ! ماذا عليه لو كتب للغزالى وقصّ عليه أمره؟ سيروى له كل شيء ، وسيفضى اليه بما يتعبه ويضنيه . سيقول لشيخه أن درسه الأخير كاد يفقده الثقة بنفسه ، لأنه أصبح يسائل دائما نفسه . . هل حصّل من العلم ماينفعه ؟ وأتراه على شيء من العلم حقاً ؟ ! إنّ استعاذة الرسول عليه السلام من ذلك العلم الذى لاينفع ، أصبحت تلاحقه أينما ذهب . . اذا جلس ليقرأ ، حدثته نفسه ، أترى مايقرؤه ينفعه واذا جلس ليكتب ، ساءلته ، أترى مايكتبه يفيده شيئا ؟ أيقرأ اذن ولا يكتب أم يكتب ولا يقرأ . انه متعب ، والشك يعذبه ! لقد كان يحسب نفسه — وهو تلميذ الغزالى ومريده — أنه أبعد مايكون عن حالة كتلك ، فاذا من مأمنه يؤتى الحذر . واذا النفس الكبيرة والقلب الكبير ، يتعاونان على قتل صاحبهما ، قتلا ! أكذا يكون الإيمان بالله ، فتلك عقبات لابد للمؤمنين من اجتيازها ؟ ان يكن الأمر كذلك ، فما عليه ان كتب للغزالى ، لعل الله يأذن فيجعل على يديه للمتعبين مخرجا ! أجل سيكتب للغزالى ، وسيتحدث اليه بقلم يستملى القلب كلامه . سيمسك القلم بيده ، ليوجهه فؤاده كيف يشاء . فتكون الأسطر فى كتاباته ، خفقات قلبه ودقاته فلو نطق الكلام ما كان الا احدى صيحاته . . يأيها الإمام صدقتك ، وما أخفيتك شيئاً !

ولما كان الليل قد مضى الا قليلا ، فقد أرجأ صاحبنا الكتابة لغد . سيغفو حتى اذا كان الفجر نهض ، فصلى ، ثم يجلس ـ ان أذن له الله ـ يستوحى الوقت والقلب ما يكتب !

الفصل الثانى

حنين الفتى لشيخه

تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، فانبعث صوت شجى تحمله نسمات الصيف العليلة ، يدعو المؤمنين إلى الصلاة . إنه مؤذن الفجر يسكب أذانه فى الأسماع والقلوب . إنها الأوقات الطاهرة التى ، يخلو فيها إلى الله أرباب البصائر . وللفجر روعة لدى أهل الخيال ، ولدى أهل القلوب والأحوال ! فيارب ساهر ليلته ، ما نام حتى مطلع الفجر ، ويارب نائم ، وقلبه فى انتظار الفجر ماغفا !

لامس الأذان أذن صاحبنا وانسكب فيها ، فاهتزت نفسه وانبعثت فيه غريزة الإيمان وتلبية الداعى إلى الصلاة ، فإذا به ينفلت من فراشه . أسبغ وضوءه ، ثم استلم القبلة ، ليقرأ خاشعا . . . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » .

لقد كان صادقا ،

إن فاطر السموات والأرض وليه ، وياطالما ناجاه . . أنت وليي فى الحياة الدنيا وفى الآخرة »

وياطالما تذلل له ودعاه رب توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين

لقد صلى وقرأ ورده ، ودعا ما شاء له الله أن يدعو لسيد المرسلين ،

وما كان لشيخه نسياً . فقد ذكره فى دعائه أيضا . إنه ليذكر شيخه دائما كلما ذكر الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فيدعو لإمامه بعد أن يدعو للرسول . ولا غرابة فى ذلك ، ألم يقل المصطفى عليه السلام أن العلماء هم ورثة الأنبياء ؟ إذن حق له أن يدعو لشيخه العالم بعد أن يدعو لقدوته الحسنة ! إنه يدعو للوريث كما يدعو للمورث ، فيصعد إلى الله الدعاءان « إليه يصعد الكلم الطيب » ليلتقيا فى سماء الخلد ، تحية وسلاما « والعمل الصالح يرفعه » !

فرغ صاحبنا من هذا كله ، ليشرع فى تنفيذ أمر قد بيته . لقد علمت أمس نيته . سيكتب الغزالى ما عرفت من حديث ! فليمسك قلمه باسم الله ولنقرأ معه ما عساه يكتبه لشيخه . .

بسم الله الرحمن الرحيم

أى شيخى وإمامى :

باسم الله أفتتح الآن كلامى ، ياعالما بما فى نفسى كيف أبث الشيخ آلامى رب اشرح لى صدرى . ويسر لى أمرى . واحلل عقدة من لسانى .

أى شيخى وأستاذى . تذكر ولاشك حديثنا القلبى ، ليلة المسجد ببغداد . فأنت أدرى منى بنفسى ، إذ تنظر بنور الله ، فترى بفؤادك شيئاً يغيب عن بصر الناس ، وماكذب فؤادك ما رأى !

وتلك فراسة المؤمنين

لقد صحبتك دهراً ، فعرفت عنى أمراً ، أدبتنى فأحسنت تأديبى ، وإنى لأدعو الله لك فى صلاتى ، أن يثيبك عنى أجراً .

والله لا يضيع أجر المحسنين !

إنك لتذكر أول يوم فيه التقينا ، فعرفتك وعرفتني ، كان ذلك منذ بضع سنين ، وما كان عهدى وقتذاك من الصبا ببعيد ، لقد وجدت حائرا ،

فكنتَ ملاذ الحائرين

لقد أتيتك صبياً ، وها قد صرت شاباً قوياً ، فدعنى أبثك فى شبابى ، ما بثثتك فى صباى ، واهدنى اليوم بإذن الله ، كما هديتنى أول مرة .

فما جعلك الله إلا رحمة للعالمين !

أتذكر يوم أتيتك أمشى على استحياء ، تدفعنى رغبة لى فى الدين قويه أن أجد فيك هداى ؟ لقد ظنوا بى الظنون وقالوا ، مالك ومال هذا ، أين عقلك الناشىء من الغزالى وعلمه ، وما يطيق صحبته إلا الأقوياء ؟ ! .. أولئك الذين رسخت فى العلوم أقدامهم، وسمت أرواحهم إلى مجالى السماء . أين ذرتك يا صغير السن والعلم ، من هذا كله ؟ أقصر ما الهوى سهل !

لقد خشوا على عقلى الناشىء أن يضل إذ يتوه فى بحار من علومك لا يدرك مدى شواطئها العلماء . واشفقوا على روحى أن تعميه منك باهرات الضياء . وكانت بهم الرحمة على جسد لم يكتمل بعد ، أن تتعبه نفس تكبر عليه ، فلا يطيق حملها ، والروح غلاب !

لقد كانوا على حق حين ظنوا ذلك، وكنت على حق حين عصيتهم فيك

وخالفت أهلى فى هواك وإننى
وإياهم لولا حبك الماء والخمر !

وكنت أنت صادقا حين عرفت كيف تحتوينى . لقد أخذتنى فى بحرك

ولكن لا تسقيني إلا بقدر . وأطلعتني على ضيائك ، ولكن ما كشفت لي ستراً إلا بعد ستر . وقويت من روحي فلم يضق جسدي . ولكن كيف؟ ذلك هو السر !

فلم أضل ولم أته ، ولم أخسر فيك نفسي ، بل وجدت فيك كل شيء !

لقد قضيت معك سنين ، وما في السنين من شهور وليالي . قرأتُ لك وجلست إليك . لقد كنت معي كل وقت . حتى لا أظنني أغالي إن قلتُ ، إنّي ما كنت أدري ، متى كنّا نجتمع ، ومتى كنّا نفترق ، إذ كنت أجدك دائماً أمامي .

أريد لأنسى ذكرها فكأنّما

تمثّل لي ليلى بكل مكان

ولئن كنت أجدك دائما معي ، فما كنت أريد نسيانك . وهل كان ذاك في طاقتي إن أردت ؟

وإنّي لاستحييك حتى كأنّما

عليّ بظهر الغيب منك رقيب؟

وما كان هذا إلاّ لخيري !

لقد ذقت في صحبتك الروحية ، ما جعلني أنصرف عن لهو الشباب . فسكنت نفسي اليك ، ولذ لي بواديك السكن . واد كله زرع وماء ، فلا عجب أن هوت اليك أفئدة المؤمنين . لقد علمتني كيف أزهد في الدنيا ، ولكن غير نسي منها نصيبي . وعرفتني كيف أرغب في الآخرة ، فهديتني طريق . وحببت إلى العزلة ، ولكن في غير ما وحشة ولا استيحاش !

وأظنني لولاك — الا اذا كان الله لم يشأ لي غير ذاك الطريق —

لكنت فعلت ما يفعله الشباب . أرخى للدنيا عنانى ، وأنسى يوم الحساب . أتقلب فى الإثم وأقول « وربك الغفور ذو الرحمة » . ولكن من قائل لهؤلاء « وهو شديد العقاب » ؟ لقد قلت لى أنت هذا ، وشاء الله أن أكون من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وذلك الفضل من الله ، وان جعلك ربى . أى شيخى وامامى ، فيه سبباً .

لقد جلست اليك فى حلقات احيائك الخالدة ، فكنت أستمع لك تارة ، وكنت أكتب لك تارة أخرى ، حتى أتممت حلقاتك ، وما غبت عنها ولا تخلفت فى احداها . الا اذا كان الزمان عنك شاغلى ، لضرورة سرعان ما كنت أقضيها ، لأخلص لك وتخلص لى ، فاستمع لك فيمن يستمع لك من عشاق فضلك الكثيرين . وانى لأذكر تلك الأوقات التى كنت أتركك فيها على مضض الى سليمى .

وما عن رضى كانت سليمى بديلة

ليلى ولكن للضرورة أحكام !

ولازالت سليمى تشغلنى عنك بعض وقت وحين . ولو كان الأمر بيدى وكان الدهر يسمح ، لما كانت سليمى لى عن ليلى غناء ! ولكن ماحيلتى سوى أن أمتثل أمر القدر .

دع الأمور تجرى فى أعنّتها

وخلّ عنان الدهر فهو حرون

فادع الله لى . أى شيخى وامامى . حتى اخلص لك نجياً ، وحسبى من سليمى فالغرام له اهل ! ان قدر سليمى عندى هو قدرها عند من عرف أن لو كانت تساوى عند الله جناح بعوضة ، ماسقى كافرا منها شربة ماء —

وزدنى من المعرفة يا شيخى حتى، أرى سليمى على حقيقتها تماما، فلا أعرفها إلا طريقاً إلى الآخرة، ليلاى «والآخرة خير لك من الأولى». ولتهتف دائماً فى قلبى وأذنى «ولسوف يعطيك ربك فترضى».

إكشف لى عن سليمى القناع حتى أراها سافرة، فأنفر منها مع من رآها دون حجاب.

أيا سلمى كشفت لنـــا قناعا

وكان جمال وجهك فى النقاب

فأنا لا أريد أن أخطب غير ليلى، فقونى حتى لا يغلنى المهر!

وزدنى علما حتى تثبت قدمى فى الراسخين.

أى شيخى وإمامى ... إن جلوسى إليك فى حلقات إحيائك، قد غير لى فى الحياة نظرة. فأصبحت أراها بعين تبسم تارة وتبكى تارة أخرى! تبسم حين ترى فى الحياة معنى من معانى الرحمة، فإذا نظرت إلى شىء شعت عليها نفسى وقد اطمأنت، فإذا هى لا تبصر إلا نعمة من نعم الله على خلقه، لا تستطيع لها حصراً ... الطير يغنى، والشجر يرقص، والطبيعة تعزف لحناً والناس أهل كهم للشفقة والحب والرحمة. فلو قدرت لحويت الناس فى قلبى جميعا، وكنت كآدم لهم أبا.

وتبكى عينى ... فإذا الحياة تقطر دمعاً. الدنيا متاع الغرور، لعب ولهو وزينة، لكن فى غير أمان ... فإذا الطير يبكى، وإذا الشجر يترنح، وإذا الطبيعة زفرة وأنة! وإذا الحياة لا تستأهل دأبا ولا سعياً. فيعبس أمل، ويضيق صدر، فالناس أشرار، لو يعجل الله لهم العذاب، لما ترك على ظهرها من دابة. وإن قلباً قد وسعهم من قبل، أصبح يضيق بهم الآن! وهكذا دواليك! معنيان من معان الحياة يتجاذبانى، أى شيخى وإمامى،

فأراها بناحيتها ! الأسى والطرب . ولكن لا يستقر امامى ، إحدى وجهيها على حال ! فبت لا أدرى أسخط أم أرضى ، إن سخطت ، فماذا من سخطى أجنى سوى الكفر بنعمة الله ؟حاشا.إذن فلأرضى.. فإذا بنفسى تهدأ وتصبر على غير إختيار.فعنى حتى يدوم لى على كل حال رضاى. إن رضا كالحباب ، إن بان ذاب ، وغاب فى كأس العمر ، لهو رضا لا يرتاح اليه المؤمنون .

فعلمنى كيف يكون لى فى الله رضاء الصابرين !

وأنا — كما قد علمت — شاب ، وللشباب رغباته وميوله ، يدعوه داعى الصبا فيجيب . لكنك قد علمتنى كيف تصبح فى الله رغبتى ، فعرفت منك كيف أقصر عليه ميلى وهواى . فأصبحت الغريب فى قومى ، لقد

بدوت وأهلى حاضرون لأننى

أرى أن داراً لست من أهلها قفر

ألست قد علمتنى هذا ، وسل احياء علوم دينك ، ففيه وأنت تدرى الجواب ؟ سل حلقاتك فيه التى حضرتها لك ، فعندها الخبر اليقين .

والآن ؟ لقد كبرت يا شيخى ، وكبرت ، فى الله آمالى . إن بذرتك قد آتت أكلها ، وأصبحت ثمرتها فى نفسى « لا مقطوعة ولا ممنوعة » لقد علمتنى كيف أحب الله ، فأحببته. وكيف أخشاه فخشيته.وكيف أرضيه، فهو جهدى ما عملته . وكيف أعبده ، فعبدته . وكيف أصطبر على عبادته ، فاصطبرت ودعوته . وسرت بقلبى فى مجال النور ، فعلمت منك كيف أراقبه فراقبته . نصبت من نفسى عليها حاكما ،فإن وجدت قلبى آثماً ، عدلت فأدنته. لقد علمتنى كيف أبصر فى نفسى، فأصبح لى شعور فى الله ماضللته . إستمع لحديث قلبى ، فإن أفتى صدقته . وإن عزف بى عن الشىء قليته . لقد

جلوت لنا ظرى روض المعانى

فغرّد خاطرى بين الغصون

فأصبح [قلبي] مرآة، أبصر فيه آيات ربه الكبرى، وإن كانت الرؤية على قدرى !

وحضرت يوما إحدى حلقاتك حيث كنت تتكلم عن العزلة وفوائدها فنال ذلك من نفسى، وأصبحت زاهداً فى الناس. ولكن زدت عنهم وما أحمل لهم إلا الخير كله. لقد فررت بنفسى لأصونها، لا عن كراهية أو حقد كان زودى. لقد سرت معك وبعدت عن الناس، لأوقد شمعتى. فأجد من جوك فى عزلتى، مايساعدنى على إيقادها .فلا تنطفىء إذا ماهبت عليها أعاصير الناس !

واليوم قد استطعت أن أوقد كما أردت شمعتى — وإن كان ضوءها خافتاً — لقد أعنتنى. فأصبح لى نور أستطيع أن أمشى به بين الناس، أدعو لله كما علمتنى. إن يدك فى يدى، ويد الله من فوقنا. بذا استطعت أن أحمل شمعتى، دون أن تنوء بحملها يدى. ولكن شأن نورها عجب !

يقوى حيناً فأرى الطريق واضحاً أمامى، وأحس من نفسى عزمالا يلين وأحس بنفسى القدرة على أن أدعو لله دعوة العارفين، حتى إذا ما خطوت فى الطريق خطوة أو خطوتين، إذا بنور الشمعة قد ضعف. فلا أنا أستبين بوضوح ما أمامى، ولا أنا قادر على الرجوع إلى الوراء... إلى ما كنت عليه، ومن حيث بدأت. لقد هبت أعاصير الناس على هذه الشمعة، وأخذ الشيطان ينفخ فى نورها لينطفىء. فألبث مدة حائراً ! يتلاعب ضوء شمعتى، حتى أخشى عليه الفناء، فيتركنى فى ظلام. ولكن شمعة أوقدها الغزالى من نور الله، ما كان لها أن تنطفىء. والله متم نوره ولو كره الكافرون .. فسرعان ما يتداركنى الله برحمته، فإذا لى من ضوء شمعتى، ما يكفينى لأن أبصر ما ورائى. من أين أتيت ؟ فأرجع إلى حيث كنت « مازاغ البصر وما طغى »، ولكن لأقف ساهما... فى العين دمعة،

وفى النفس لوعة، وفى القلب دعوة ، لم أحسن بها سيراً . فتبقى الأمنية الحائرة متى يا رب أصح صيحتى ؟!

ويقوى نور شمعتى حينا آخر ، حتى تكاد نفسى تشتعل . ولكن بدل أن يكشف لى النور ما أمامى ، لأدعو على هداه ، إذا به قد إرتد إلى أسفل وتسلط على نفسى ، فيكشف لى من خباياها عجباً !

فأرى فى نفسى أشياء ، كنت أرضى عنها من قبل ، فإذا بى عليها من الساخطين . ولولا هذا النور الذى تسلط على نفسى من شمعتى ، لما كنت بها من الضائقين . يغير هذا النور من نظرتى . فما كان سببا لرضاى من قبل يصبح سبباً لسخطى الآن !

فحين ترسل شمعتى نورها إلى الأمام ، أكون راضيا عن نفسى ، مطمئنا لعلمى ، واثقاً بدرجة إيمانى ، مرتكنا إلى عزيمتى ، وأحسب أن لى عند الله مكانة . إنى لأقيس ما أنا عليه ، وما أنا فيه ، إلى ما عليه غيرى وما هو فيه ، فترضينى المقارنة وتعجبنى المقايسة !

ولكن سرعان ما يرينى نور شمعتى ، شيئاً غير ذلك ، حين يذهب فى نفسى مسالك شتى !

فما ظننته علما ، لا أعود أراه من العلم فى شىء . فإذا أخذ نفسى حب النضال والتكايس فقالت : بل أنت على شىء ، فإن علمك كذا وكذا .. سرعان ما يأتينى هذا السؤال . وهل عملت بما علمت . وشر العلم علم لا ينفع صاحبه ، إذ لا يكون به من العاملين ؟ وتأخذ نفسى تحاسبنى .. أنت تعلم أن الواجب محاربة المنكر . وقد علمت ما المنكر ، ورضيت بأضعف الإيمان فأى علم هذا ؟ وهل أفدت الإسلام بعلمك شيئاً ؟ وهل أرضاك ما ترى عليه الآن أهله ، من ضعف وإختلاف وضياع ؟! أتدرى هذا أم لا تدريه ؟

إن قلت لا أدرى فتلك مصيبة

وإن قلت أدرى فالبليـَّة أعظم

إن قلتَ لا أدرى ، فعلى لم يصل الى هاته الدرجة . فأين ما تدّعيه من العلم إذن ؟ عليك بالتماس العلم من جديد . وان قلت أدرى . أعرف سبيل الاصلاح ، ثم سكت، فقد كتمت ما آتاك الله من فضل، « وأمّا بنعمة ربك فحدث » . وما فائدة علم لم ينتفع به صاحبه ؟ أستعذ بالله من علمك ، كما أستعاذ الرسول ، وكما أبلغك شيخك وعرّفك وقل اللهم انى أعوذ بك من علم لا ينفع !

وهكذا يأخذ على فى التضاؤل كلما قوى عليه نور شمعتى ، فلا أراه الا زبدا، فى الذاهبين جفاء .فأين ماينفع ؟وكيف أنفع ؟ أى شيخى وامامى

لقد رضيت اذ كنت أقيس علمى ، على من هو أقل منى علماً فأصبحت أسخط الآن ، حين ذهب بى النور الى الدرجات العلى ! وهناك افتقدت علمى فلم أجده الاّ حابيا ، نحو أول درجة من درجات العلم والمعرفة، حتى هذه لم يبلغها بعد ! فعرفت أين أنا من العلم والعلماء . أولئك الذين يوزن مدادهم يوم القيامة بدماء الشهداء

وهنا أعاهد الله على شىء ... سأطلب العلم لأنى لا أعرف ما يصح ان يسمى علماً ؟ فهل لى أن أجد فيك يا شيخى وامامى العزاء ؟ وهل لك أن تأخذ بيدى الى شط النجاة ؟ علمنى من العلم ما ينفع وزدنى من المعرفة حتى تكون لى عند الله ، درجة الخاشين(١)

وترسل شمعتى نورها على قلبى ، ساعية الى مكان الإيمان منه ...

(١) يقول تعالى : إنما يخشى الله من عباده العلماء .

ويحى ! لقد كنت فى غفلة من هذا . أذاك هو الإيمان الذى كنت يارب أدعيه ؟ ! حقاً ، ان بصرى الآن حديد . لهذاشبه ايمان لاايمان . مالى أتعلق بالحياة وأسبابها ، متاعهاوجاهها ؟ أذاك هو الإيمان الحق ؟ ! فأين العزوف عن الدنيا وحب الآخرة اذن ؟ ان ذلك النور ليبين لى الآن ، عقدة من عقد القلب . كنت لاأراهامن قبل ، فأصبحت لها من المبصرين . ان هذه العقدة هى التى تربط قلبي بالدنيا وأهلها ، وحبها . فلو قال لى قائل « فتمنوا الموت ان كنتم صادقين » . لبقى قلبى حائرا يتردد . تتجاذبه شهوات الحياة ، ويتعلق بالدنيا بسبب ! فأين ماأدعيه من ايمان ، أهذا هو الإيمان بالله ، وأكذلك يكون شأن المؤمنين ؟ أليس الله هو المحبوب ؟ وهل بعد لقاء المحبوب شىء ان كنت فى الدنيا تحب انسانا ، وقال لك قائل ، هو فى بلد ووصفها لك ، اذن لسعيت اليه ، ان لم يسع هو اليك . فما بالك تدعى حب الله ، والإيمان به ، وتحب أن تطيل وقت البعاد بينك وبينه ، وتمد فى عمر الفراق مااستطعت كانت نفسى تجيبنى حين لايكون هذا النور الصادق منصبا عليها . . بأنى انما أحب الحياة لأجل أن أرضى الله ، وأحيى عمرى الطويل فى محبته وعبادته ورضاه ! ولكن هذا النور الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، قد أخذ يكشف خباياها . لقد اظهر لى ما كنت أحاذره ، وابان لى شيئا . كنت عن نفسى أخفيه . انه ليطلعنى بوضوح على غرف قلبى ، فأجد اكثر غرفه ملآنة بحب الدنيا ، وما غرف الآخرة فيه الا قليل ! فتأخذنى صيحة الحق ، انها صيحتك ياشيخى « ما انت فيه رياء وتخييل . وان لم تستعد الآن فمتى تستعد ؟ ! (١) » . فأحاول ان افر من نفسى ومن نورها فإذا بذلك النور قد حاصر عقدة الدنيا فى قلبى ، فتبدو لى على ابشع صورة واسمع صوتك ياشيخى يهتف فى اذنى بحديث الرسول عليه السلام . يابنى (حب الدنيا راس كل خطيئة) .

---

(١) نقلا عن المنقذ من الضلال

ثم يأخذنى ندم واستعبار . . اين إيمانك ياشق من إيمان الذين « رضى الله عنهم ورضوا عنه » ؟ اين انت من ذلك الفوز المبين ؟ ام اين ايمانك من ايمان ابى بكر الصديق ، وعمر الفاروق ، وعثمان ، وعلى ، والصحابة الأولين ؟ وهنا اسمع صوتك ياشيخى يصيح فىّ : هلكت فى الهالكين !

وهنا أعاهد الله على شىء . . . . سأحذو حذو المؤمنين الراشدين وأتشبه بهم ، ان لم أكن مثلهم ، فاتخذ سبيلهم لى سبيلا ، عسى الله يجمعنى واياهم ، يوم يحشر المرء مع من أحب ! فاذا بهاتف من الأعماق ينادينى . قل . . يارب قد اتخذت وجهك فى الحياة سبيلى ، وجعلتُ مسعاى اليك . وآليت أن تكون أبداً دليلى . عليك توكلت واليك أنيب ، الرسول قدوتى والقرآن عبرتى والصدّيق خليلى . وحزبك يارب حزبى ، أغنانى عن قوم بما لديهم فرحون . ألا ان حزب الله هم الغالبون .

تشهد علىّ جوارحى ، ومابى من لحم ودم ، أن هذا القلب مطمئن بذكرك . وذاك العظم لايلين ما دام يقوى بمعرفتك . . اذا خفق قلبى اليك يدعونى ، اشتد ساعدى على من هو فوقى ، ولان لمن هو دونى ، حتى آخذ بحق قد أمرتنى به .

لبيك يارب جاهداً . لبيك قلباً وقالباً . أنا وما ملكت يمينى . كله فداء لربى ودينى !

تلك أمنيتى حقاً — أى شيخى وامامى — ولكن كيف السبيل ؟ قصّ علىّ ما تثبّت به فؤادى ، وخذ يا امام بأيدى العاجزين !

وترســــل شمعتى نورها . . . . فيسعى حثيثاً يطلب مكان العزيمة

من نفسى ! عجباً ! أين ذلك الطود الشامخ ؟ أين ذلك الجبل الراسخ فى نفس ما عرفته يلين ؟ اين عزما زعمته فى نفسى يوماً ، واين يارب عزيمة المؤمنين ؟ اين ما ظننته فى غفلة من حقيقة امرى ، قوة ، كنتُ ازعم انى ادخرها حتى وقت وحين ؟ قد بدالى من نفسى ما لم اكن احتسبه، واستبان لى على غير ما كنت اظنه الأمر ؛ ان تلفّت ، فليس الحال ما ظننته ، لن تتفزّع الأفلاك ، او يلتفت الدهر ؛ اى شيخى وامامى . تقول لى نفسى ونور شمعتى على ذلكم من الشاهدين ، أنى الضعيف لا عزم لى ، ولا حول ولا قوة . فإذا بهاتف من وجدانى ينادينى ؛ كما نادانى من قبل . . . قل ... أنا الضعيف يارب لولاك . صدق . فعنى ياشيخى حتى استمد قوتى من قواك لقد حرت مع نفسى ،وتاه فى أنحائها فكرى . ترى كم أساوى ، وماقدرى؟ بين لى أنت سبيل الرشاد . يامن جعلك الله رحمة للعباد . نبئنى ما لى أقوى تارة ، وأضعفُ أخرى ؟

كريشة فى مهب الريح طائرة

لاتستقر على حال من القلق ؟!

وهلا أذنت لى أن أعود فأصحبك تارة أخرى . علّ يقوى « حالى » بحالك ؛ فيصبح لى ما يصح أن أدعوه فى الله قوّة ؟ وما يصحّ بأن يسمّى العزيمة فى الله ؟ إنى لن أرضى عن نفسى بعد ذلك ، كما رضيت عنها من قبل رضاء الجاهلين . ولن أطمئن لها ، قد انكشف الغطاء عن أعين الغافلين . ولن أقول بأن لى عزيمة حق ، ترسل شمعتى نورها ، فأرى على ضوئها ... عزيمة تحكى الجبال ، فى ثبات ورسوخ .

أحدث نفسى بهذا يا شيخى . فاذا بى أعاهد الله على شىء . . . سأبدأ الجهاد الأكبر مع نفسى من جديد . وهل أقوى على الجهاد بغيرك ؟

إنى فى حاجة إليك ياشيخى ، فلا تدعنى فى الغافلين . وأضىء لى الطريق حتى ، يرى قلبى ربى ، كما رآه من قبل ، فؤاد عمر (١) . فمن ذلك النور تتولد عزيمتى ؛ ويكون لى قدم صدق ؛ فى الراسخين !

وتزداد شمعتى توهجاً ، فتكاد نفسى تضىء ولو لم تمسسها نار ، فأقرأ من خفاياها ، كما لو كنت أقرأ فى كتاب مفتوح ! وأكاد أبلغ بذلك النور الذى تكشفت لى على ضــوئه نفسى ، قبساً من قوله تعالى « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » فأحاسبها وتحاسبنى . لى الويل مما قرأت . شدّ ما لقيت من حسابها عسرا . وقع القول علىّ بما ظلمت ، فلم أجد لى حجة ولم أعرف لى عذراً . شدّ ما أنا ضئيل ! لقد عرفت قدر على ، وتبيّنت مقدار إيمانى ، واستبنت فى أى الدرجات عزيمتى ! فلم أجد لى علماً ، ولم أجد لى ايماناً ولم أجد لى عزماً . فكم أساوى ؟ . . رحم الله إمرأ عرف قدر نفسه . وهنا أحاول خداع نفسى — هيهات — فأقول . حسبك مالك وهذه المقاييس . ألم يقل المصطفى عليه السلام . إنما الأعمال بالنيات وانما لكل امرىء مانوى؟ فحسبك من كل هذا نية قد أصدقتها وأصدقتك . وخلصت بها لله تقياً . وإنما يتقبّل الله من المتقين . فلم تحاسب نفسك حساباً عسيرا ؟ لقد أردت وجه ربك . وكفى بربك هادياً ونصيراً . دع العتاب واسترح فى الهادئين . هنيئاً لك عند ربك أجر المخلصين ...

قد نجوت فى الناجين .

كذبت يانفس . إذ سرعان ماترسل شمعتى نورها إلى أعلى . وتتخذ

---

(١) حديث عمر المشهور : رأى قلبى ربى ؛ أورده الغزالى فى إحيائه الخالد

سبيلها فى السماء عجباً ... إلى حيث الدرجات العلى . وهناك ارى المخلصين لله فإذا هم درجات عند ربهم .

تلك درجة الأنبياء ... إن بصرى لايصل إليها . فان نورها اقوى من ان يحتمل النظر إليه إنسان . يكاد سنا برقها يخطف الأبصار .

مكانك يابصر . تلك درجة الأنبياء . اين انت من هؤلاء . هنالا يستطيع النظر . سوى من كان صديقاً نبياً .

وتلك درجة الصديقين . اكرم بهم . . . ثم ابو بكر وعمر وعثمان وعلى وخلق من الصحابة كثير . وحسن اولئك رفيقا . رضى الله عنهم ورضوا عنه . ايها الصديقون سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار . اين مكانى عندكم ؟ . . . مكانك ؟ . . . جاءنى الهاتف بالجواب . هاهنا تبلى السرائر . وليس هنا فى أولئك من الخلق إلا صديق .

فأنا اتشفع بالصديق إذن . ولى جاه بتسميتى .

هيهات . سمعت الجواب . . . هنا « لاتجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة . ولا يؤخذ منها عدل . ولا هم ينصرون » . دونك فاعمل ما كنا نعمل « اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » ان شئت درجة الصديقين — ما الهوى سهل — ليس لك هاهنا من حميم . الا عملك وقلبك السليم . فاقصر طرفك عنا . او فاذهب وكن من العاملين . فقد تصبح يوماً . مثلنا . صديقا . ويكون لك معنا « مقعد صدق عند مليك مقتدر » !

وهنا اجفف دمعة . وانزل ببصرى قليلا ...

. . . تلك درجة الشهداء ، والعلماء العاملين ، والأولياء الصالحين . انى ارى منظراً عجباً . واشم طيباً وأرجا . ماذا هناك ؟

لقد « وضع ميزان هنا . وميزان هناك . انها الموازين القسط » !

اری الشهداء . وجوهم كالبدر ليلة التمام . انهم يتكلمون . على سرر متقابلين . يطوف عليهم ولدان مخلدون ، كأنهم لؤلؤ منثور . انهم احياء. اجل . جاءنى الجواب « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتاً بل احياء عند ربهم يرزقون » صدق الله العظيم .

فما هذه الروائح الطيبة . أمسك وعود ؟ بل دماء الشهداء ؛ وإن ريحها لأطيب ... تبارك الله رب العالمين !

فما هذه الموازين ؛ وما يريد هؤلاء الملائكة ، بأخذهم من دماء الشهداء ووضعها فى كفة ، وأخذهم من مداد أولئك العلماء العاملين — وبيد كل عالم منهم قدر ما أنفقه حياته فى سبيل الله من مداد — ووضعهم إياه فى كفة الميزان الأخرى . جاءنى الجواب . . ألم تسمع قول المصطفى عليه الصلاة والسلام : يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدماء الشهداء . فذلك يوم الوزن وكل من مات فقد قامت قيامته . فاستعبرت باكيا . أين أنا يارب من هؤلاء . وأردت أن افتقد عندهم درجتى ؛ فصاحت بى نقطة من دماء شـهيد :

أيها المغرور ما أنت فاعل . إن الدرجات لاتعطى هنا ، إلا بما تنفقه فى سبيل الله من دم . ولمثل ذلك فليعمل العاملون . أتظن الدرجات العلى أمانى . مالكم كيف تحكمون ، أين أنت من قوله تعالى « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون . وستردّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » فأين عملك الذى تلقى به الله أين ؟ وهل عملت مثلنا بقوله سبحانه « ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما » فما طمعك أن تكون لك درجة ، مع الذين أنعم الله عليهم ؛ ولم تعمل مثلما عملوا ؟! ألا فاذهب ، وسر سيرنا ، إن أردت أن تكون مثلنا ، وجئنا بدمائك لا بكلامك ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون .

فأطرقت برأسى

ثم أهابت بى نقطة من مداد عالم عامل :

حسبك يافتى مالك ها هنا الآن درجة تفتقد . أتطمع فى درجة من الدرجات العلى مع أصحابنا ، ولا تكون لك معهم ، قطرة من مداد . أرقتها فى سبيل الله - تلك درجة ورثة الأنبياء ، وإخوانهم الشهداء ، ورفقتهم من عباد الله الأولياء . فأين أنت من كل هؤلاء - خبرنى أين دماؤك - أم أين مدادك - ام اين شهادة الله لأوليائه .. « أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم » اعندك هذه الشهادة فتبرزها لنا ؟ إذن مالك ومال « الذين أنعم الله عليهم . غير المغضوب عليهم . ولا الضالين » عد من حيث أتيت عد - وقدم لغد - واسلك نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه واهتف معهم إذ يدعون « ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين »

واحذر أن تفوتك هذه الفرصة ، فالأيام تأتى العمر تنقصه من أطرافه فالبدار قبل أن يفوت يوم العمل ، ويأتى اليوم الذى تنظر فيه نفس ماقدمت لغد وتقول .. ياحسرتى على مافرطت فى جنب الله « ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما »

فغضضت من بصرى !

وعند ذلك تخفض شمعتى نورها ، وترسله فى قرارة نفسى ، ويهتف بى هاتف من أعماق وجدانى :

أنظر يا شقى نفسك . أين عملك ؟ . . أين دمك . . . أين مدادك ؟ فتأخذنى الحسرة .

إنى لا أجد لى بعدفى الله عملا ! فما طمعى فى درجةالصديقين ؟ ولاأجد لى دما فىالله أرقته ! فما أملى فىدرجة الشهداءالمرزقين؟ ولا أعرف لى مداداً فى الله أفنيته فما عشمى فى درجة العلماء العاملين ؟ ولا أعرف مدى ولا يتى عند ربى فما طمع العاصى فى عليين ؟ فما درجتى عند الله إذن ؟ غفرانك ربى . تبت اليك وأنا من المؤمنين .وهنا أعاهد اللهعلى شىء ... سأجعل لى فى الله ، عملا ، ودما ، ومداداً ذاك عهد أشهد عليه فاطر السموات والأرض .

فيا شيخى وإمامى . كن لى العون وكن لى المدد . أنت الذى أيقظت فى نفسى ما كان غافياً . فكن لى الوالد أكن لك « الولد » . إن روحينا فى فى الله التقتا ، على أمر قد قدر . وإنهما لجندان مجندان . روحك عال وروحى على ما أرتضيت يسير . فاصحبنى ولا تفارقنى أبدا . كن فى خاطرى ملهما ، وكن فى عقلى مرشداً موجها ، وكن فى سمعى مذكراً ، باللهوطريقه والبث أمام عينى حاضراً ، تجلو لى فىطريق سيرى المعانى . إن زمامى بيديك وأمرى لمن خلقتنى وسوانى . ربى الذى يعلم سرى وإعلانى . قد أوليته وجهى ، وأصفيته نفسى ، وأذبت له فى نبع الطهر كيانى . فاختلجت نفسى — أى شيخى وإمامى — فكتبت وما قصدت بيانى . تلك كأسى قد طفت من نبع وجدانى . خرج اللحن منها وامتزج فىطيب المعانى . فسكبت القول إذ يسرى بألحانى . أعبر — لك — عما حركنى . وما أنطقنى ، غير إيمانى هاتف كالسحر يدوى ، هزنى ، وأثار كوا من أشجانى . فقلت لبيك بالروح وبالجسد الفانى . أسرى اليك ، وقد جهلت مكانى . سقانى — هاتفك — الخمر حتى روانى . السكر الحلال من سرك الربانى . لم أذقه بإثم ولا الشر أغوانى . فلما حركنى الذكر لله دعانى

فيا شيخى هيا ، ويا هاتف الدين لبيك . إن الله بك قدهدانى . أصخت

اليك سمعى ، مرهف الحسن متجها بجنانى . صادقا فى توجهى ، عصيت هواى لأخذل شيطانى . واتبعتك يا شيخى فاستجاب لى ربى وانتصر إيمانى . وطهرت نفسى فرقّ حسى ووجدانى . وطفت كأسى تفيض منها المعانى . فجعلتها لله ، وأدرت عليها ألحانى ... يا رب لك نفسى ومالى ، أنت العليم بما أضمر والبصير بأحوالى . يا عالما بسرى وما جرى فى الجهر من أقوالى . إذا كانت مرت فى غير ما يرضيك بعض ليالى . صفحاً ، قد تعاظمنى ذنبى وذا إثمى بدالى . أرحنى قليلا ، ومر قلبى يهدأ ، وأصلح لى بالى . قد تعبت يا قلب مما تعانى . يارب شربت كثيراً ، من الدين حتى روانى . ألبى هاتف الدين كلما ، صاح بى ألبيه إذا ما دعانى . ما أردت سوى نصرة الإسلام شيئاً . وهبنى أردت غير وجهه ، فالنفس تأبى والطبع يعصانى . والقلب ينأى ، والعقل ينهانى . بجمح بى الفكر . . . يا فارس الدين قد أسلمت لك اليوم عنانى . ألا رأفة بى . هون على ، وارفق بصبك العانى . لا أشتكى فيك عبئاً . لاوحق من سوانى . لكن أجهدنى الحس كلما، حركه الفكر لله اضنانى . فنؤت بالصبابة . يا حامل عبئها ، لكم تشكو منها وتعانى . بلى حملتها ورحت ابث إلى الله أشجانى .

واذنك يا شيخى تحس آلامى . وقلبك يا إمامى ، خير من يقدر فى الله آمالى . ان دروسك البينات ، قد بعثت على يديها أمنياتى . ومن نور « احيائك » اوقدت سراج حياتى . فانبعثت يهدى ... للتى هى اقوم ولكن لا تزال تبعد بى ، بعد عن الوعظ مراحل . اين انا منك يا شيخى ، اذا كان مثلك يقول لمن سأله ان يعظه « اما الوعظ فلست ارى نفسى اهلا له ، لأن الوعظ زكاة نصابه الإتعاظ . فمن لا نصاب له ، كيف يخرج الزكاة وفاقد الثوب كيف يستر به غيره ؟ ومتى يستقيم الظل والعود أعوج ؟ وقد اوحى الله إلى عيسى عليه السلام . عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس ،

والا فاستحى منى (١) » ولعمرى لقد كان ذلك ابلغ الوعظ اتذكر كيف بكى من وعظت وبكينا لقد بقيت حتى اليوم أستحى من ربى ، ان أردت أن اعظ مخلوقا ، واقول لنفسى . انت يا شقى منه بالوعظ أولى

ليت شعرى اذا كان حجة الإسلام يرى نفسه غير جدير بأن يعظ فماذا تكون قطرتى فى بحر وعظه ؟ وهل عمل الواعظون بما علموا ؟ .. رب « ما فعلوه الا قليل منهم » ولا من سمع الوعظ اتعظ وعمل بأحسن ما سمع « ولو انهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم واشد تثبيتا »

أما الواعظون — فلست منهم — واما المتعظون ، فشدما اشتهى الخير والتثبيت . فزدنى يا شيخى من عظاتك زدنى ، واسأل الله لى ، فتوح العارفين

اى شيخى وامامى : ماذا تريد من مريدك ان يكون ؟ لقد صحبتك دهراً وما فارقتك الا على رغم . اذ آثرت انت العزلة وتركت بغداد فعدت أنا الى بلدى ، وها انا ذا اليوم بمصر اقيم . على عهد لك ما نسيته ، وإنى لأشعر بأن بين جنبى رسالة أحملها وعلىّ تبليغها يوما . فمتى هذا اليوم ؟ هل لى أن أقول ، عسى أن يكون قريباً ؟ هذه الرسالة التى تولدت فى نفسى من تعاليمك الغزالية نزلت بذورها بأرض نفسى ، فصادفت أرضا سمحة ، قد أعدت لاستقبالها .

« غريزة وفطرة من الله وضعتا فى جبلتى . لا باختيارى وحيلتى (٢) » .

---

(١) طبقات الشافعية لابن السبكى . ج ٤ ص ١١٢ . بماروواه ابن السمعانى عن حجة الاسلام

(٢) عن المنقذ من الضلال لحجة الاسلام الغزالى

واليوم هاقد أصبح البذر شجره ، تشعبت جذورها فى نفسى ؛ متخذة للهدى سبلا .

فأصلها ثابت فى قرارة نفسى ، وفرعها فى سماء المعرفة ، كما قد علمتنى دان للقطاف! لكننى أتهيب قطف هذه الثمار ،فأبقيها على حالها « لا مقطوعة ولا ممنوعة » . إن قطافها على غيرك حرام ! أليس الزارع أولى بحصاد ما زرع ؟ ورب البيت أدرى بما فيه؟ فاقطف معى يا شيخى من ثمارى ما ينع . فشد ما أخشى إذا ما توليت قطافها بنفسى ، أن تخطئنى الحقيقة ! فاذهب للفج منها أحسبه يانعا ، فإذا ماقطفته وجدته حسرة على ! لجا ّ لازال بعد ، ما فيه خير للآكلين . ولربما خشيت أن أدع ثمرة قد حان قطافها وآن أوانها ، جهلا منى . فتكون معدة ، وأنا غير دارى ؛ لأن تكون خيراً للعالمين . فتعال معى ؛ يا شيخى وإمامى ، أقطف من نفسى ما شئت وأجن وأرشدنى كيف أدعو إلى سبيل ربى ؛ كما أمر « بالحكمة والموعظة الحسنة » وسأقص عليك يا شيخى ، من أمرى اليوم عجباً . إنها حالة تعترينى بين حين وحين ، فلا أجد عنها منصرفا

لقد أصبت من علمك ما وسعته نفسى . وملأت من بحار معرفتك ؛ قدر ما أطاقت الحمل كأسى . وذقت فى صحبتك الروحية ؛ ما أنت به يا امام عليم . أى لذة وأى نعيم !

فإذا ذكرتكم أميل كأننى
لطيب ذكركم سقيت الراحا

وإن تكن كأسك كأساً « لا لغو فيها ولا تأثيم » خمرها ! لذة للعارفين . ونشوتها فى الله هوى ! يؤلف بين قلوب المؤمنين . فشأن سكرها ما قاله سيد الذائقين

شربنا على ذكر الحبيب مدامة　　سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

ولى غريزة فى الله ، نزّاعة إليه — كما علمت — أبداً . فهو الطبع ينزع بى إلى من خلقنى فسوانى فعدل . وهو التطبع — على يديك يندير بى فى الطريق عينه . انهما الطبع والتطبع يدفعاننى ، الى تلك الغاية الموحدة . دفعاً ! لقد كان سيفى فى الله ، غير مصقول . فصقلته . وكان كنزى مخبوءا فى نفسى ، فاستخرجته . وكنت أطوى جوانحى على حب لله ، فنشرته . وكنت حائراً لايجد نفسه ، فهديته . واحتبس القلب زمانا ، حتى أذن الله فأطلقته .

وكان ذهب المعرفة مغموراً فى الترب عندى ، لكنك جلوته . وكان صوتى خافتا يدعو لله ، فأعليته . وكان اليراع ضعيفاً بيدى ، فقويته . وكان المعنى حائرا لدى ، فبينته . كنت لا أعرف لى بعد فى الله هدفا ، فكنته . . . أخذت بساعدى والقوس عنى شددته . فاليوم أرمى بسهمك ، لأصيب هدفا نصب عينى جعلته . إنه الدعوة فى الله . ولكن كيف ؟

بقى السيف فى يدى مصلتا ، ولبث الكنز أمام عينى ظاهراً ، وظهر حبى لله عابقاً ، وهديت النجدين : وانطلق القلب بسرك ناطقا ؛ وبرق ذهب المعرفة فى نفسى ؛ وأخذ صوتى فى الله يعلو . وثبت اليراع بيدى وأخذ طريق دعوتك . وتهيأ المعنى متحفزاً لوثوب . وأخذ الهدف المأمول يدعونى ؛ والقوس تهتز من حماس . والسهم مسدد ؛ لكن بعد ما انطلق ، وثم صوت دائم فى أذنى « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة »

تلك حالتى ؛ وذاك ياإمام شأنى . فإذا بالرأس قد أخذه من حمية الدين دوار . واذا العقل مكدود . واذا الجهد قد أخذ يصول فى نفسى ؛ فيضنينى إذ لم أفرج عنه بعد .

إن كتائب نفسى قد أعدت — وأنت الذى أعدها ياشيخى — فلما

لم تنصرف لما أعدت له ، من الدعوة لله كما ينبغى ، أخذت نار حماسها تأكل من نفسى ، حين لم تجد شيئا تأكله . انها لتأتى على ، إذ لم تجد ماتأتى عليه . وكان حريا بها أن تجده ، لو سددت ياشيخى بإذن الله خطاى ، فأمنت من زلل . وأحكمت شفتى ، فسلمتا من شطط ، وبعدتا عن خطل .

يثور بنفسى كل هذا ، فإذا بى قد اشتعلت . . . . فإذا بى أقبل على نفسى أسائلها . ماذا أنا فاعل ؟ . . .

وهنا أجد الجواب يقفز بى إلى « حلقاتك الإحيائية الخالدة ! فتعود بى الذكرى إلى ذلك اليوم الذى جلست أستمع فيه لك ، وقد انعقدت الحلقة كنت تتكلم عن العلم وكيف أن طلبه ، كما يقول المصطفى عليه السلام ، فريضة على كل مسلم . ثم أذكر ما استشهدت به فى درسك ذاك من أن الرسول عليه السلام شرف العلم بقوله : اذا أتى على يوم لا أزداد فيه علما يقربنى إلى الله عز وجل ، فلا بورك لى فى طلوع شمس ذلك اليوم . واستعيد الصورة السمعية لقولك ، أذ تؤمن على ذلك الحديث المنسوب للرسول عليه السلام ، بقول على رضى الله عنه .

ففز بعلم تعش حيابه أبدا　　الناس موتى وأهل العلم أحياء .

ثم أسأل نفسى أى نوع من العلم أطلبه ؟ أهو ذلك العلم الذى مات بموت عمر تسعة اعشاره . وهو العلم الذى عناه الرسول عليه السلام ، بقوله : من العلم كهيئة المكنون . لا يعلمه إلا العالمون بالله تعالى ؟ فأسير بعقلى أعترف من بحار العلوم ما يشاء لى الله ؟

وهناك أراك يا شيخى تذكرنى بقول على رضى الله عنه

رأيت العقل عقلين　　فمطبوع ومسموع .

ولا ينفع مسموع　　إذا لم يك مطبوع .

كما لا تنفع الشمس　　وضوء العين ممنوع .

فأحار وتشتد بى الحيرة والفكر . ويضرب الشك سرادقه حوالى .هل الى خروج من سبيل ؟ وهنا إذ يصل بى الحال الى مارأيت . فأريد أن أبصر فى نفسى لأعرف لى خلاصا . تجيبنى نفسى قد .

رايت الذى لا كله انت قادر عليه ولاعن بعضه انت صابر

واذاك يخيل الى . انى مهما قرأت . فالقراءة لاتكفينى . ولم ؟ذاك لأنى أريد ان اقرأ كل شىء فى وقت واحد . فيكون شأنى كمن يلق بنفسه فى البحر . ليأتى عليه شربا . فيهلك بشربة منه واحدة . فلا البحر ينفد . ولا نفسه اليه تعود . ولكنى لا ألق بنفسى . والبث حائرا اتفكر . . . ماذا اقرأ ؟ . .وماذا اتعلم ؟العلم الذى ينفع . ويقربنى إلى الله زلفى . وكيف استثمر لحظتى وساعتى فى الله على اتم ماينبغى ويكون ؟ فلما يتعبنى التفكير وينال من نفسى العناء . ارى لنفسى حلا ومخرجا ارتضيه ابتداء . ماذا على لو جلست لأكتب؟ هنا تكون الدعوة لله بالقلم . وفى النفس اشياء وفى القلب اشياء . ما اجدر ان يصور هذا كله . قلم يولد معنى . ويخط لله الكلم . فإن أفلحت ان اكشف حجابا عما فى نفسى . ليعيش فى جوى من يقرؤنى . لكان هذا دعوة فى الله . اذ أحب لغيرى ماأحبه لنفسى. ولربما وفقنى الله . فهديت اليه قارئا لمس من نفسى معنى من معانى الإيمان . قدرت على ابانته ، فمس هذا المعنى من نفسه مثلما مس فى فاذا الألفة فى الله ،والأرواح جند مجندة ، ما تعارف منها ائتلف . واذا توافق المعنيان يخرج لحنا ، حلوا يدعوا الى الله ، فيكون حالى مع قارئى هو ماحدثتنا به يااماى « قد عرفت روحك ، حين كلمت نفسى نفسك . ان الأرواح لها أنفس كانفس الأجساد ، وان المؤمنين ليعرف بعضهم بعضا ، ويتحابون بروح الله ، وان لم يلتقوا . يتعارفون ويتكلمون

وان نأت بهم الدار ؛ وتفرقت بهم المجالس (١) » فلأكتب اذن فالكتابة خير ؟ ولكن ؛ كما سكت اللسان من قبل وكما عجزت عن القراءة ؛ يصمت قلمي الآن ، فلا يستطيع الكتابة ؛ ويبقى ساكنا لايتحرك القلم بيدى ؛ والقول على لسانى ؛ والشعور فى حسى ووجدانى ؛ والروح تسعفنى بشتى المعانى ورغم هذا كله ؛ أرى نفسى عاجزا أن أعبر . فإذا القلم عصى ؛ واذا اللسان عيّ ؛ واذا الشعور قد تبلور فى قلبي فغدا معنى علويا ؛ اسمع له همسا خفيا ان قل .. إنى نذرت للرحمن صوما ؛ فلن إكلم اليوم إنسيا » فأضع القلم ؛ كما قفلت من قبـــل الكتاب . أعجز ما اكون عن كتابة وقراءة .

ولربما قرأت ، وكتبت أحيانا أخرى ، ولكن ماقرأت إلا فطرة مما أريد ، وما خططت إلا حرفا مما أريد تسطيره . أو هكذا يخيل إلى !

لقد أيقظت روحى يا شيخى ، فأتعبت جسدى . فإن الروح من أمر ربى ، والله غالب على أمره ، وتلك وثبة الروح بالجسد الفانى . روح متين عند ذى العرش مكين . وجسد من طين ، خلق من ماء مهين . يخرج من بين الصلب والترائب . فتلك تنزع إلى أصلها وتعلو ، وهذا ينزل إلى أصله فيستكين. وأنا بين الروح والجسد ، متعب حائر مكدود ! أسمع لروحى حينا فأنسى جسدى وأسمو بها حتى أضنيه ، فإذا بالجسد ينادينى — وله على حق — مهلا .. أنا منك وأنت منى ! وقد أستجيب له ، وقد أغفل دعوته حتى أشقيه .

وحينا آخر ، أرحم هذا الجسد ، وأرى الروح قد ظلمته كثيراً وكادت تقتلعه من أرضه ؛ فأقول للروح .. حنانيك . لو شاء الله أن أطيعك أبدا لخلقنى فى الملائكة المقربين « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » إليك عنى قليلا ! أن لبدنى على حقا. هكذا قال سيد المرسلين . ولكن أترانى سعدت حين أغفلت من أمر الروح قليلا ؟

---

(١) احياء علوم الدين .

وتأبى الطباع على الناقل !

نخبرنى ياشيخى ، أروحى مظلوم مع جسدى ، أم جسدى مع الروح مظلوم ؟ أم أنا المغبون من دونهما الحائر ؟ إن شأنى وإياهما عجب .

فيالهما منى ويالى منهما :. نحن الثلاثة ارتطمنا بالقدر .

روح غلاب . وجسد من تراب . ومن بينهما انا .

فيانفس :

انت روحانية لا تدعى

ان هذا الجسم من طين وماء

وليتك ما كنت كذاك ، اذن لا سترحت وارحت . ولكن هيهات . ان حامل الدين كقابض الجمر ، حريص عليه وان أوذى ، بخيل به يدرع الصبر لا يفارقه ايمانه . قد امتزج الماء والجمر فطينته للجمر ، وماؤه للخمر . يارب رحماك .

اى شيخى وامامى . . إن رسالتى فى الحياة هى السير على نهجك ، ونشر مبادئك وتعاليمك العالية . اما السير على نهجك ، فأوله كما لقنتنى ، العمل بما تعلمته ، ولكنى لم ابلغ هاته الدرجة بعد ، لذا ترانى عن نفسى غير راض .

واما عن نشر مبادئك وتعاليمك ، فأنا ساع فى ذلك جهدى ، وان كنت لم اخط بعد غير أولى الخطوات . وانه لجهد وعناء ، ان يقوم بشر واحد بهذا العبء الروحى كله ، وليس له بين الناس من عضد وسنيد . حسبى الله لا اله إلا هو عليه توكلت واليه انيب . مالى وللناس . اولئك « كالأنعام بل هم أضل » ما أشهدتهم عملى ولا اشركتهم امرى ، وما كنت متخذ المضلين عضدا . لن اجعل نفسى معهم ، ولن اختر من بينهم احدا . سأهتف برسالتى فمن شاء استمع ، ومن شاء انصرف ، حتى يهيء لى الله من أمرى رشدا . سأعتزلهم وما يعبدون . وهنا اذكر تفسيرك يا شيخى لدعاء ابراهيم ربه « رب اجنبنى وبنى أن نعبد الاصنام » . وان المقصود بالاصنام هنا ، المادة

اى الذهب ، والدرهم والدينار . صدقت « إنهن أضللن كثيرا من الناس » ثم قولك ان مقام النبوة فوق هذه الشبهه — عبادة الاصنام — على ما ينصرف اليه المعنى الظاهرى للكلمة ، ولكن المقصود بها ما ذكرته . اعجبنى تفسيرك هذا ، ولا أراه ينطبق الا على زماننا هذا تمام الانطباق . لذلك سأدع الناس يعبدون أربابهم من دون الله ، وان زعموا صلاتهم وصيامهم ونسكهم لله ! وأعبد ربى ، لا أشرك بربى احدا . وان لم يصبح لى بين الناس من مكان! فادع ياشيخى لى الله ، ان يصرف عنى ، ماصرف اليه أكثر قلوب خلقه ، فأصبحت فى غطاء عن ذكر الله . عليها أكنة ، وفى الآذان وقر « وان تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا اذن ابدا » . أعوذ بك ربى من هذا كله ، واجعلنى ممن « استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها » . ولكننى — يا شيخى — ارى نفسى فى الحياة ، بهذه المبادىء التى زرعتها فى

كريشة فى مهب الريح طائرة

لا تستقر على حال من القلق

فانا فى حاجة — كما ترى — الى عونك الدائم بإذن الله ، حتى يلبث عقلى هادئا بما اسمعه منك ، وقلبى مطمئنا بما يأخذه عنك . . رب . . اشدد به ازرى . واشركه فى امرى . كى نسبحك كثيرا . ونذكرك كثيرا . إنك كنت بنا بصيرا .

اى شيخى وامامى . متى أصل للدعوة لله كما تعلمها فى نفسى ، وكما علمتنى وذاك حديثه يطول ، اتصلت حلقاته بينى وبينك منذ امد بعيد . وكان مسرحه حلقات احيائك فهو حديث كما تعلم لا تحيط به العبارات ، هو سر لا يعلمه معنا الا « الذى يعلم السر وأخفى »

فانا فى حاجة اليك من جديد . اذ كان دورك الأول معى هو دور لزارع . نعم لقد غرست فى نفسى بذور تعاليمك ومبادئك ، واليوم قد اتى دورك معى مرة اخرى ، ولكن لتقوم بدور الحاصد هذه المرة . تخبر

الشجر ، وتجنى بيديك من نفسى الثمر . فانا انظر فى نفسى مصداقا لقول المسيح عليه السلام : ماأكثر الشجر وليس كلها بمثمر . وما اكثر الثمر وليس كلها بطيب . وما اكثر العلوم وليس كلها بنافع .

فانت يامن غرست فى نفسى شجرة تعاليمك ، فتعددت فروعها وتشعبت فى نفسى آخذة للهدى سبلا . لأنت ادرى بحقيقة ثمراتها منى ، ايها المثمر وايها الذى بعد لم يثمر ؟ فإن حرت انا ورأيت الثمر كثرة ، نظرت انت « الى ثمره إذا اثمر وينعه » وعلمت ايها الطيب ، وايها كالمعدوم فى وجده . حقا (ما اكثر العلوم وليس كلها بنافع) فاجن لى منه ما ينفع ، وان استشهادك بحديث المصطفى عليه السلام فى آخر درس حضرته لك ببغداد لازال بعد فى أذنى . . اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع .

وختاما . أى شيخى ومولاى . أذكر لك بالفضل أن قد

كانت لقلبى أهـــواء مفرقة .:. فاستجمعت مذ رأتك العين أهوای
وظل يحسدنى من كنت أحسده .:. فصرت مولى الورى مذ صرت مولای
. تركت للناس دنياهم ودينهم .:. شغلا بحبك يادينى ودنياى

أنت يا من تفقهنى فى دينى وتعلمنى كيف أعيش فى دنياى ، لن أطرق فى الحياة غير باب واحد ، لايخيب قاصدوه ، ولايضل سالكوه ، بابه المأمول باب علمتنى كيف أقف عليه نفسى وأقول :

لست بآت باب ملك له بالباب نواب وحجاب
وإنما آتى المليك الذى لا يغلق الدهر له باب

باب السعادة عند من يدرى ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

فياشيخى وإمامى . اختم رسالتى داعيا لك بما أنت له أهل . فإنى لأذكرك دائما كما أمر سبحانه « واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين » وآمل أن ألقاك من جديد — لما بينته لك من سبب — وأنت الآن فى مكة غير بعيد . فاجعل بينى وبينك موعدا لا نخلفه ، أنا ولا أنت

مكانا سوى. أسأل أن «يجمع بيننا وبناشم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم»

. . .   .

أمضى صاحبنا الخطاب ، بعد ما سكب فيه كما رأيت نفسه ، وحدث شيخه بكل مايعنيه . فلم يدع فيه صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، قدر ماوسع الكلام أن يطيق من حمل معنى ، لكنه صرف قلمه عن أشياء لم يحدث بها شيخه ، وهل كان مستطيعا ذلك لو أراد ؟ ثم مالا تحيط به العبارات ! وقد ترك هذا النقص فى كتابه ، ليكمله شيخه بقراءة القلوب . فإن لها حديثا كحديث الألسن تقرأه القلوب كذلك . فإنها لا تنظر الأبصار ولكن تنظر القلوب التى فى الصدور ، فتقرأ ما غاب عن أعين الناس واختفى . وهذا لا يحتاج فى تبيانه إلى كلام . فلتصل نظرات القلوب ما غاب عن نظرات العيون . . ويا طالما قرأ شيخه من قلبه ، شيئا كان يخفيه !

لبث صاحبنا بعد ذلك فى حيرة من أمره . أنّى له أن يوصل إلى الغزالى خطابه ؟ هل من سبيل ؟ لقد ودع الإمام بغداد وشخص إلى مكة . وان له فى مكة غير ما للناس من أرب. ما قصدها لأجل تجارة أو منفعة من منافع الدنيا . ولن يحدث الناس بعلمه فى الله . كما كان يفعل ببغداد . لقد أعلن الغزالى عزمه على أن يقطع كل ما بينه وبين الدنيا من سبب . أيا كان . حتى ولو كان درسا يتخذه زلفى . يتقرب به إلى الله . لقد اعتزم الغزالى العزلة ، فودع الناس ، ودنيا الناس ، ليخلص إلى الله نجيا . لقد اعتزم عن الحياة صوما ، فلن يكلم بشأنها إنسيا . نذر للرحمن صوما . ليفطر على ما أعده الله له ، من زاد الآخرة . فأين يجد صاحبنا مهاجراً خرج فى سبيل الله ؟ أتراه واجدا فيه — وإن لقيه — شيئا ؟ سيلقى الغزالى إن شاء وسعى للقائه ، ولكن جسدا فحسب ، أما روحه فتلك نذرها صاحبا لله . كما نذرها أخ له من قبل ، جعل ما بينه وبين الله عامرا وما بينه وبين العالمين خرابا !

لقد كبّر الغزالى على الناس ، كما فعل الجنيـــد ، إذ رآهم موتى ، أربع

تكبيرات وصاحبنا ، كائنا من كان ، مخلصا لله مابلغت درجاته ! هل خرج عن كونه واحدا ممن كبر عليهم الجنيد والغزالى ؛ أربع تكبيرات ؟
ساءل نفسه ؛ أترى يسمع له الغزالى ؛ إن سافر فلقيه ؛ وأسر إليه فى أذنيه حديثه ؟ أم يعيره أذنا والقلب عنه فى شغل ؟ أذن من قال

لقد أنلتك أذنا غير واعية   ورب منتصت والقلب فى صمم

دعا صاحبنا ربه ؛ أن يصرف اليه فؤاد الغزالى ؛ ويجعله يهوى اليه ؛ مستمعا ـ ياطالما أستمع له ـ مترفقا ـ ياطالما ترفق به ـ آخذا بيده فى طريق، قد زادت عن وروده أشواك !

فهدأ قلبه وخيل اليه أن الجواب يأتيه من السماء ... انى قريب أجيب دعوة الداع . لهم البشرى فبشر عباد !
فسكنت نفسه القلقه وارتاحت ، وأيقن أن سيجعل له الله مع الغزالى شأناً فهو الذى أمده به أمس ، ليزداد ايمانا على ايمانه ، وهو الذى سيؤيده به غداً لثبت قدمه ؛ ويطمئن قلبه ؛ ويقوى على أداء رسالة أصطفاه بها ربه رسالة تتحرك بها كل يو م جوانحه ؛ ولكن فى عجمة بعد ما أفصحت ؛ وفى همهمة بعد لم تبن وفى لحن ان شاء الأداء لم يستقم رسالة جعلها النبى المصطفى أمانة بعده فى أعناق القادرين المهتدين بهدى الذين هدى الله ؛ يتوارثونها جيلا بعد جيل ؛ حتى يصبح الدين يوما كله لله . ولمثل ذلك فليعمل العاملون
شعر صاحبنا اذن بأن الله قد سخر له الغزالى ؛ وأنه جاعله مجيبا له اذ مادعاه ؛ وأظهر له حاجته اليه ولكن ؛ كيف السبيل لإيصال هذا الخطاب الى ضارب فى بيداء مكة ؛ لايعلم له فيها مكان ؟ ترى أين ألقى الامام عصاه فيها ؛ وأين استقر به النوى ؟

أخذت صاحبنا الحيرة والفكر ! فكر فى الرحيل الى مكة ؛ فقعدت به عن السفر أشياء . ففكر أن يبعث بخطابه مع رسول ولكن أين هو ؟ .
لم يكن الرسول كما ظن بعيدا . ستبعث به اليه السماء !

الفصل الثالث

الصديقان

أخذت حسناء الليل تتثاءب إذ كان الغروب . . فتأهبت وأخذت تفك غدائرها رويدا . . وكلـما فكّت غديرة من لحمة شعرها ، انسدلت على وجه الكون ، ونشرت عليه الظلال فلما انتهت من فك غدائرها ، أرخت شعورها وخيم الظلام .. سجى الليل

فغرد بلبل .. وانساب لحن فى ظلام الليل حائر .. وهبت نسمة تصاحب ذلك اللحن وهو طائر فانسكب النغم فى أذن الليل ، فطرب وشدا ، وتحركت فى أرباب القلوب داعيات الغناء فأتلف النغم بالنغم ، وغردت خواطر الشعراء ! ليل ! يبصر فيه المؤمن آيات ربه الكبرى ، ويعرف كنه قسم الخالق به « والليل إذا سجى » (١) فاذا رعدة قد تمشت فى مفاصله ، وإذا سكرة حلوة أحاطت به فأنسته كل شيء ، غير خالق هذا الحسن كله إن ليل الصوفية غير ليل الناس ، فاذا ما خلا الأحبة فيه ببعض ، خلوا هم بحبيب « لا تأخذه سنة ولا نوم » وهو أعز من كل حبيب ! إن صدّ حبيب عن حبيبه يوما فذا حبيب « ما ودع وما قلى » ولئن كان الحبيب يعطى فى الدنيا حبيبه من حسنه الفانى . حتى

لو فكر العاشق فى منتهى   حسن الذى يسبيه لم يسبه

فان حبيب « القوم » ما عنده باق « وللآخرة خير لك من الأولى » وقد يعق الحبيب حبيبه فهو

---

(١) كان صاحبنا يقرأ سورة الضحى ليلته ، ويفسر آياتها من آية الليل !

ذو فنون يريك فى كل يوم
خلقاً من جفائه مستجداً
يتأبّى منعاً ، وينعم إسعا
فاً ، ويدنو وصلا ، ويبعد صداً

فيحتمل الولهان على كره . يغتدى راضيا ، وقد بات غضبان ، ويمسى مولى ، ويصبح عبداً . ذاك حبّ البشر ، وتلك أمانيه ، وتحقيقها ما قاله شاعره.. تعذيب ! ذاك ليل من أحب إنساناً ، ليل حائر قلق يقول صاحبه

نهارى نهار الناس حتى إذا بدا
لى الليل هزتنى إليك المضاجع
أقضّى نهارى بالحديث وبالمنى
ويجمعنى والهم بالليل جامع

عطاء ومنع وحرمان ، وقد يكون فيه رضا ، ولكن لا يستقر على حال فقد تكون

ليلى العشيّة غضبى ويصبح الصبح ترضى
وهكذا دواليك .. ما بقى الغدر فى شيمة إنسان
فلا تحسبنّ هندا لها الغدر وحدها
سجية نفس كل غانية هند

أين هذا من الحبيب الذى يهتف - إذا ما كان الليل - بصدق ما قال أحباؤه . . .

« ولسوف يعطيك ربك فترضى » ألا يحق لحبيب ذاك شأنه ، وهذى صفاته ، أن ترى أحبّاءه وقد

أسهروا الأعين العليلة حباً
فانقضى ليلهم وهم ساهرونا
شغلتهم عبادة الرحمن حتى
حسب الناس أن فيهم جنوناً

وما بهم من جنة ، ولكنهم غير ما يبصر الناس يبصرون ، وسوى ما قد أحبوا يحبون . أولئك ... يحبهم الله ويحبونه .

... ...

ويرسل الصوفى فى دجى الليل عينه ، فيرى ظلمات بعضها فوق بعض . يا أيها الليل ما أرهبك ! ثم يرجع البصر إلى نفسه ، فاذا هو ضعيف على على وجه الأرض ؛ لاحول له ولا قوة .. إذن لولا فضل الله عليه ورحمته ، وأن ذلك الفضل من الله ؛ لما أصبح شيئاً مذكوراً ؛ فيأتيه الجواب مع الليل . صدقت .. « ألم يجدك يتيما فآوى »

ثم يذكر نعمة الله ، وكيف يمن الله عليه أن هداه للإيمان . لأنه صادق فيشكر لله فضلا عليه مانساه . فاذا به يرى الأنجم فى السماء تجمعت لتصير حروفا يقرؤها فى أية الليل ... « ووجدك ضالا فهدى » .

ويحيط الليل بالصوفى . فيشعره ضعفه ، فيروح يتلمس من رب الليل والنهار ، قوة تعينه .. إن الناس فقراء والله هو الغنى ـ سبحانه ـ وهو الذى يعطى ويمنع . وهو الذى يعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، فلولا شكر الله أن لم يقدر عليه رزقه ، وهنا يأتيه مع الليل الجواب ... « ووجدك عائلا فأغنى » .

ويضرب الليل سرداقه حول الصوفى ، ويحكم حلقاته ، حتى تضيق نفسه ويظن أنه قد أشفى على الهلاك ، فيرى نفسه بائساً مع من فى الليل من بؤساء

كم تذرف عين فى دجى الليل دمعاً ، وكم من يتيم هام على وجهه فيه ، لبس الليل ماله غيره رداء ، وطوى نفسه ـ على جرحه ـ يغالب آلام الجوع والحرمان ، وارتكن على جدار لايقيه ـ هيهات ـ فى الشتاء برداً ، ولا فى الصيف حراً ... يمر هذا كله بمخيلة صاحبنا فيتسائل نفسه : ألم يكن ربه قادراً على أن يجعله واحدا فى هؤلاء . وهنا تضيق نفسه ويأخذ الليل بخناقه ولكن ما يلبث الله أن يسرى عنه ، فتنفتح نفسه لتقبل المرعظة ويستجيب قلبه لما يحمله اليه من نداء ... « فأمّا اليتيم فلا تقهر » . فيود لو اتخذ سبيله فى الليل سرباً ، ليمسح الدمع عن عيون اليتامى ، ويبعث السلوى فى قلوب الأشقياء !

ويضرب به فى الليل على غير هدى خياله ، فيرى معوزا لايرد البرد بغطاء ، ويبصر مكدودا ارتكن على جدار ، وتلمّس من ليله غفلة ، تعينه على حر وعناء .

فتدمع عينه . لقد أبكاه الليل بما حوى . وإذاك يذكر فضل الزكاة . إنها الدواء لمقرور ، والعلاج لمن رقد الليل على الطوى . إنها نصفة الفقراء من الأغنياء . وإذّاك يطأطىء رأسه ويذكر عدل السماء !...

أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى
فالكل فى حق الحياة سواء
فلو أن إنسانا تخير ملة
ما اختار الا دينك الفقراء

ثم يثور قلبه ثورة بين جنبيه قوية . . أمسلم ذاك الذى لايدفع الزكاة . فيجيبه الليل . . ما أكثر ما فى الإسلام من أدعياء ! وهنا يسمعه الليل أنّة معوز ، ويريه دمعة شاكى ، ثم يحمل له على جناحيه « آية » العلاج والرحمة « وأما السائل فلا تنهر » .

وحينئذ يفيق الصوفى من درس الليل الأخاذ ـ ما أقساه من درس ـ ويسرح طرفه فى روعته وجماله ، فيشكر الله على نعمته وآلائه ، ويرى فضل الله عليه عظيما . ألم يغنه عن الناس ، وكان قادراً أن يجعله شقياً . أجل ـ يجيبه الليل ـ . . . (وأما بنعمة ربك فحدث) .

كان صاحبنا مستغرقا فى تأملاته تلك ، حين سمع الباب يقرع بشدة فقام اليه يفتحه . . . ثم يتعانق الصديقان !

. . .   .

يرجع عهد معرفة صاحبنا بصديقه القاضى أبو بكر بن العربى ، الى ذلك اليوم الذى تقابلا فيه ، فى درس من دروس شيخهما الغزالى . كان ذلك ببغداد وصاحبنا حديث عهد بها ، ومثله الآخر حيث ارتحل من الأندلس(١) قاصداً بغداد ليتلق العلم عن الغزالى ، ويأخذ العهد عليه ، كما أخذه من قبل صاحبنا

كانا غريبين ـ كما ترى ـ فصاحبنا من مصر ، وزميله ابن العربى من الأندلس فجمعتهما الغربة ، وآخت بينهما الوحدة ، وكل غريب للغريب نسيب .

وكانا يسعيان لغرض واحد ، تلقى العلم عن الغزالى ، فألف بين عقليهما الغرض الواحد ، كما ألفت الغربة بين قلبيهما ، فأصبحا فى الله عقلا واحدا وقلبا واحدا ، يستهدى هذا العقل بنور فكر الغزالى ، ويمتلىء ذاك القلب بحبه واجلاله . فانعقدت أخوتهما فى الله ، وما كمثل الصداقة اذا هى فى الله انعقدت . وقد زاد الغزالى من لحمة هذه الرابطة بينهما ، بعد أن عرفهما كيف تكون الأخوة فى الله ، شرائطا وحقوقا ، وما فى مثل هذا التآخى من خير وبركة . كان الإمام ـ كعادته ـ بليغا فى درسه ذاك ، فتركت دروسه التى كان يلقيها فى معنى الأخوة فى الله ، أكبر الأثر فى نفسى صاحبينا ، حتى

(١) موطن القاضى أبى بكر العربى

لو لم يكونا فى الله أخوين ، لودا أن يصبحا فى الله كذلك ، ولكن ألف بينهما العزيز الرحيم ، وجعل الغزالى فى ذلك سببا .

ثم ما لبثت الأيام أن زادت من حب كل منهما للآخر ، حين أخذت تتكشف فى كل يوم جديد ، عن خلة فى نفس الواحد منهما ، تشابه ما فى نفس الآخر ، فهى الأرواح ، الجند المجندة ، تعارفت فأتلفت . وقد شاء الله أن يجعل هذا التعارف على يد الغزالى

سكن الصديقان فى بيت واحد، واختارا منزلها بجوار بيت الغزالى حتى يكونا على قرب منه دائما ، بالروح والجسد . فكان اختلافهما الى حلقاته معا وكان انصرافهما كذلك .

ولما كان صاحبنا قد سبق صديقه ابن العربى إلى بغداد ، فسمع للغزالى قبل أن يسمع له هذا الذى فاته الكثير من حلقات الغزالى فى إحيائه ، فقد تولى صاحبنا لصديقه ، تدريس مافاته من دروس الأحياء الخالدة ، وحلقاته المباركات . فكانا إذا ما انتهيا من الحلقة الغزالية يومهما ، وانصرفا عائدين إلى منزلهما ، أخذ صاحبنا لنفسه دور الغزالى ، و جعل لصديقه ابن العربى دوره هو مع شيخه . فعقدا فى بيتهما الحلقات الاحيائية من جديد ! وبذا عوض صاحبنا لصديقه ما فاته من دروس الأحياء ، فاستطاع أن يتمشى مع الغزالى فى بقية حلقاته منه . وقد حفظ ابن العربى لصديقه هذا الفضل ولبث يعده شيخه الثانى له بعد إمامه الأول . ولما كان صاحبنا قد أصبح قطعة من الغزالى ، فقد أراد لصديقه بالمثل هذا المقام ! فجعل رسالته معه أن يشرح له ما استغلق عليه من تعاليم الغزالى ، ويفيض عليه بشرح دروسه ، ويعده إعداداً خاصا لتقبل رسالته الروحية ، ويمهد له ويهيئه لتفهم عظات الشيخ ، قبل الذهاب إلى حلقات إحيائه. لقد علمه كيف يستمع للغزالى ، كما علم من قبل نفسه ، وكان الغزالى يبتهج حين يرى ذلك الاستعداد

الفطرى فى صاحبنا لتلقى تعاليمه ، وتفهم أحواله ، والغوص وراء معانيه لذا كان عند شيخه — كما عرفت — من المقربين . ثم اختلف الليل والنهار ونقص العمر سنوات ، حتى جاءت تلك الليلة التى اختتم فيها الغزالى دروسه ببغداد ، ثم ارتحل — كما مر بك — قاصدا مكة . فكأن بغداد أقفرت من أهلها برحيل الإمام ، وأذن مؤذن الفراق ، بين إتباع الشيخ ومريديه ، فانصدع شمل ، وتفرق جمع .

كأن لم يك بين الحجون إلى الصفا

أنيس ولم يسمر بمكة سامر

فتفرق شمل الصاحبين فيمن تفرق من شمل ، وتشعب حبل الوداد شعبتين ، شعبة بالأندلس ، حيث قفل ابن العربى عائداً إلى موطنه ، وشعبة بمصر حيث يقيم صاحبنا . ولكن تفرق الجسدان . ولم ينفض عن الله قلبان بقى كل منهما مع الآخر فلئن

تفرق جسمى فى البلاد وجسمه

فلم يتفرق خاطر وضمير

فلبث لقاء الصاحبين بالروح كل يوم ، وكلما جلس إلى كتب الغزالى .

وهنا تدخلت سليمى بين الصديقين ، وأخذت تشغل أحدهما عن الآخر بعض الشيء . فلبث ابن العربى بالأندلس نزولا على إرادة سليمى ، ولبث صاحبنا بمصر نزولا عند رغبتها كذلك ! وبين الحين والآخر تغفو سليمى فتستيقظ ليلى ، فإذا بالبريد قد سعى الى كل من الصاحبين بخطاب من الآخر وما خلا خطاب تبادلاه ، من ذكر للغزالى يعطره . ثم اغفت ليلى وطالت غفوتها ، فاستبدت بالأمر سليمى — انما العاجز من لا يستبد .. فإذا بالبريد لا يعرف طريقه من الأندلس الى مصر . وأشاحت مصر بوجهها عن الأندلس كذلك ، فأخذت سليمى تقطع الطريق بين البلدين رائحة غادية

ورضت ليلى أن تقبع ساكنة بالأندلس ، ربما مع الغزالى ، وربما مع غيره واستقرت كذلك بمصر فى حجرة يغلقها صاحبها على نفسه واياها، والغزالى والله ثالثهما ! أذن فمنذ ليلة الوداع ببغداد ، لم يلتق الصديقان ، سوى ما تبادلاه من رسائل بين آن وآن . الى أن كانت هاته الليلة ، وقد أخذ الباب يقرع بشدة ، فقام صاحبنا ليفتحه .. ثم ... يتعانق الصديقان !

قال لصاحبه وقد استتب بهما المجلس وجلس أحدهما الى الآخر .

— أتذكر يا ابن العربى أيام آلنا ببغداد تقضت . وهل لبغداد فى فؤادك اليوم منازل ؟

— أجل . لا زالت بالبال ذكراها . ولبغداد شغف فى الفؤاد مقيم !
وما حب الديار شغفن قلبى .·. ولكن حب من سكن الديارا .

— تعنى الغزالى ؟

— وهل لنا غيره من نعنى !

— صدقت ، ما نملك الا وفاءنا له . عسى الوفاء لبعض الفضل يجزى .

— ولسوف يعطيه ربك فترضى .

— وماذا عن الأندلس يا ابن العربى . لقد

سكنتم جنة فيحاء ليس بها
عيب سوى أنها فى العالم الفانى

— لقد أنسانى حنينى لشيخى ، طيب مكان وأنس بلادى . ما عاد سحرها يشجينى، ان متعة القلب فى اجتلاء من سكن فؤادى . فلو رأت عينى ما رأت ، أو ذاقت نفسى نعم الدهر قد غدت فى ركابى ، ما كان ذلك حسبى ، ولا قدر نعيم على اسعادى . قد ملك حب الغزالى نفسى ، وسرى

فيها مسرى الشعاع الهادى . فليست تحيا نفسى بغير قربه ، كالدوح يخلو بغير الصائح الشادى ! أو كاللحن يغدو مضيّعاً ، ان لم يجد الوتر الحاكى . أو كالزهر يقفر فى الرياض ، ان جفاه طله الساقى ! فمذ غاب الشيخ عنى ، أقفر فؤادى بعده والبلاد خلاء . يا موقظى من غفلتى ، ومنبهى قبل حلول البلاء . يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً ، اذا كل أتى الرحمن فرداً وجاء . يا ساكن القلب تحركه فى الله ، منك علمت كيف يكون فى الله الرجاء . قد عشت اذ بعدت عنك مغتربا فى وطنى ، غريباً بين أهلى وقومى ، فمن يبلغ الشيخ عنى :

بدوت وأهلى حاضرون لأننى

أرى أن داراً لست من أهلهاقفر

ــ ان ما بك بى ، ما أخطأ الغزالى فيك رأيه .

ــ نحن يا أخى فى هواه سواء . وكيف لا نحب من فتح لنا مجالى السماء ! امام كريم ، بأفعال الرسول يهتدى . وشيخ بالمريد رحيم ، أكرم بالأسوة والمقتدى .

ــ والآن ، لقد مضت علينا يا ابن العربى مدة ، منذ كان الفراق ، غاب كلانا فيها عن أخيه ، فتعال بنا ، أكشف لك نفسى ، وتكشف لى نفسك فالمؤمن مرآة المؤمن (١) . فدعنى أبصر بك فى نفسى ما غاب عن عينى ، وسأكون لك بالمثل أنا ، ولنكن ممن « لا يكتمون الله حديثاً » . فهيا أدر كأس الحديث « كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم » ، حدثنى مابك ودعنى أبثك ما بى .

ـ ذاك ما أردته . فهل لك أن تقص على ما فعلته منذ أن كان الفراق

---

(١) حديث شريف

كيف تقضى بمصر أيامك . لكن دعنى أصارحك أولا بشىء . فقد سمعت عنك ممن يعرفونك حديثاً

ـ ما هو ؟

ـ يقولون تصوف الفتى ، وبأهلك خشية من ذاك التصوف، ويقولون عنك اعتزلت ، والعزلة على أمثالك ضرر . لقد نزلت الحياة حديثاً ، فأنت صغير السن بعد لم تزل . وربما تشوّش فى مجاهيل التصوف عقلك، فتسعى اليك الوسوسة ، وان كنت منها على حذر . وذاك أمر يقولون عنه جليل، وتلك بلوى زعموها شديدة الخطر .لقد أرادوا لك شيئاً ، وأردت لنفسك آخر ، فسرت برأيك كالسيف ما عاقه بتر . بريد لك أهلك أن ترى الدنيا وتخبر الحياة ، وتلمس بيديك حقيقة البشر . وقد زعموك فى عزلتك أن ستبقى جاهلا بها ، لا تدرى ما الحياة ولا الناس ولا ما أكنّ الخلق من شرّ . تبقى فى صومعتك كالملاك ، تصخب الدنيا من حولك ، وقلبك عنها فى غفلة ما شعر . تقوم الدنيا بأناس وتقعدبآخرين ، وأنت ساه ماهمك شىء ، ولا هو منك على البال خطر . خلق لا ينفع اليوم أربابه ، فى زمان فيه اللئيم على الكريم انتصر . فإن أحوجتك دنيا الناس للناس ، خطوت بقدم لا يؤمن عليها الغرر . والناس ذئاب لا تبقى على كريم ولا تذر . وإنما يسلك فى الحياة من يدرأ الشر بالشر ! والخيّرون ركبهم على هامش الحياة انتظر ... رأو هذا كلّه فيك ، الدنيا تسير وأنت بعد لم تسر. فقالوا لولا بعد عن الغزالى ، وأفاق للحياة وأخذ بحظه منها فالشباب على سفر .

سمعتهم يهمسون بهذا من حولك . فكنت الأمين فى نقلى ، وناقل الكفر ما كفر !

ـ أعرف هذا ، وهل أصاب الناس فيما حكموا ؟ يا قلّ ما عدل فى حكمهم هو البشر ! عرفت يا أخى الناس بشأنى فريقين . فمن قائل أصاب ، والخير

ومن حامل على الشيخ ، جهلا بقدر من يرمى ، وربما حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ! وأنا ماض فى طريقى لا ألتفت الى أحد . سيان عندى من ذم ومن مدح : توكلت على الله فهو حسبى . ونفضت يدى من تراب البشر ، وعملت لوجه واحد ، عسى الله يكفينى كل وجه عداه ، ومن استمسك بحبل الله انتصر . ان وليّ الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ومن يهده الله فهو المهتدى ، ومن يضلل .. افترى الناس على هدايته بقادرين؟ ان الهدى فضل الله يؤتيه من يشاء فإن أنعم به المولى على مخلوق لم يسلبه هداه أحد . وان لم يشأه له الله فلن يهدى الناس بعلمهم أو حبهم أحدا ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . هب أن قدر الهدى قدر الذبابة ! وان لم يستويا مثلا ، فالناس على خلق مثل ذبابة من هدى فى نفس لا يقدرون وأن سلبت ذبابة هذا القدر الضئيل لا يرجعون « ان يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب » ذلك ـ يا أخى ـ قدر الناس عندى فذرهم وما يفترون « ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » .

تقول بأهلى خشية من تصوفى ، وهل فى التصوف مايخشى ؟ سلهم وسل الناس . ماذا هم عن التصوف يعرفون ؟ فإن لم يرجعوا اليك قولا . فقل لهم ان لى فى التصوف شيخا . جعلته إمامى ، دونهم الغزالى فليسألوه ! ماجعلت تصوفى عمامة ومسبحة ، ولحية أرسلها كثة . أخفى تحتها ما الله مبديه ولا درت كما يدور النحل . اذا الذكر طاف برؤوس الأدعياء ! ولا أخذت شفتاى تتمتمان . فتضحك على شياطين وتسخر منى جان .

وكم متعوذ بالله منا تعوذ الأرض منه والسماء

اذا مشى غض البصر . وفى القلب شهوة لا تنقص ولا تزيد بالنظر . إن تكن النظرة شرارا ، فحرّمها الله ، فقد اشتعلت الشهوة نارا ، فماذا يجدى اطراق وماذا خوف الشرر ! رياء . إن خفى على الناس ، فلن يخفى على الذى لا تخفى عليه خافية فى الارض ولا فى السماء !

فليسألوا الغزالى عن تصوفى — كما علمنى — ماهو؟ وليسكتوا إن كانوا لايدرون الخبر . . إن تصوفى فى الله هوى ، فوق مايظن البشر . قد جعلت قلبى مع الله ، وذاك معنى لاأرى وصفا على إبانته اقتدر . قلب سليم . ونية خير يعلمها الذى فطر . وأمان لدين لايقبل الله غيره ممّن عبر (١) ورغبة إصلاح ورجاء فى الغد المنتظر . والحكم بما أنزله الله ، لخير البشر !

ذاك تصوفى إن دل قليل الكلام على كثيره ، فاكتفى ذواللب بالاشارة واعتبر . فقل - ياأخى - لمن يخشى علىّ فى التصوف الضلال « ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون » . وإن كنت لم أصبح بعد لله وليا - أين أنا من مرتبة الأولياء - لكن ذلك ظنى فى الله الذى ، يكرم العبد إن خلصت اليه نواياه . وصدق فى توجهه اليه ، بغير كذب أو رياء . هنا يخلع الله من صفاته عليه ، ويجزيه « ماشاء ربك عطاء غير مجذوذ » . فلى أمل فى إلله على قدره ، وإن كنت خاطئا تعاظمتنى ذنوبى . اختلط الرجاء فيه بدمى

إن جلّ ذنبى عن الغفران لى أمل
فى الله يجعلنى فى خـــير معتصم .

فذرهم فى خوضهم يلعبون . وقل سلام فسوف يعلمون

— وماذا عن عزلتك يابن العربى ، وهل أصبحت كما يقولون

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى
وصوّت إنســـان فكدت أطير ؟

— إن عزلتى - كعزلتك - فى غير ما وحشة ولا استيحاش ! عزلة أخذنا درسها عن الغزالى ، فأنا على خطة ارتضاها أسير . . .

---

(١) أى عبر الدنيا الى الآخرة .

يا خاطب الدنيا الى نفسها تنح عن خطبتها تسلم .
ان التى تخطب غدّارة قريبة العرس من المأتم .

وليست عزلتى الآن إلا عملا بقوله تعالى « فاعتزلهم وما يعبدون من دون الله » وهم يعبدون المادة اليوم من دون الله . فهل ألام ان قلت لهم « لكم دينكم ولى دين » ؟ ثم توليت عنهم وما أنا بملوم . ولكن توليت لا عجزا وفرارا ، ولكن أنتظر « حتى يحكم الله بأمره وهو خير الحاكمين » .

ـ صدقت ، والصواب فعلت ، وبذاك الغزالى قد أمر .
ـ . . أما عن الناس فإن

الناس شتى إذا ما أنت ذقتهمو
لا يستوون كما لا يستوى الشجر .
هذا له ثمر حلو مذاقته
وذاك ليس له طعم ولا ثمر .

فإذا كنت قد زهدت فيمن لا طعم له ولا ثمر ، فهل تسمى هذه وحشة ، أم عقلا وكياسة ؟ ! أترانى أرضى بصحبة من لا خير فيه لدينى أو دنياى . ومن لا يرى وجه صداقتى الا على أنها وجها من وجوه المنفعة ؟ فهو أخى مادامت له حاجة الىّ ، فإن عرضت ، أيقنت أن لا أخا ليا ، ألا

أن أخاك الحق من مكان معك
ومن يضر نفسه لينفعك
ومن اذا ريب زمان صدّعك
شتت فيه شمله ليجمعك

لقد زدت يا أخى كما ترى عن الناس ، وقنعت بمثلك لى فى الله أخا

سيكفى الكريم اخاء الكريم ويقنع بالود منه نوالا .

ـ صدقت

قضى وطر الصبا وأفاد علما

فغايته التفرد والسكوت .

ولا أراك فى هذا الا عاملا بتعاليم الغزالى . تعلمت ماينفع ثم حاولت العمل بما علمت وسكت كما قال « فإن كنت لاتقدر أن تكون ممن تكلم فغنم . فكن ممن صمت فسلم ! فالسلامة احدى الغنيمتين (١) » .

ـ أشكر الله ياابن العربى أن أكرمنى بك ، اذ وجدت فيك ماقاله المصطفى عليه السلام : من أراد الله به خيرا ، يرزقه خليلا صالحا ، ان نسى ذكره ، وان ذكر اعانه » . فلى شيخ فى الله ، ولى بالمثل فيه خليل . فماذا أطلب من صداقة الناس بعد ذلك ؟ ألا يحق لى أن أقول لهم

لاتظنوا لى اليكم حاجة .·. كشف التجريب فى عينى عماها .

ـ أصبت ياأخى . لقد سمعت شيخنا يقول عن الناس أنهم

أبطنوا البغض فى قديم وأمسى ثابتا فى قلوبهم مطويا

ـ ان شيخنا بالناس أدرى ، وانى ليطربنى من قال

لا أبالى أذى العدو لحظى

أنت يارب من ولاء الصديق

يظهرون مودة ويخفون بغضا . « ويقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون » .

---

(١) احياء علوم الدين

- حقا ان مخالطة الناس شر فى هذه الأيام . لقد سمعت شيخنا الغزالى يروى لنا فى مضار المخالطة ماأخذه عن شيخه أبى طالب المكى . « (١) فى مخالطة الناس وهن العزم وشتات الهم وضعف النية . والخلوة تقل الأفكار فى عاجل حظوظ النفس ، لفقد مشاهدتها بالأبصار ، لأن العين باب القلب ومنها تدخل آفاته ، وعندها توجد شهواته ولذاته » .

- وانى لأذكر أيضا ماسمعته عن شيخنا يرويه عن شيخه المكى كذلك منددا بالمخالطة . . « (٢) مخالطة الناس تضعف العزم الذى كان قويا فى أعمال البر وتحل العقد المبرم الذى استوطنه العبد فى الخلوة ، لقلة المتعاونين على البر والتقوى ، وكثرة المتعاونين على الاثم والعدوان ، وفى مخالطة الناس قوة الطلب والحرص على عاجل الدنيا لما يعاين من اقبال أهلها عليه . وفيه الفتور عن الخدمة بالنظر الى أهل الغفله ، والملل للطاعة بمجالسة أهل البطالة ، ونقصان حلاوة المعاملة ، وذهاب نور العلم وسرعة خروج الوجد بالفهم لاستماع كلام أهل الجهالة والنظر الى الموتى من أبناء الدنيا . كما روى عن عيسى عليه السلام : لاتجالسوا الموتى فتموت قلوبكم . قيل ومن الموتى قال المحبون للدنيا الراغبون فيها » .

- انى لأذكر تماما ماسردته على ! لقد ألقاه علينا الغزالى ، مساء ليلة ، فى حلقة من حلقاته المباركات ، حين سعى اليه واحد منا ، وقد حضر درسه متأخرا ، وذهب يشكو الى شيخنا ، من أنه يعقد النية فى بيته قبل أن يخرج منه على الخير ، وعدم انصراف خاطره الى شر ، ثم يخرج ويقابل هذا وذاك ويستمع لهذا وذاك ، فيعود وقد وجد فى نفسه تغيرا وضيقا . توسوس له

قوت القلوب لأبى طالب المكى .

» » » » »

نفسه ، وتحدثه بشهوات الدنيا ، فإذا استنجد بقلبه وعزمه ، خذله قلبه أحيانا وناصره أحيانا أخرى ، فيبقى بين اثنتين كلتاهما النار . فلا هو عصى ربّه فأصبح فى العاصين . ولا هو انصرف عن التفكر فى الشر ، فتكون له درجة الموقنين . فيبقى حائرا ، غير دارى أرضى ربه أم عصاه . . لقد استمع له شيخنا وابتسم حين فرغ مريده من شكواه . والتفت الينا وقال : هاقد جاءكم رسول من أنفسكم ، مصدقا لما كنت أتلوه عليكم ، وأبينه لكم . تلك مضار المخالطة . ثم استشهد بقول أبى طالب المكى ، فى وصف حالة الشاكى بأن « العبد (١) ليقعد فى الخلوة على خصال من الخير فيخرج الى الناس ، فيحلون ما عقده ، عقدة عقدة ، حتى يرجع وقد انحلت العقد كلها » . ثم أخذ يصف علاج هذه الحالة بما ذكرناه . أتذكر ذلك يا أخى ؟

ـ أذكره تماما ، كأنه ما كان الا أمس ؟

ـ فقل اذن لمن لامنى فى البعد عن الناس ، لهذا اعتزل ، ولذلك لم يرد بالناس اختلاطا . فليس الأمر يا ابن العربى ما سمعته ، يروونه لك عنى . ما زدت عن الناس واحتجبت فى صومعتى جاهلا بهم ، بل حين عرفتهم زدت

فأصبحت محسودا لفضلى وحده
على بعد أنصارى وقلة مالى .

ـــ فما قولك فى أن ركب الصوفية على هامش الحياة أنتظر .

ـــ سل الغزالى ، فعنده الخبر اليقين ، واذكر قوله تعالى « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من

---

(١) قوت القلوب لأبى الطالب المكى .

قبلهم . وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم . وليبدلنهم من بعدخوفهم أمنا فليزعموا ما شاءت لهم ، أهواءهم بغير علم ، أن ركب الصوفية على هامش الحياة ينتظر ، فإذا جاء أمر الله ، سلموا بما كانوا ينكرون . وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون ، وعرفوا « أن وعد الله حق . . . ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » فاصبر إن العاقبة للمتقين ، وقل للمنكرين يا أخى ، ليس ركب الصوفية المنتظر ، ركب ذوى العمائم واللحى ، والمسابح تبلغ الأرض طولا ، بل ركب ذوى القلوب أرباب البصائر « أولئك الذين هدى الله » فاعرض عنهم وانتظر ، إنا منتظرون « ولئن اتبعت أهواءهم من بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير » ولا يستخفنك الذين لا يوقنون .

— لكأنى بشيخى هو الذى يتحدث الآن ما غاب عن خياله إذ تتكلم . لقد بدت لى فى مرآتك صورة الإمام ، فاحتجبت ملامحك وراءها ، واختفى شخصك فى ثنايا الكلام !

— إن المريد صورة من شيخه ، ما حدثتك إلا بما علمنا الغزالى فهو روح حديثى وإن تكن الألفاظ أقوالى . فلولاه ما نطق لسانى ، ولولا معناه لغابت عنى المعانى . ذاك الذى سبح بروحى فى مجالى السماء . فاليوم أنظر بعينه ما أرى ، واستوحى من نفسه ما فيه لنفسى شفاء . وتأخذ روحى من روحه ، كما يمتزج الخمر بالماء ، فتطفو على . . صبابة كأس لا يطيقها غير الأقوياء ! فحسبى قطرة منها ، لى بها عن العالمين غناء .

— يا أخى كلنا فى هوى الغزالى سواء . شيخنا وإمامنا جزاه الله عنا خير الجزاء .

ـ وأنت يا أخى ما حدثتنى عن نفسك بعد . ماذا كان من أمرك بعد

الانتهاء من دروس الغزالى ببغداد ، وشخوصك إلى الأندلس ؟

ـ كان أمرى بها ما عرفته ، فيما كنت أبعث لك به من خطابات بين الفينةوالفينة . وإن كنت كتمت عنك إذ نتراسل أشياء . لم أردمصارحتك بها حذر أن أتعبك معى ، وربما لو كنت أعلم إن إشراكك فيها معى ينفعنى لأشركتك . ولكنى سأصارحك الآن ، بعد ما أنجلت غمراتها . . لقد انتابنى إذ رجعت إلى الأندلس ، ضيق شديد ، ما دريت سببه . كنت بائسا ولا أدرى لبؤسى من سبب ، والناس لا يدرون .

فرب كئيب ليس تندى جفونه
ورب كثير الدمع غير كئيب

كنت أقول لنفسى

جنت على الليالى غير ظالمة
إنى لأهل لما ألقاه من زمنى

ثم أعود فأسائل نفسى : ولم ؟ إن زمنى يظلمنى ، وهل فى ذلك من عجب ؟

لا غرو إن فاق الدنىء أخا العلا
فى ذا الزمان وهل لذلك جاحد
فالدهر كالميزان يرفع كل ما
هو ناقص ويحط ما هو زائد

وألم يقل المولى سبحانه « انما نملى لهم ليزدادوا اثما » ؟

فإذا بنفسى قد هدأت . واذا بهاتف من وجدانى يصيح بها

يانفسى صبراً لعل الخير عقباك
خانتك بعد طوال الأمن دنياك !

حسبك ياقلب . لا تحمل على عدوانا بغير حق

فإن تكن القلوب كمثل قلبى
فلا كانت اذن تلك القلوب !

يا أخى قد اشتعل قلبى فى الله هوى وغراما ، وأصبحت فى الله آمالى أكثر من أن يطيقها احتمالى ، فبت

أرى نفسى تتوق الى أمور
يقصر دون مبلغهن مالى
فنفسى لا تطاوعنى ببخل
ومالى لا يبلّغنى فعالى

صبرا يا ابن العربى صبرا ، وارض بما أجراه عليك القدر . اذا قضى الله من لدنه أمراً ، فليس من حيلة وليس من مفر . ومن صبر على حكم الله أرضى المولى وانتصر « ولسوف يعطيك ربك فترضى » والبث على خلال فيك عرفتها ، ودم على كريم صفاتك ، والبث من عرفناه الذى

له نار تشب على يفاع
اذا النيران ألبست القناعا
ولم يك أكثر الفتيان مالا
ولكن كان أرحبهم ذراعا

ان عذوبة نفسك أحسن ما فيك . عفا الله عن

فتى كان عذب الروح لا عن غضاضة
ولكن كبرا أن يقال به كبر

فحسبك العلم والخلق ، فذانك شهادتان من ربك ، لمن يحب ويصطفى .

والآن ، دعني أسائلك يا ابن العربى ، فقد تشعب الحديث بناحتى أنسانى أمراً ذا بال عندى . إلى أين يا أخى . أمصر قصدت ، أم أنت بها من العابرين فحسب ؟ أين ستلقى عصاك ؟

— بمكة يستقر بها النوى

— مكة ! أمكة قصدت ؟

— وماذا فى ذلك ؟ ما وجه العجب. أيستغرب على مسلم ان قصد أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ؟

— لم يكن استغرابى لما ظننت .إلهى ! قد بعثت إلىّ بك يا ابن العربى السماء . كانت لى بمكة حاجة ، وكنت لا أجد رسولى إليها ، فإذا به بين يدى جاء . حقا

إذا أذن الله فى حاجة

أتاك النجاح بها يركض

— وماذا وراء هذا كله ؟ بين لى يا أخى السبب ؟ماذالك فى مكة من أرب؟

— كنت قد كتبت لشيخنا رسالة ، أسأله فيها أشياء . ولبثت حائرا أتفكر كيف أوصلها اليه . فإذا بالسماء أرسلتك لتكون البريد

ماذلك على الله بعزيز ، فهو الفعال لما يريد .عرف صدق رغبتك فبعث اليك برسول من نفسك ، عزيز عليه ما أردت ، حريص عليك بك رءوف رحيم . إنى أنا أخوك ، فيما شئت فمرنى . هات رسائتك سأبلّغها من أردت

— ولكن أتدرى يا ابن العربى ، أين يقيم الإمام بمكة ؟ لقد خرج ابتغاء العزلة كما تعلم .

— لئن جهلت له بمكة مكانا « يجمع بيننا ربنا » .

— صدقت والله بالغ أمره ، ماكان لى أن أحمل لذلك هما .ولكن خبرنى

يا أخى . إن لرسالتى جوابا ، سيبعث به الى الغزالى . فهل ستكون البريد مرة أو مرتين . أم لك فى السير اذ تعود ، غير مصر طريقا؟

ـــ بل من" الله عليك مرة أخرى . فقد اعتزمت بعد الفراغ من فريضة الحج أن أرحل الى الاسكندرية ، لأحضر ( ) دروس الطرطوشى ذلك العالم الفذ الكبير . وسأجعل مصر فى العودة طريق ، فأنا مستطيع أن أعود اليك بالجواب إن شاء الله .

ـــ أشكر الله أن شرح لى صدرى ويسر لى بك أمرى ، وشدد بك يا ابن العربى أزرى . دونك فخذ هذا الخطاب ، واوصله الى ذلك الذى

اذا قال لم يترك مجالا لقائل
بملتقطات لاترى بينها فصلا

كفى وشفى النفوس ولم يدع
لذى إربة فى القول جدا ولا هزلا

وقل له يا

بصيراً بأعقاب الأمور كأنما
تخاطبه من كل أمر عواقبه

مريدك وفتاك يحييك ، ويبعث اليك برسالة ، يرتقب عنها الجواب ، فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا » .

فلما كان الصباح ، رحل الصديق برسالة صديقه ، وبقى صاحبنا ينتظر .

---

(١) خط سير القاضى ابن العربى هكذا ـ كما وضحناه ـ وحضوره الاسكندريه للاستماع للطرطوشى ، ورد فى طبقات المالكية لابن فرحون . فرواية سيره ذات أصل تاريخى ، وستكون مقابلته للامام الغزالى فى مكة ذات أصل تاريخى أيضا كما سترى فى موضعه من الكتاب . المؤلف .

الفصل الرابع

فى البرية . .

كبر الحجاج لله وأطمأن بعرفة الموقف . وتجردت القلوب عن دنياها نخلعت ثوب هواها ، وانطلقت صوب السماء .. تنساب خفافا ... تدعو وتلبي . لبيك اللهم لبيك .. .. فاهتزت أرجاء مكة من قدسية الدعاء ، وزلزلت الأرض تحت أقدام المحرمين . وكأن السماء تأثرت بالموقف فأخذت تبكى .. .. فلم ينتبه لبكائها أحد ، ولا شعر بالبلل المحرمون . وهل يشعر بشيء من أمور الدنيا أو يبالى عواقبها ، من كان شعوره مع فاطر السموات والأرض ؟ لقد كانت القلوب غارقة فى بحار من دمعها ، فلم تشعر ببللها الأجساد ، كانت القلوب تبكى ؛ فيستجيب الدمع للدمع ، وتختلط دموع التائبين ، بدمع النادمين ، بدمع المستغفرين الله ! أخذ هذا الدمع يختلط ببعضه كله ؛ فتجعل وحدته ألفة بين قلوب حجاج بيت الله . فإذا بالقلوب قلب يخفق ... بلبيك اللهم لبيك . وإذا أجساد المؤمنين البنيان المرصوص . أخذت القلوب تذكر ذنوبها فتبكى ؛ حتى لتكاد تفنى فى ذوب من دموع وحسرات ... ثم تأتى رحمة الله فتذكرهم بأن ... رحمة الله قريب من المحسنين .. وأن هاهنا يغفر الذنب ، ويتقبل الله من التائبين . فإذا بالأبصار قد إرتفعت لتلوذ بالعرش ، فى صورة الكعبة « بيت الله العتيق » فترفع الأيدى ؛ ويسبح عرفات ؛ وتنظر القلوب نحو السماء ، وتتجه إلى الكعبة أبصار المحرمين .... فإن رب هذا البيت يغفر الذنوب جميعاً .

رنت الأبصار ، واتجهت الأنظار ، خاشعة تملأ محاجرها بنور قد أشرق

فافاض . رويدك أيتها الأبصار اخشعى ، بحلك الدمع من عظة وإعتبار . أفيضى من خشية الله ، أفيضى من خشية الواحد القهار . تلكم الكعبة المكرمة ... بيت الله العتيق .

كانت الطبيعة تبكى وكان البشر يبكون ، فلما تطلعت عيونهم إلى السماء ذكروا قوله تعالى « ففتحنا أبواب السماء » فسروا اليها بأرواحهم . ثم صاح صائح منهم « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم » فانبعثوا يدعون ... ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا . ربنا إنك رؤوف رحيم » ثم دوت الأرجاء بدعائهم إذ يختمون « ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم » . وكان الله أكرم من أن يرد سؤلهم . ، فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى » .

... ثم أخذوا يفيضون من عرفات .. نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا » .

إنتهت مناسك الحج وجاء دور قوله تعالى « فاذكروا الله كذكركم آبائكم » فتعال بنا نبحث عن ابن العربى هناك ... لقد سعى وطاف ولبى . فكانت له دعوة مع الداعين . وكانت له دمعة فى الباكين .. وأخيراً صار له نور يمشى به فى الأرض ! أخذ نوره ينحدر من عرفات ، ثم يقف فيسأل أحد الناس شيئا ، ليمضى فى سبيله بعد ذلك ! تكررت الوقفات ، وفى كل وقفة يكون السؤال نفسه ما تغير ، ويكون الجواب عينه من غير اختلاف . فتعال بنا نقف مع ابن العربى لدى هذا الشيخ ، ونستمع إلى السؤال المكرر والجواب المعاد .

— السلام عليك يا أبى .

— وعليك يا بنى السلام .

— هل رأيت حجة الإسلام .

— تعنى الغزالى ؟

— ما عنيت سواه .

— لم تره عيناى .

ولكن فلنمض مع ابن العربى فى غير يأس ، مكررين عن الغزالى السؤال .. إن ذا اعرابيا تبدو على محياه أنوار الصلاح ؛ فلنسأل شعاعه عسى أن يهدينا إلى شمس الغزالى. حث ابن العربى خطاه حتى صار منه بحذى

— السلام عليك يا عماه .

— وعليك يا بنى السلام .

— أسأل عن الغزالى هل عنه من خبر ؟ يقولون بمكة هو ؛ لكنى لم أره .كل ما عندى من أخباره هوما يقوله القائل .

طلبت يقينا من جهينة عنهمو
ولم تخبرينى يا جهين سوى الظن

فإن تعهدينى لا أزال مسائلا
فإنى لم أعط الصحيح فاستغن

— فهاته وإن كان ظناً . قد أجد فيه يقينا يغنينى عن سؤال .

— يقولون أدى الغزالى فريضة الحج معنا ، ولكنه كان عن الناس بمعزل . فلم يحدث مخلوقا ، ولم يتحدث اليه إنسان .كان يتوارى عن الأعين

حتى ماشعر به منا إلا قليلون ، وحتى أولئك ما كادو يعرفونه .

ـ ولم؟

لقد تغير وأعترى شكله تبديل . إزداد جسمه نحافة ، ووجهه شحوباً ، وغارت عيناه ، فإن نظرت فيهما ، خيل اليك أنهما لاتريانك . وزعموا جبينه فى بياض القمر ، حتى لم يتمالك من رآه أن قال : ما هـذا بنور بشر « إن هذا إلا ملاك كريم » . إن سار غض من بصره ؛ فإن حيوه كان عن العالمين فى شغل ! وقد طرح رأس الامام ثوب سواده ، واشتعل شيباً ، وأخذت لحيته تعرف طريق صدره ، وقد ابيضت منها المسالك !

ـ عجبت للامام كيف شاب ، وقد رأيته آخر ما رأيته ؛ ببغداد غير بعيد . وكان فى مثل سواد الليل شعره !

ـ كذاك فعلت بالرجل أنوار ربه ، فقد قطع الامام فى عالم النور أشواطاً وأجيالا ، وكذاك أمثاله حين يعتزلون ؛ يروا مالا نرى ، وغير ما نبصر يبصرون .

ـ صدقت وذا المصطفى عليه السلام يقول : من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العالمون بالله تعالى » . لقد فتح الله عين قلب الإمام ، فأصبح يبصر بفؤاده « ما كذب الفـؤاد ما رأى » . فليس عليه فى الشيب من عجب . لقد رأى من آيات ربه الكبرى ؛ وألم يقل سيد البشر : شيبتنى هود ! .

ـ لم يعد شكل امامك من تعرف ، لشد ما وددت لو أسعدتنى بلقياه الظروف .

ـ فدلنى يا عماه ، عن واحد ممن لقوه .

ـ أترى ذلك الرجل الربعة ، يمشى موليا وجهه الكعبة ؟

— نعم أراه .

— أسرع اذن وألقه ! فعنده عن الغزالى — كما علمت — خبر .

— ألتى الغزالى الرجل ؟

— نعم . وما حدثتك به من حديث ، هو وشلٌ من لجته استقيت .

....

— تحية من عند الله مباركة طيبة

— وعليك يا ولدى السلام .

— يقولون قد قابلت يا عم الغزالى ؟

— نعم . !

— أرجع ذاك بعيد ؟

— بل أمس القريب .

— وأين ؟

— هنا فى البيت العتيق . زاره فى غفلة عن الناس . كانوا نياما وكنت ساهر الجفن بالبيت . نذرت أن أقوم ليلتى فوفيت . فأكرمنى الله ولقيت الغزالى .

— وحادثته؟

— نعم . ولا !

— وكيف ؟

إن شئت بالحديث الكلام ، فذاك بيننا لم يدر . وان أردت بالحديث معناه ، فذاك ما كان بيننا ، قرأت فى وجهه أشياء وطلعت علىّ عيناه بالخبر . عرفت من تبدّل أوصافه ، تبدل أحواله ! ومن هزاله أتانى حديث السهر . ونمّ النحول على جوع أخفاه عن العيون فظهر . ما ظنى بالرجل إلا مضت عليه فى الطوى ليال ، وما ظنى بجفنه قد ذاق الغمض إلا لماما . وتقول نظراته أشياء . . فنظرة منها تحدثك بمحبته ، وأخرى تذيع سر من عشق ! وتذوب ثالثة فى تواضع وانكسار ، وتقطر رابعة بذوب دمع لا يطفىء النار

وفى فؤاد المحب نار جوى

أحر نار الجحيم أبردها !

رأيته وقد استلم القبلة ، صار لا يدرى أ بأرض هو أم بالسماء . فعلمت أن الرجل إنما صلاته ونسكه ومحياه لله رب العالمين . وسمعته يجهر « رب توفنى مسلما والحقنى بالصالحين » . فخلت أن كل ما بالبيت يؤمن على دعائه !

ورأيته ساجدا ، فخلت كأن الكون معه يسجد . وكأنى بهاتف إذ ذاك يقول . « واسجد واقترب » !

فلما سلم خلت أن الملائكة يدخلون عليه من كل باب . . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار »

وحين ذلك أقبلت نحوه أمشى على استحياء . . فرفع رأسه الىّ . والتقت عينانا . فتجاذب قلبانا . وشعرت نحوه بما يشعر به المؤمن نحو أخيه فى الله ، ذلك الشعور الحلو الذى لا تحيط به العبارات ، ولا يعرفه إلا من ذاق فعرف . أهو نشوة فى الله . أهو سكر حلال من خمره الربانى ؟ أم هو رائحة حلوة من روائح الجنة ، حيث تفنى الأحباب فى الله . قل فيه يا بنى ماشئت

ولكن أبعد به عن دنيا الناس وكلامهم . وما فى لفظهم من سخف وما فى معناهم من فتور . وتمثل فى عجز الكلام دونه بمن قال .

فإن فضل رسول الله ليس له
حد فيعرب عنه ناطق بفم !

كنت أهتز يا بنى ، فيتساقط دمعى ، وقد غمرتنى شبه لجة من نور ، يشع بها علىّ الغزالى . ذلك النور الذى جعله الله لمن اصطفى من عباده المخلصين. ذلك النور الذى كذب به قوم حين سمعوا به فأتوا يطلبونه عند من جعل الله نورهم يسعى بين أيديهم فهم يمشون به فى الناس . فلم يروا نوراولم يرواضياء فانقلبوا على أعقابهم خاسرين منكرين ذلك النور ا لقد حسبوا أن هؤلاء المصطفين يضيؤن كما يضيء المصباح ، أو يتوهجون كما تتوهج فى ظلام الليل شعلة . فلما رأوا بشراً لا شعلة بين أيديهم ، ولا ضياء يمشى أمامهم، هزءوا وكذبوا وما دروا أنهم « ما قدروا الله حق قدره » . فليس نوراً جعله الله لمن أحب شأنه شأن ما عرف الناس من نور . إن نور هؤلاء فى القلب لا فى الجسد. ونور القلب لا تبصره العين ، فإن كذبت عين ما رأت ما كذب الفؤاد ما رأى « فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » . وقد جعل الله على قلوبهم أكنة أن يفقهوه ، فراحو يتلمسون ذلك النور فى توهج كتوهج المصباح ، أو إضاء شعلة بليل ... ساء ما يحكمون !

لا تعجب من حديثى يا بنى ، فمنذ ليال ، كان لى بشأن ذلك النور مع قوم حديث . قالوا . إن نوراً تدّعونه ، هو عجزكم إن أردتم أن تثبتونه . وكيف تثبتون ، مالا تراه العيون ؟ ألم تسموه نورا ، فكيف يكون نوراً يبصر به وهو لا يرى ؟ فسكت عن جواب . قالوا عجزت . قل نعم « الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » . مالى ، ومن ختم الله على سمعه وقلبه غشاوة ان مرآة قلوب هؤلاء ، قد أصدأتها الشهوات ، فلا عجب ان لم تنعكس على

صفحتها أنوار الصالحين « ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » ان نور الصوفية « اشراق » ، ولكن يأبى القوم الا أن يجعلوه احتراقا ، يرون له دخانا ، به على وجود النار يستدلون ! ويريدون أن يكون النور لذى ، يسعى بين أيدى الصالحين ، ينير ظلمات الطريق ، اذا ما كانت الظلمات ، بعضها فوق بعض وما دروا أن نوراً ذلك شأنه ، وهذى صفاته ،انما يكون سعيه بين أيدى أصحابه ، بأن يرشدهم الى طريق الخير وينير لهم ظلام الشكوك،حتى يتخذوا مع الله سبيلا فهو ظلام الجهل ،وهو نور المعرفة واليقين والإيمان، ذلك الذى جعله الله لمن أحب من عباده واصطفى . فإن تعجب فأعجب لما يدعيه المنكرون لذلك النور، من أن عدم القدرة على اثباته ،هى دليل العجز !وأن الإشارات هنا ما فيها غناء ! فليتهم كانوا يدرون ،أن العجز عن اثباته لمن جعل الله على قلوبهم أكنة أن يفقهوه ،لهو دليل قوته واعجازه، لدى أولئك الذين هم بنور الله ينظرون (١) « ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور » فان عجز هؤلاء عن أن يروا الشيء ،فليتهم اكتفوا بأن يروا آياته، ليستدلوا بها على ما هم له منكرون ! ولكنهم ان (يروا كل آية لايؤمنوا بها) فليس (للقوم) عند هؤلاء المنكرين من نور ولاذوق، ولا حال (وما لهم بذلك من علم) ان يظنوا الا ظناً وما هم بمستيقنين ! .

يا بنى لو صحبنى واحد من هؤلاء ووقف معى كما وقفت أمس مع (الغزالى) لما رأى ما رأيت ولا سمع ما سمعت ولا أحس ما به أحسست فإن قلت

انى أرى وفؤادى ليس يكذبنى

نورا يحف به الإجلال والعظم

---

(١) حديث شريف : اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله

أرى جلالا ، أرى نورا ، ارى ملكا

أرى محيّـــا يحيّينا ويبتسم

لسخر منى وقال ، لقدمسّك طائف من الشيطان فتذكّر ، ماأرى إلاّ بشرا ضعيفا لاحول له ولاقوة ، ولا نور! فاذكّرك يابنى انىّ أراك من الصالحين، وأعظك أن تكون من الجاهلين ، وأقول لك ، إذا جمعتك دنياك يوما بامثال هؤلاء تثبّت « إنك على الحق المبين » واذكر قوله تعالى « عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم » ثم تول عنهم فما أنت بملوم ، فستبصر ويبصرون ، بأيّيكم المفتون . ولتكن منزلة الغزالى فى قلبك، منزلة من ذاق فعرف، لا من حرم فانحرف ! « ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين ». نال كلام الشيخ من نفس القاضى أبى بكر مناله ، وصادف هوى فى فؤاده ، فأخذ يمسح بيده عن عينيه دمعة، كانت لعظة «الشيخ» أبلغ جواب! وما كان بأبى بكر نقص فى محبته لشيخه وإمامه ، الغزالى ، يحوجه الى مزيد بيان ، ولكن كأن الله سبحانه قد بعث لفتانا فى هاته اللحظة بذلك الشيخ الجليل ، ليقصّ عليه ما يثبت به فؤاده ، ويزيده إيمانا على إيمان ، ويطرد عن باله وساوس ما عسى أن يسمعه يوما ، من جاهل بأقدار الرجال ! ولا يقيم وزن الغزالى، غير أنداد وأمثال ، والمتشبهين بالرجال إن لم يكونوا مثلهم ! لقد أكرمه الله إذن ، وسد دونه باب الذريعة « وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين »

والآن . أين ياعم ألقاه ؟ ما أخبرتنى بعد، عن طريق فيه سار ؟

من هنا يا ولدى .. أمامك فى هذه البرية سر على بركة الله

.. ..

أتى ابن العربى البرية ينقصها من أطرافها ، فطال به السير فى أرض جدباء ، لا ظل فيها ولا ثمر ولا ماء ، حتى أخذ منه التعب ونال منه العناء . فمال على ما يحمل من قليل الثمرات ، يسد رمقه ببعضها ، ويختزن البعض الآخر لسير عساه أن يطول ، ثم يأخذ شربة مما يحمل من ماء ، وبه الحذر أن ينضب منه معينه . مرّ به ـ وقد أخذ اليأس يبعث اليه بقطرته الأولى ـ بعض البدو يرعون أغناما ، وقد بدت على الغنم ، صورة مرعاهم فى ذلك الهزال الذى ينمّ على جدب البرية . لقد اختار الإمام البرية الجدباء ، حتى لايكون له مؤنس فيها ، غير أرض وسماء . ومن وسعهما كرسيه «لايؤوده حفظهما وهو العلى العظيم » فأخذ يسأل البدو إن كانوا قد رأوا خلال سيرهم احد الناس يضرب فى الأرض ؟ قال قائل منهم وقد رمى عينيه صوب الأفق البعيد .. هناك فانظر .. أترى ذى النقطة تتحرك ولا تكاد تبين ؟ ..

ـ أجل بالكاد أراها . فهل دريتم من راكب البيد ؟

لم ندر من هو ، وإن رأينا منه عجبا . رجلا لا ككل الرجال ، غريب الأطوار مهيب الطلعة ، جليل المنظر ، تأخذك خشية حين تلقاه ـ فما يكلم إلاّ حين يبتسم ـ أشفقنا عليه إذ رأيناه ، وقلنا لعله عابر سبيل ، ضلّت به عن الطريق خطاه . فملنا عليه نقرئه السلام ، ونسأل إن كان بأخى العرب حاجة الينا ؟

ـ فبماذا أجاب ؟

شدّ ما دهشنا حين قدّم الينا رطبا جنيا ، ما درينا من أين أتى به وجاء ؟ ذقناه فوجدناله طعما غير مانعرف من ثمار البادية .. فى الثمرة شبع ورى . فهى غذاء لمن أراد وكفاية . فحيرنا الأمر . لقد أمدّنا من حسبنا أننا سنمده

وقضى لنا حاجة فى النفس ، من ظننا أنا سنقضى له حاجات ! فعرفنا اننا بإزاء إنسان لا ككل البشر . فيه من ربه سر ، فى أفعاله قد ظهر . وقد لمس الرجل حيرتنا فابتسم، فخلنا الغمام قدأخذ يستنسق بوجهوزادته إبتسامته جلالا ! قلنا سألناه عما قدمه لنا . أنىّ له هذا ؟ ما زاد على أن ابتسم وقال « هو من عند الله » . ثم انصرف عنا ، وقد أخذنا نشعر بشعور غريب أضفته علينا قدسية الرجل ! حتى ما استطعنا أن نعود إلى ظهور الإبل إلا بعد أن إحتجب الرجل عنا فكأنه المعنّى لمن قال.

وإذا المطىّ بنا بلغن محمدا

فظهورهن على الرجال حرام !

ما أن سمع ابن العربى هذا من الإعرابى حتى صاح وقد اهتز طربا . . وجدته . هو ورب البيت ! ثم انطاق صوب البرية لا يلوى على شىء ... إلى حيث النقطة المتحركة .

.. .. .. يا سيدى وإمامى . تحيّتى وسلامى. قالها ابن العربى وقدأنساه فرحه بلقاء شيخه تعبه وعناءه .

ـ كنت أنتظرك يا ابن العربى .

ـ أكان شيخى فى انتظارى ؟

ـ أجل .

ـ من أنبأك هذا ؟

ـ نبأنى العليم الخبير .

فانكبّ ابن العربى على يدى شيخه يشبعهما لثما ويقول .صدقت ياإمامى ماكان لى أن أجهل ذلك عليك . ليتنى اتعظت بما أدبّ به الخضر فتاه

(فلا تسألنى عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً) !

ـ (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) فلن أؤاخذك بما نسيت أو أرهقك من أمرك عسراً، وإن يكن أدب المريد مع شيخه، ماقد عرفت. لقد كنت أعرف بإذن الله مكانك وأعلم أنك تقصدنى ولكن تركتك تتعب فى لقائى لحاجة فى نفس يعقوب قضاها. كنت أريد والله شاء أن تلقى ذلك الشيخ الذى حدثك فى البيت(١) عنى فإن لقاءه بركة لك اردت ألا أحرمك منها. فقد مهدلى فى نفسك ويسر لروحك سبيل لقائى. فهو شيخ له درجة عند ربه، وهو عند ذى العرش مكين وكانت بروحك حاجة إلى مزيد قوة من روحه فأمدك الله بها منه وبذا اصبحت الآن أهلا لأن تتقبل منى وتستفيد مما ألقيه عليك واحدثك به. ولربما خشيت عليك لو اتيتنى اول مرة، دون ان تمر عليه، ان تنؤ بما احملك به وإن كنت قد اعتزمت الا اعطيك الا بقدر. ألم تسأل الشيخ اسمه ؟

ـ ما سألته يا شيخى.

ـ انه الشيخ الفاضل (محمد عبده) فاحفظ له يا بنى ذلك الفضل !

ـ ساذكر الفضل لأهله وسأشيد دائما بذكره عبرة لأولى الألباب وذكرى (لمن كان له قلب او القى السمع وهو شهيد)

ـ والآن : ان الله يأمركم ان تؤدوا الأمانات الى اهلها

فعلم ابن العربى ما يعنيه شيخه بهذا ودون ان يستغرب من أمر المكاشفة الثانية ما استغر به اول مرة اخرج خطاب (صاحبنا) من غير ان ينبس بكلمة وأعطاه الغزالى

---

(١) يراجع ما سبق

ثم فاجأه الامام المفاجأة الثالثة.. اذ سرعان ما مد يده فى جيبه واخرج منه ورقا مطويا

— أبلغ فتاى شوقى وسلامى وقل له ذاك رد خطابه. فقد أجبته إلى ما سأل.

ثم ناول ابن العربى وقد سمر مكانه مأخوذا بفضل الشيخ الذى يؤتيه الله من لدنه علماً، ذلك الورق الذى أخرجه من جيبه فإذا هو خطاب قد عنون باسم «صاحبنا»

.. قل له يا ابن العربى إن شيخك ينتظرك هاهنا فى مكة. وقد بعث اليك بزاد روحى قليل تتزود به ابان سفرك — أودعه ذلك الخطاب — فتزودوا ان خير الزاد التقوى. فمد ابن العربى يده، وأخذ الخطاب من الغزالى بيد ترتعش، وأودعه صدره، ثم وقف ساهما .. ينظر الى الإمام ويتأمله. لقد عادت به الذكرى الى الوراء .. الى بغداد .. هاهو الإمام الجليل يصعد الحلقة للدرس وهاهى نحو «أربعمائة عمامة من أكابر الناس وأفاضلهم يأخذون عنه العلم (١)» ثم تختفى الصورة الماضية — عالم الأمس — لتحل محلها صورة أخرى — لزاهد اليوم — وهو واقف أمامه فى البرية «(٢) بيده عكازه وعلى عاتقه ركوة» فيثور فى نفسه سؤال يود أن يواجه به شيخه ولكن يمنعه من ذلك حياؤه منه. ولما كانت به الخشية أن يكون شيخه قد طالع هذا السؤال من نفسه، وعلمه كما علم من قبل غيره، لم يجد بدا من كلام.

يا شيخى وامامى «(٣) أليس تدريس العلم ببغداد خير من هذا؟» فأومض وجه الإمام ونظر اليه شذرا وقال:

«(٤) لما طلع بدر السعادة فى سماء الإرادة وجنحت شمس الوصول فى مغارب الأصول

---

(١) عن شذرات الذهب لابن العماد ح ٤ ص ١٣.

(٢) » » » » » »

(٣) » » » » » »

(٤) » » » » » »

ترکت هوى ليلى وسعدى بمعزل
وعدت إلى تصحيح أول منزل
ونادت بى الاشواق مهلا فهذه
منازل من تهوى رويدك فانزل
غزلتُ لهم غزلا دقيقا فلم أجد
لغزلى نساجا فكسرت مغزلى

فخجل ابن العربى من نفسه ، ولثانى مرة ذكر عتاب الخضر لفتاه « ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا . وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا »

فطأطأ رأسه وقال لشيخه عفوا .. «فإن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى»

فابتسم الإمام الخالد وقال لفتاه .. تسألنى لم اعتزلت ، ولم يكن التدريس ببغداد أولى بى من هذا ، سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا »

يا بنى « (١) لقد ظهر عندى أنه لا مطمع لى فى سعادة الآخرة الا بالتقوى وكف النفس عن الهوى ، وأن رأس ذلك كله ، قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال والهرب من الشواغل والعوائق . ثم لاحظت أحوالى ، فإذا أنا منغمس فى العلائق ، وقد أحدقت بى من الجوانب ، ولاحظت أعمالى وأحسنها التدريس والتعليم فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة فى طريق الآخرة . ثم تفكرت فى نيتى فى التدريس فإذا هى غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت فتبينت أنى على شفا جرف هار وأنى قد أشفيت على النار ، إن لم أشتغل بتلافى الاحوال ، فلم أزل أتفكر فيه مدة ، وأنا بعد على مقام الاختيار . أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك

---

(١) هذا كلام الامام الغزالى رواية عن نفسه فى كتابه الخالد المنقذ من الضلال

الأحوال يوما وأحل العزم يوما واقدم فيه رجلا وأؤخر عنه اخرى. لاتصدق لى رغبة فى طلب الآخرة بكرة، الا ويحمل عليه جند الشهوة حملة فيفترها عشية. فصارت شهوات الدنيا تجذبنى بسلاسلها الى المقام. ومنادى الايمان ينادى الرحيل. الرحيل. فلم يبق من العمر الا قليل، وبين يديك السفر الطويل، وجميع ما انت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل. فإن لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد؟ وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع؟ فبعد ذلك تنبعث الداعية وينجزم العزم على الهرب والفرار. ثم يعود الشيطان ويقول: هذه حالة عارضة واياك ان تطاوعها فإنها سريعة الزوال فإن اذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض والشأن المنظوم الخالى من التكدير والتنغيص. والأمر المسلم الصافى عن منازعة الخصوم. ربما تلفتت اليه نفسك ولا يتيسر لك المعاودة! فلم ازل اتردد بين تجاذب شهوات الدنيا، ودواعى الآخرة، قريبا من ستة اشهر اولها رجب سنة ثمان وثمانين واربعمائة. وفى هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار الى الاضطرار! اذ قفل الله على لسانى حتى اعتقل عن التدريس، فكنت اجاهد نفسى ان ادرس يوما واحدا تطييباً لقلوب المختلفين الى. فكان لا ينطق لسانى بكلمة ولا استطيعها البتة. ثم اورثتنى هذه العقلة فى اللسان حزنا فى القلب بطل معه قوة الهضم ومرء الطعام والشراب. فكان لا ينساغ إلى شربة. ولا ينهضم لى لقمة. وتعدى الى ضعف القوى حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج وقالوا هذا امر نزل بالقلب. ومنه سرى الى المزاج. فلا سبيل اليه بالعلاج الا بأن يتراوح السر عن الهم الملم: ثم لما احسست بعجزى وسقط بالكلية اختيارى. التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذى لا حيلة له فأجابنى الذى يجيب المضطر اذا دعاه وسهل على قلبى الاعراض عن الجاه والمال والأهل والولد والأصحاب وأظهرت عزم الخروج الى مكة وأنا أنوى فى

نفسى سفر الشام حذراً من أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمى فى المقام بالشام . فتلطفت بلطائف الحيل فى الخروج من بغداد على عزم ألا أعاودها أبدا »

— ان درسك الأخير ببغداد ياشيخى . لا زلت أذكره كأنه ما كان الا أمس

— واتذكر يابنى كيف « (١) استهدفت للأئمة أهل العراق كافة اذ لم يكن فيهم من يجوز أن يكون الإعراض عما كنت فيه سببا دينيا . اذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى فى الدين . وكان ذلك مبلغهم من العلم » ؟

— وانى لأذكر ياشيخى كيف أخذ الناس يستنبطون بشأنك ويختلفون !

— أجل يابنى لقد « (٢) ارتبك الناس فى الاستنباطات فظن من بعد عن العراق أن ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة . وأما من قرب من الولاة فكان يشاهد الحاحهم فى التعلق بى و الانكباب علىّ واعراضى عنهم وعن الإلتفات الى قولهم . فيقولون هذا امر سماوى وليس له سبب الا عين أصابت أهل الإسلام وزمرة العلم . ففارقت بغداد وفرقت ما كان معى من مال ولم أدخر إلا قدر الكفاف وقوت الأطفال ترخصا بأن مال العراق مرصد المصالح لكونه وقفا على المسلمين . فلم أر فى العالم مالا يأخذه العالم لعياله اصلح منه . ثم دخلت الشام وأقمت به قريبا من سنتين » .

ـ الشام ! اذهبت الى الشام ايها الإمام ، وكنا نظنك قد قصدت مكة مباشرة ؟

---

(١) منقذ من الضلال

(٢) منقذ من الضلال

— إنها الحيلة التى خرجت بها من بغداد يابنى . كما أخبرتك « لقد (٣) دخلت الشام وأقمت به قريبا من سنتين لا شغل لى إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة . اشتغالا بتزكية النفس ، وبتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، كما كنت حصلته من علم الصوفية . فكنت اعتكف مدة فى مسجد دمشق . أصعد منارة المسجد طول النهار ، وأغلق بابها على نفسى . ثم رحلت منها إلى بيت المقدس ، أدخل كل يوم الصخرة وأغلق بابها على نفسى . ثم تحركت فى داعية فريضة الحج والاستمداد من بركات مكة والمدينة وزيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه ، فسرت إلى الحجاز » .

تلك قصتى يابنى منذ فارقتكم ببغداد حتى لحظتى تلك . (ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا) فهل تصر على سؤالك الآن . أكان تدريس العلم ببغداد خيراً أم هذا ؟ !

لم يجد ابن العربى مايرد به على شيخه ، سوى أن يستلم يده ـ أكرم بها ـ فيشبعها لثما ، ويسأله ألا يحرمه من دعوات له صالحة ، يجد نورها أمامه فى الحياة !

كان الغروب حين ودع ابن العربى شيخه الإمام ، وذهب كل فى سبيل . الغزالى الى البرية .. وقفل ابن العربى عائدا الى مكة ، ليشد الى مصر رحاله عائدا اليها ..

ليجد صديقا فى انتظاره ، قد طال شوقه ـ كما علمت ـ اليه !

---

(١) منقذ من الضلال

الفصل الخامس

يا بنى

. . .　　. . .　　. . .　　. . .

— . . . .

— . . . .

— . . . .

— . . . .

إن يدى تهتز يا ابن العربى ، حتى ما أكاد أقوى على فتح الخطاب . هاهنا قبس من روح الغزالى ، وسر من أسرار الإله . كتاب ماخطته يد ، لكن سطرته أنوار السماء ! حدثنى يا أخى ماكان شعورك إذ أعطيته ؟

ـ لقد

دنا　منى　فناولنى　خطابا

أحست　راحتاى　له　جلالا

فحملت الكتاب فى صدرى ، وقفلت عليه الازار . فلا أكون كذبتك إن قلت لك إنى كنت أجد له راحة فى صدرى ، وأمنا فى قلبى ، وطمأنينة فى نفسى . وإنشراحا عجبا ، حتى كأنى البرد حملت والسلام . كنت أشعر إذ أحمله ، بأن يد الامام على قلبى فأشعر وقعها فى عذوبة دقاته ، وانتظام خفقاته ، وتحركه بمعنى الحياة . حياة كلها إيمان وعقيدة وبركة ! لقد كنت

أجد ريحه الطيب معى ، كما وجد ابن يعقوب فى قميص يوسف شفاءه !

والآن أستودعك الله يا أخى ، لقد أديت الأمانة الى أهلها ، فافتح خطاب إمامك واقرأ ما فيه باسم ربك وحدك بسلام .

— ماذا ؟ ! أتنصرف الآن ! هكذا مبكرا وما وصلت الا أمس مساء ؟ لقد تركتنى دون أن توقظنى ، ثم تنصرف هكذا سريعا اذا كان الصباح ، وما شبعت من لقائك بعد غير لحظات !

— بودى لو أطلت البقاء معك ، ولكن تحكم بغير ما نريده الأيام إن لى فى الاسكندرية ، كما قد علمت ؛ أربا .

— أهو الطرطوشى تذهب لحضور درسه كما أخبرتنى قبل سفرك ؟

— نعم هو .

— فإن يكن العلم فرق بيننا ، فسر على بركة الله ، ان الدنيا لنا . وكل فراق فى سبيل العلم اجتماع . تزود من العلم حتى يكون لك عند الله ، مداد العلماء ، وقدر الشهداء . ولا تنس أن تخط يوما بذاك المداد . . . رسالة الغزالى !

— دين الغزالى فى عنقى أمانة لا أنساه .

ثم يتعانق الصديقان ....

وبقلب يجف ، ويد ترتعش ، وعين ما خلت من دمع وذكرى ؛ أخذ صاحبنا يفض رسالة الغزالى ..

بسم الله الرحمن الرحيم

يا بنى . . . .

السلام عليك ورحمة الله ، وبعد : ان شابا مثلك نشأ فى طاعة الله ، سيظله الله يوم القيامة ، يوم لا ظل إلا ظله سبحانه . فلا يكن فى صدرك حرج (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين)

إنى أعرفك من زمان يا بنى ، أعرفك أكثر مما تعرف أنت نفسك (فتوكل على الله انك على الحق المبين) لقد توليتك صغيرا - كما تقول - وقد أتيت اليوم تدعونى لأن أتولى قطاف ثمار فى نفسك أينعت ، ما دمت قد زرعت بذرتها أنا فيك . فأقول لك يا بنى انتظر ، ان لك يوما آتيا لا ريب بإذن الله فيه . ولكن متى هذا اليوم ! قل عسى أن يكون قريبا فلا تخاف دركا ولا تخشى (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا) متى نصر الله؟ ألا ان نصر الله قريب . ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله

يا بنى : ان لى سراً معك ، سأعطيكه يوما ، حين يأذن بذلك الله (فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكراً) فليست حياتك منذ أعطيتك عهدى ، لك . بل حياتك ومسعاك أصبحا لله وحده ، ولرسوله ، والمؤمنين . تلك رسالة يختص بها الله من يشاء من عباده الذين قال فيهم سبحانه (ولقد اخترناهم على علم وفضلناهم على العالمين) رسالة قد جعلها الله فى عنق بعض عباده ، بعد ان انتهى عهد رسالة الأنبياء فعلى اولئك الذين اجتباهم ربهم ، ان يحملوا قبساً من ذلك المشعل الذى تركه بين ايدينا رسل الله وانبياؤه .

فهم ورثتهم كما يقول سيد البشر ! وانت تعلم جيداً من اعنى . ما عنيت بهؤلاء ، اهل النفوذ والمال والجاه ، او اهل العلم الذين جعلوا علمهم لغير الله . فطغى منهم من طغى ، ومالق اهل الدنيا منهم من ركب هواه ،

واتخذ الهوى إلهه ، فأصبح امره فى الناس فرطاً (واضله الله على علم) فنسى يوم الحساب ، بل عنيت قوما غـــير هؤلاء . . . قد يكونون ـ من المستضعفين فى الأرض ، اذلة على الكافرين ، اعزة على المؤمنين . وقد يكونون ـ ولا احد يدرى لهم مكانا ، او سمع عنهم انسان ، فإن (الله اعلم حيث يجعل رسالته) . وكانوا احق بها واهلها . لا يفعل الواحد من هؤلاء شيئاً (الا ابتغاء وجه ربه الأعلى) ولسوف يرضى .

اولئك هم القوم الذين تتحرك قلوبهم كل يوم ، متفكرة فى خلق السموات والأرض (ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك) ولكن الدنيا تسير ، والبشر اما ضالون (ثم إنكم أيها الضالون المكذبون) أو مضللون (وليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامةومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم) فبالباطل تراهم يؤمنون . وبنعمة الله هم يكفرون . . . ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك . ساء ما يحكمون . فما يفعل (أولئك الذين هدى الله) ؟ حسبهم أنفسهم ينطوون عليها وشعارهم (لا يضركم من ضل اذا اهتديتم) يعرضون وينتظرون ، حتى يحكم الله بأمره وهو خير الحاكمين

وأنت يابنى واحد من هؤلاء (فاصبر ان وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون) وأسأل ربك دائما وقل . . رب لا تذرنى فرداً . عسى أن يستجيب لك ربك ويمدك بنصره وبالمؤمنين . وكن من الذين (آمنوا بربهم وزدناهم هدى) ولا يكن فى قلبك ريبة من نصر الله لمن ينصره ، ولينصرن الله من ينصره (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) . وكفى بالله ولياً ، وكفى بالله نصيرا ، انه كان بعباده خبيراً بصيراً

واحذر الناس يا بنى ، فطالما حذرتك منهم ، واعلم أن لك طريقا غير طريقهم . أنت تريد أن تكون يوما داعية ، وهم لا يحبون الناصحين . سواء عليك أوعظت أم لم تكن من الواعظين . وأثبت يا بنى (فإن لم يستجيبوا

لك فاعلم إنما يتّبعون أهواءهم » وقل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعن « فاتبعوني يحببكم الله » .

أعرفك تريد هذا للناس يابني . فماذا يريد أكثرهم لك ؟ وماذا تنتظر أن تسمع أنت منهم ؟ .. يريدون لك مايقوله خالقهم « ويريد الذين يتّبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما».

وانتظر منهم كذلك أن يسخروا منك « وإذا رأوك أن يتخذوك إلا هزوا » . فاذا جعلت رائدك دائما يابني (فا ستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم) فلن يضروك شيئاً . واحذر أن يفتنوك عن سبيل الله (ولولا أن ثبتناك لقد كدتَ تركن إليهم شيئاً قليلا) . وإذا لا تخذوك خليلا . فكن يابني مع الله ، يكن الله معك ، فهو الذى يتولى الصالحين. ومن يتوكل على الله فهو حسبه .

يابني . سيقول السفهاء من الناس عنك كثيرا . وسيسخرون منك ، سخر الله منهم . وسيحاولون أن يصرفوك عن سبيلك ، فاحذر أن يفتنوك (ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير) . فإنك إن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله . وثق يابني أنهم يعلمون أنك على الحق المبين ، وأنهم على الباطل ولكنهم (يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون) حسدا من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق .لذا كم (ودوا لو تدهن فيدهنون) .فتوكل على من أخلصتَ له وجهك ، حنيفا (فسيكفيكهم الله وهو السميع للعليم).

أحمل قلبك الذى وهبته لله فاطرك ، كما تحمل الشعلة المقدسة ، ولا تخشى الناس ولو اجتمعوا لك ؛ فإن أتعبوك ونالوك بالأذى ، فلك فى رسول الله أسوة حسنة . دع أذاهم وتوكل على الله وقل . . . رب اهد قومى فانهم لا يعلمون .

كان نبيك يحمل رسالته لخير البشر (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) . فقابلوا إحسانه بالاساءة ، وخيره بالشر . فصبر على من هم (كالأنعام بل هم أضل) . حتى جاءه نصر الله والفتح (ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا) وكذا حال المصلح واجب أن يكون . يصبر على أذى الناس — وقد أراد خيرهم — ولو اجتمعوا له ، حتى إذا جاء الحق وزهق الباطل ، والله غالب على أمره (ولكن أكثر الناس لايعلمون) . صفقت الأيدى التى امتدت بالأذى إليك ، وهتفت الحناجر التى خرج منها السباب لك . وأثنت عليك الألسن بعد ما ، عرف فحش القول بها سبيلا عليك . إنهم الناس يا بنى .

إن جئتهم بالحق ، فأكثرهم للحق كارهون . وإن جاريتهم فقد ، خسر هنالك المبطلون . فاذا دعوتَ يوما إلى سبيل ربك ، فلا تهن لما أصابك فى سبيل الله ، ولا تضعف أو تستكن وقل إن (الذى خلقنى فهو يهدين) . والله يحب الصابرين . إن الدعاة حملة المشاعل ، وورثة الأنبياء ، هم الذين جاهدوا فكذبوا (فصبروا على ما كذّبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا). فيقول إذ ذاك المكذّبون (إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا) . ويقول المخلفون : ألم نكن معكم ؟ ويهتف من رضى أن يكون فى القاعدين (ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما)!

يا بنى . إن الحياة رخيصة ، لاتساوى عند الله جناح بعوضة . وهى رخيصة لدى المؤمنين . فاحرص على الموت توهب لك الحياة . هذا ما قاله فى شأنها الرسول عليه السلام وذلك ما (وصاكم به لعلكم تذكرون) . واسمع فى وصفها أيضا ، منى قول حكيم :

فقد قال فيها الواصفون فأكثروا .·. وعندى لها وصف لعمرى صالح ..

أرى الدنيا لمن هى فى يديه

همومًا كلّما تكاثرت لديه

تهين المكرمين لها بصغر

وتكرم كل من هانت عليه

لعمرى ما قيمتها ، هذه الدنيا ، وكلّنا فيها على سفر (وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت) . فاذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون . وهل ضمن الانسان من عمره لحظة؟ ففيم يفرحون ، وعلام يضحكون (وتضحكون ولا تبكون.وأنتم سامدون). لو علم هؤلاء بعض ما علمه الرسول عليه السلام ، لردّدوا معه ما قال : لو كنتم تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا وبكيتم كثيرا . ساء مايعملون .

يا بنى . إن تعجب فاعجب للمسافر فى طريق حف بالمكاره والأخطار ، فهو دائب التلفت ، دائم الحذر . يتوقع فى كل خطوة كمينًا ، أو خنجرًا من لص إذا ما غدر . فيلبث فى صحوته تلك ، وانتباهه هذا ، حتى ينتهى من ذلك الطريق المخوف . ماغمض له جفن ، ولا استراح له بال ، حتى قطعه فاستراح ! والانسان ! ذلك المسافر فى طريق الحياة ، ذلك الطريق الذى يطول أو يقصر حسبما كتب له الله من عمر ، الجاهل متى تكون ساعته ، وهو لا يتفكر فيها أبدًا . كأن الموت على غيرنا كتب . يسير فى طريق الحياة آمنا ، وفى كل خطوة من خطواته كمن الخطر . فإن أتى مقدوره لا يدفعه الحذر . وفى كل همسة من همساته « مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » . فكل له كتاب ، سيلقاه منشورًا « لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها » . فاعجب يا بنى لذلك الذى أمن يوم الحساب ، وبات يخشى غوائل الطريق ، إذا ما كان على سفر !

فنبّـه رقيبا من حذارك كلمّـا

رأيت بأطراف الفؤاد أمانيا

فليعمر الانسان فى حياته ما يعمّر ، كأنه إذ جاءه الموت، ما لبث إلا ساعة. ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى ناراً ذات لهب . ليت شعرى ما حاله ؟ جمع مالا وعدده « أيحسب أن ماله أخلده » ؟ مصيره بين أيدى ملائكة غلاظ الأكباد ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون (ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم . اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون . ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم معكم شركاء. لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون). أيدرى المسكين حاله إذا ما قال ربكم (خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الجحيم . ذق انك أنت العزيز الكريم) . يأيها الانسان ما غرك بربك الكريم ؟ فإن صاحوا ربنا ردنا لنعمل غير الذى كنا نعمل — ولو ردوا لعادوا إلى ما نهوا عنه — تصيح بهم الملائكة . هيهات (إن هذا ما كنتم به تمترون).

فاحذر يا بنى، إن عذاب ربك لواقع ، ما له من دافع . وذر أهل الدنيا فى غمرة يعمهون وقل (ذرهم يتمتعوا ويلعبوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون) .

يابنى. لا تحسبنّ إنى إذ أحذرك من الدنيا ،أدعوك لأن تعيش كالمعدوم فى وجدك . بل اعمل لآخرتك ، ولاتنسى نصيبك من الحياة الدنيا . واعمل بالحديث الشريف كله لا بأحد شقيه كما تطرف حزب أهل الدنيا وحزب أهل الآخرة .

يقول الرسول عليه الصلاة والسلام : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، ولآخرتك كأنك تموت غداً . فإن عملت بشق الحديث الأول وحده ، نسيت الله فأصبحت ممن (نسوا الله فأنساهم أنفسهم) وإن عملت بشقه الثانى فحسب ، نسيت نصيبك من الحياة الدنيا ، فتكون ممن حرم ما أحل الله ! من زينته والطيبات من الرزق ، ولم تنفذ به ما أمرك به خالقك من وجوب عدم نسيانك لنصيبك من الحياة الدنيا ! ولم تعمل بما أمر (اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون . وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) .

فأعمل يا بنى لدنياك كما تعمل لآخرتك ، ولكن ابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة . وليكن عملك لوجه واحد ، يكفك الوجوه كلها . وعامل الناس بالحسنى ، وليكن شعارك فى الحياة . ما قاله شيخنا الشافعى :

إذا شئت أن تحيا سليما من الأذى
وحظك موفور وعرضك صيّن

لسانك لا تذكر به عورة أمرىء
فكلك عورات وللناس ألسن

وعينك ان أبدت اليك معايبا
فصنها وقل . يا عين للناس أعين .

وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى
وفارق ولكن بالتى هى أحسن .

يابنى :

لا تظن أنك اذا أخلصت لله نيتك ، وأردت وجهه ، ستجد طريق الحياة ، وقد فرشته على جانبيك ورود . تقطف هذه وتنعم بتلك . بل أعدّ

نفسك لتقبل حكم الله وقل مع من قال : انى على الحالين شاكر . فالله اذا أحب عبدا امتحنه وابتلاه. ألم تسمع قوله تعالى (أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم) ؟ وحينئذ يرى الله عبده ، أيصبر أم يكفر؟ (وليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) . وقد يعطى الله من هو دونك ، بل يعطى من عصاه ، ولا يكون ذلك الا املاء لهم فى الغى (انما نملى لهم ليزدادوا إثما). حتى اذا ظن أنه أصبح من القادرين ، أتاه الله من حيث لا يحتسب ، وأخذه أخذ عزيز مقتدر (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) .نعوذ بالله من فتنته ومكره. فالله سبحانه لا يعطى العاص ، ولكن يملى له ليزداد إثما ، ثم يحاسبه بعد ذلك حسابا عسيرا . فهل هذا عطاء ؟! وهو لا يحرم المؤمن ولكن يبتليه ، ليرى أيصبر أم يكفر (ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وان اصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين) . فإن صبر فإنما (يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب). فهل هذا حرمان ؟ ومامتاع الدنيا فى الآخرة الا قليل (وللآخرة خير لك من الأولى) ولسوف يعطيك ربك فترضى . وقد يكون عطاؤك فى الدارين (فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة) وجيها فى الدنيا والآخرة ،ولكن بعد اجتيازك فترة امتحانك (أوحسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين). قد تمر على المؤمنين ـ يابنى ـ شدائد ، كما مرت على الذين من قبلهم فما زادتهم غير ايمان وتثبيت . واذكر ماكان من امر الصحابة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى احدى غزواتهم (ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه . متى نصر الله . الا إن نصر الله قريب) .

فاحذر يابنى فتنة الله لعباده المؤمنين . فلو تعلم نفس ما اخفى لهم من قرة

عين جزاء بما كانوا يعملون ، لرضى الناس كلهم وقالوا ، حسبنا الله ، إنا الى الله راغبون.

يابنى.انى

أرى رجالا بأدنى الدين قد قنعوا

وما أراهم رضوا فى العيش بالدون

فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين .

يابنى

هون عليك ولا تولع باشفاق

فإنمـــا مالنا للوارث الباقى .

يابنى

ومن يحمد الدنيا لعيش يسّره

فسوف لعمرى عن قليل يلومها

اذا أدبرت كانت على المرء حسرة

وان اقبلت كانت كثيرا همومها.

يابنى

اذا فعل الفتى ماعنه نهى

فمن جهتين لا جهة اساء

واذكر فى ذلك قوله تعالى «يا ايها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون . كبر مقتا عند الله ان تقولوا مالا تفعلون ».

فاحذر يابنى اذا وعظت انسانا بشىء ، ان تقع فيما عنه نهيت،واستحى من الله ان يقول الناس فيك :

بخيفـــــــــة الله تعبدتنا
وأنت عين الظالم اللاهى
تأمرنا بالزهد فى هذه الدنـ
يا وما همك إلا هى.

يابنى . . .

مالنا نعبد العباد إذا كا .·. ن إلى الله فقرنا وغنانا

إن سألتَ فاسأل ، كما يقول على رضى الله عنه ، كريماً يلين لهزتك . وما ذلك الكريم إلا الله سبحانه . فهو الذى يعطى ، وهو الذى يمنع . يعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، وبيده الخير ، وهو على كل شىء قدير . فلو أرادك الله بخير فلا راد لفضله، يختص برحمته من يشاء ، وإن أراد ابتلاءك بشىء ، فلن يصيبك إلا ما كتب الله لك ، ولن يمنعك الناس من الله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا « والله غالب على أمره » . فاحفظ وجهك عن الناس كما حفظه من قال :

تكلفنى إذلال نفسى لعزها .·. وهان عليها أن أهان لتكرما
تقول سل المعروف يحى بن أكثم
فقلت سليه رب يحى بن اكثما
فهو قريب يجيب دعوة الداعى و
من يسأل الناس يحرموه .·. وسائل الله لايخيب .

يابنى . . .
قليل المال تصلحه فيبقى
ولايبقى الكثير على الفساد.

ولا تعجب إن

أعزك قوم حين صرتَ إلى الغنى

فلا عجب إنّ الغنى عزيز.

وافعل الخير ما استطعت فإن

يد المعروف غنم حيث كانت

تلقاها شكور أم كفور

فعند الشاكرين لها جزاء

وعند الله ما كفر الكفور

ولا تتبع صدقتك منّا ولا أذى ، لقول معروف ومغفرة « خير من صدقه يتبعها أذى » . وإن لم تسع الناس بمالك ، فسعهم ببسط الوجه وحسن الخلق .

وأخف صنائعك عن الناس فإن من

يخفى صنائعه فالله يظهرها

إنّ الجميل إذا أخفيته ظهرا

كالمسك لايخلو من عبق، وإن حجبه مخفيه أوستر . هيهات طيب المسك يفضح الكاتمين !

يابنى .

إن الاخوة فى الله ، أحسن مايصبو إليه مسلم ، عرف نفسه فعرف ربه . ولكن أحذر أن تعطى خلاً فى الله عهدا ، إلا اذا عرفت أيّة يدلك فى الله مدّت . ان الاخوة فى الله عظيمة عند الله ، عظيم عنده من يرعاها .

وابئس بمن خان لخل" فى الله عهده . لذا أحذر قبل أن تعطيه من الناس أحدا ، واختبر قبل ذلك من أردت اصطفاءه أمدا . فإن وجدتَ فعله يقول لك

وليس لى فى ســواك حظ
فكيفما شئتَ فاختبرنى.

فأمنت له وأمن لك ، ولم تر منه نكرا . والتقى قلبك بقلبه ، فاصبحا خفقا فى اللـه وذكرا . وتعارفت روحك بروحه ، فأتلفتا جندا ... فمدّ له فى الله يدك ، وليمد لك بالمثل يدا ، وكونا باسم الله أخوين .

فما أخوك الذى يدنو به نسب
لكن أخوك الذى تصفو ضمائره

وهل بعد صفاء ضمير لضمير فى الله شىء ؟ ان أخا كذاك لهو لك عن العالمين غناء .

سيكفى الكريم إخاء الكريم
ويقنع بالود منـــــــــه نوالا.

وما كمثل الكرم فى الدين ، اذا ما التقى فى الله الكريمان !

يا بنىّ (١)

« قيل لرسول الله صلىّ الله عليه وسلم ، من أكرم الناس فقال أتقاهم

---

(١) هذا نص رسالة كتبها الامام الغزالى إلى بعض أهل عصره ، وقد أوردها صاحب طبقات الشافعية فى مجلده الرابع . وقد تصرفنا فجعلنا كاف المخاطبة - بدل الهاء فى الأصل - ليستقيم لنا المعنى المنشود ، وما استتبع ذلك من تغيير بعض الألفاظ دون المعنى .

فقيل من ألين الناس فقال أكثرهم للموت ذكرا ، وأشدّهم له استعدادا .
وقال صلى الله عليه وسلم . الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ،
والأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله المغفرة . وأشدّ الناس غباوة
وجهلا من تهمّه أمور دنياه التي يخلفها عند الموت ، ولا يهمه أن يعرف
أنه من أهل الجنة أو النار . وقد عرفه الله ذلك حيث قال (ان الأبرار
لفي نعيم . وانّ الفجار لفي جحيم) وقال (فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا)
الآية وقال (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها) الى
قوله وباطل ما كانوا يعملون . وانى أوصيك أن تصرف الى هذا المهم همتك ،
وأن تحاسب نفسك قبل أن تحاسب . وتراقب سريرتك وعلانيتك وقصدك
وهمتك وأفعالك وأقوالك واصدارك وايرادك ، أهى مقصودة على
مايقربك من الله ويوصلك الى سعادة الأبد . أو هى مصروفة الى مايعمر
دنياك ويصلحها لك اصلاحا منغصاً مشوباً بالكدورات ، مشحوناً بالهموم
والغموم ، ثم يختمها بالشقاوة والعياذ بالله . فلتفتح عين بصيرتك ، لتنظر
نفس ماقدمت لغد . ولتعلم أنه لاناظر لنفسك ولامشفق سواك . ولتتدبّر
ما أنت بصدده ، فإن كنتَ مشغولا بعمارة ضيعة ، فلتنظر كم من قرية
أهلكها الله وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها بعد عمارتها . وان كنتَ
مقبلا على استخراج ماء وعمارة نهر ، فلتفكر كم من بئر معطلة وقصر
مشيد بعد عمارتهما .

وإن كنت مهتما بتأسيس بناء فلتتأمل كم من قصور مشيدة البنيان ،
محكمة القواعد والأركان ، أظلمت بعد سكانها . وإن كنت معتنيا بعمارة
الحدائق والبساتين فلتعتبر كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام
كريم ونعمة. الآية .ولتقرأ قوله تعالى . أفرأيت إن متعناهم سنين ثم جاءهم
ما كانوا يوعدون . ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون . وإن كنت مشغوفا .

ـ والعياذ بالله ـ بخدمة سلطان فلتذكر ما ورد فى الخبر أنه ينادى منـاد يوم القيامة . أين الظلمة وأعوانهم ؟ فلا يبقى أحد منهم مدّ لهم دواة أو برى لهم قلما فما فوق ذلك إلا حضر فيجمعون فى تابوت من نار فيلقون فى جهنم. وعلى الجملة فالناس كلهم إلا من عصم الله ، نسوا الله فنسيهم وأعرضوا عن التزوّد للآخرة وأقبلوا على طلب أمرين : الجاه والمال . فإن كانوا فى طلب جاه ورياسة فليتذكـّروا ماورد به الخبر ، أن الأمراء والرؤساء يحشرون يوم القيامة فى صورة الذر تحت أقدام الناس ، يطئونهم بأقدامهم . ولتقرأ ما قاله تعالى فى كل متكبر جبار . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يكتب الرجل جباراً وما يملك إلا أهل بيته . أى أذا طلب الرياسة بينهم وتكبر عليهم . وقد قال عيسى عليه السلام . يامعشر الحواريين العين مسرة فى الدنيا ، مضرة فى الآخرة ، بحق أقول لايدخل الأغنياء ملكوت السماء . وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم ، يحشر الأغنياء يوم القيامة أربع فرق . رجل جمع مالا من حرام وأنفقه فى حرام فيقال اذهبوا به إلى النـار . ورجل جمع مالا من حرام وأنفقه فى حـلال ، فيقال اذهبوا به إلى النار ، ورجل جمع مالا من حلال وأنفقه فى حرام فيقال اذهبوا به الى النار ، ورجل جمع مالا من حلال وأنفقه فى حلال فيقال قفوا هذا واسألوه لعله بسبب غناه تهاون فيما فرضنا عليه أو قصد فى صلاته أو فى وضوئها أو ركوعها أو سجودها أو خشوعها أو ضيّع شيئاً من الزكاة والحج . فيقول الرجل جمعت المال من حلال وأنفقته فى حلال وما ضيّعت شيئا من حدود الفرائض بل أتيتها بتمامها . فيقول لعلك باهيت أو اختلت فى شئ من ثيابك فيقول يارب . ما باهيت بمالى ولا اختلت فى ثيابى ، فيقال لعلك فرطت فيما أمرتك من صلة الرحم وجبر الجيران والمساكين ، وقصرّت فى التقديم والتأخير والتفضيل والتعديل ، ويحيط هؤلاء به فيقولون ، ربنا

أغنته بين أظهرنا وأحوجتنا إليه ، فقصّر فى حقنا . فإن ظهر تقصير ذهب به الى النار ، والا قيل له قف هات الآن شكر كل نعمة وكل شربة وكل أكلة وكل لذة، فلا يزال يسأل ويسأل. فهذه حال الأغنياء الصالحين المصلحين القائمين بحقوق الله تعالى ، ان يطول وقوفهم فى العرصات فكيف حال المفرطين المنهمكين فى الحرام والشبهات المتكاثرين به ، المتنعمين بشهواتهم الذين قيل فيهم . ألهاكم التكاثر . حتى زرتم المقابر . فهذه المثالب الفاسدة هى التى استولت على قلوب الخلق فسخرها للشيطان وجعلها ضحكة . فعليه وعلى كل مشمر فى عداوة نفسه أن يتعلم علاج هـــذا المرض الذى حل بالقلوب ، فعلاج مرض القلب أهم من علاج مرض الأبدان ، ولا ينجو الا من أتى الله بقلب سليم . وله دواءان :

أحدهما ملازمة ذكر الموت وطول التأمل مع الاعتبار بخاتمة الملوك وأرباب الدنيا ، انهم كيف جمعوا كثيرا وبنوا قصوراً وفرحوا بالدنيا بطرا وغروراً فصارت قصورهم قبورا ، وأصبح جمعهم هباء منثورا . وكان أمر الله قدرا مقدورا . أو لم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون . يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات ، أفلا يسمعون ؟ قصورهم وأملاكهم ومساكنهم صوامت ناطقة تشهد بلسان حالها على غرور عمالها . فانظر الآن فى جميعهم . هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ؟

الدواء الثانى : تذكر كتاب الله تعالى ففيه شفاء ورحمة للعالمين . وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بملازمة هذين الواعظين فقال ، تركت فيكم واعظين ، صامتا وناطقا . الصامت الموت ، والناطق القرآن . وقد أصبح أكثر الناس أمواتا عن كتاب الله تعالى ، وإن كانوا أحيـــاء فى معايشهم ، بكما عن كتاب الله تعالى ،وإن كانوا يتلونه بألسنتهم ، وصمّا عن سماعه وإن كانوا يسمعونه بآذانهم ، وعميا عن عجائبه و إن كانوا

ينظرون إليه فى صحائفهم ومصاحفهم ، نائمين عن أسراره ، وإن كانوا يشرحونه فى تفاسيرهم .

وأحذر أن تكون منهم وتدبر أمرك وأمر من لم يتدبر ، كيف يقوم ويحشر ؟ وأنظر فى أمرك وأمر من لم ينظر فى أمر نفسه كيف خاب عند الموت وخسر . واتعظ بآية واحدة من كتاب الله ففيها مقنع وبلاغ لكل ذى بصيرة . قال الله تعالى : يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون . إلى آخرها .. وإياك ثم إياك أن تشتغل بجمع المال فإن فرحك به ينسيك أمر الآخرة ، وينزع حلاوة الإيمان من قلبك . قال عيسى صلوات الله عليه وسلامه ، لا تنظروا إلى أموال أهل الدنيا ، فإن تروا أموالهم ، تذهب حلاوة إيمانكم . وهذه ثمرة حجر النظر . فكيف عاقبة الجمع والطغيان والنظر . ومن أنعم الله عليه يسعى فى فراغ قلبه لعبادة الله تعالى ، ولا يقطع عليه الطريق إلى الله تعالى . وأول الطريق إلى الله ، طلب الحلال والقناعة بقدر القوت من الحلال ، وسلوك سبيل التواضع والخمول (١) ، والنزوع عن رغبات الدنيا التى هى مصائد الشيطان . هذا مع الهرب من مخالطة الأمراء والسلاطين . ففى الخبر أن الفقهاء أمناء الله ما لم يدخلوا فى الدنيا ، فإذا دخلوا فيها فاتهموهم على دينكم ! .

---

(١) لم يقصد الغزالى ـ رضى الله عنه ـ بالخمول هنا الكسل والتواكل ، بل عدم التكالب على الدنيا ، وذم طلب الصيت والشهره . فقد جاء هذا المعنى فى كل كتب الامام الخالد . بل فسر الغزالى نفسه هذا المعنى أيضاً هنا بقوله بعد ذلك . والنزوع عن رغبات الدنيا .. الخ ومثل ذلك أيضا ما ورد فى الأحياء ج ٣ ص ٢٣٨ تحت عنوان (بيان ذم الشهره وإنتشار الصيت) فقد بين فيه ما المقصود بالخمول . المؤلف

أسأل الله أن يصغر فى عينيك الدنيا التى هى صغيرة عند الله ، وأن يعظم فى عينيك الذى هو عظيم عند الله . وأن يوفقنا وإياك لمرضاته ، ويحلك الفردوس الأعلى من جناته بمنه وكرمه إن شاء الله تعالى » .

يا بنى . سأقصّ عليك عظات فيها خيرك ، فخذها عنى تسلم .

أتريد أن تعلم شيئاً تكون قريباً به من الله ، وجيها فى الدنيا والآخرة. إنه العقل يا بنى (١) « فأول ما خلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل . ثم أدبر فأدبر . ثم قال الله عز وجل : وعزتى وجلالى ما خلقت خلقا أكرم على منك . بك آخذ وبك أعطى وبك أثيب وبك أعاقب . وعن أنس رضى الله عنه قال أثنى قوم على رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم حتى بالغوا فقال صلى الله عليه وسلم . كيف عقل الرجل ؟ فقال نخبرك عن إجتهاده فى العبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله ! فقال صلى الله عليه وسلم : إن الأحمق يصيب بجهله أكثر من فجور الفاجر . وإنما يرتفع العباد غداً فى الدرجات الزلفى من ربهم على قدر عقولهم . وعن عمر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أكتسب رجل مثل فضل عقل يهدى صاحبه الى هدى ويردّه عن ردى . وما تمّ ايمان عبد ولا استقام دينه حتى يكمل عقله . وعن عائشة رضى الله عنها قالت . قلت يا رسول الله بم يتفاضل الناس فى الدنيا قال . بالعقل . قلت وفى الآخرة قال . بالعقل . قلت أليس انما يجزون بأعمالهم فقال صلى الله عليه وسلم : يا عائشة وهل عملوا الا بقدر ما أعطاهم عز وجل من العقل ، فبقدر ما أعطوا من العقل كانت أعمالهم وبقدر ما عملوا يجزون » . فاحرص على عقلك يا بنى وجمله بالعلم ، فإن رتبة العلم أشرف رتبة .

(١) احياء علوم الدين ج ١

يا بنى

(١)« قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان العبد ليصلى الصلاة لا يكتب له سدسها ولا عشرها وإنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها . ان حضور القلب هو روح الصلاة وان أقل ما يبقى به رمق الروح الحضور عند التكبير .

فالنقصان منه هلاك وبقدر الزيادة عليه تنبسط الروح فى أجزاء الصلاة وكم من حى لا حراك به قريب من ميت . فصلاة الغافل فى جميعها إلا عند التكبير كمثل حى لا حراك به . نسأل الله العون » .

يا بنى

(٢)« قال صلى الله عليه وسلم من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار . وعن هذا شنّع أهل العلم بظاهر التفسير على أهل التصوف من المفسرين المنسوبين الى التصوف فى تأويل كلمات فى القرآن على خلاف ما نقل عن ابن عباس وسائر المفسرين . وذهبوا الى أنه كفر . فإن صح ما قاله أهل التفسير فما معنى فهم القرآن سوى حفظ تفسيره ، وان لم يصح ذلك فما معنى قوله صلى الله عليه وسلم من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار ؟ فاعلم أن من زعم أن لا معنى للقرآن الا ما ترجمه ظاهر التفسير ، فهو مخبر عن حدّ نفسه وهو مصيب فى الإخبار عن نفسه ، ولكنه مخطىء فى الحكم برد الخلق كافة الى درجته التى هى حده ومحطه . بل الأخبار والآثار تدل على أن فى معانى القرآن متسعا لأرباب الفهم » .

وشرح ذلك يطول وقد قصصته عليكم فى احدى حلقات « الأحياء » ببغداد كما تذكر يا بنى . وقد ذكرت لك هذا الآن ثانية ، لما عرفته من

(١) إحياء علوم الدين ج ١

(٢) إحياء علوم الدين ج ١

نزعتك فى فهم كتاب الله وتدبرك معانيه ، وانسياب نفسك فى تفهم آياته ، وتمثلك به دائما . فداوم على ذلك يا بنى ، ولا تلق أذنك لمن يعترض عليك جهلا ، فقد تصبح غداً بفضل الله عبداً آتاه فهماً فى كتابه واعلم أن « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » .

يا بنى .

(١)« اعلم أن لك مع الأمراء والعمال الظلمة ثلاثة أحوال الحالة الأولى وهى شرها ، أن تدخل عليهم والثانية وهى دونها أن يدخلوا عليك ، والثالثة وهى الأسلم أن تعتزل عنهم فلا تراهم ولا يرونك » .

يا بنى .

لقد حدثتك عن فضل الإخوة فى الله وأزيدك «(٢)قال صلى الله عليه وسلم المؤمن آلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف . وقال صلى الله عليه وسلم فى الثناء على الاخوة فى الدين ، من أراد الله به خيراً رزقه خليلا صالحاً إن نسى ذكره وإن ذكر أعانه . وقال صلى الله عليه وسلم مثل الأخوين إذا التقيا مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى . وما التقى مؤمنان قط إلا أفاد الله أحدهما من صاحبه خيراً .

وقال عليه السلام فى الترغيب فى الإخوة فى الله ، من آخى أخا فى الله رفعه الله درجة فى الجنة ، لا ينالها بشىء من عمله . وقال أبو إدريس الخولانى لمعاذ ، إنى أحبك فى الله فقال أبشر ثم أبشر فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ينصب لطائفة من الناس كراسى حول العرش يوم

---

(١) إحياء علوم الدين ج ١ ص ١٢٥ .

(٢) إحياء علوم الدين ج ١

القيامة وجوههم كالقمر ليلة البدر . يفزع الناس وهم لا يفزعون ، ويخاف الناس وهم لا يخافون وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فقيل من هؤلاء يا رسول الله ؟ فقال ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء فقالوا يا رسول الله صفهم لنا ،فقال هم المتحابون فى الله والمتجالسون فى الله والمتزاورون فى الله . وقال صلى الله عليه وسلم ما تحاب إثنان فى الله إلا كان أحبهم إلى الله أشد حبا لصاحبه . وإن الاخوين فى الله إذا كان أحدهما أعلى مقاما من الآخر رفع الآخر معه إلى مقامه، وإنه يلتحق به كما تلتحق الذرية بالأبوين والاهل بعضهم ببعض ، لأن الاخوة اذا اكتسبت فى الله لم تكن دون إخوة الولادة ».

ولكن احذر يا بنى من يخدعونك باسم الاخوة فى الله ، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . فإن للاخوة فى الله حقوقا كما لها واجبات «(١) فإن عقد الاخوة رابطة بين الشخصين كعقد النكاح بين الزوجين ، وكما يقتضى النكاح حقوقا يجب الوفاء بها قياما بحق النكاح ، فكذا عقد الاخوة فلأخيك عليك حق فى المال والنفس وفى اللسان والقلب بالعفو والدعاء ، وبالاخلاص والوفاء وبالتخفيف وترك التكلف والتكليف » .

فشرائط الاخوة فى الله صعبه كما ترى «(٢) ولذلك قال بعض الحكماء . كل إنسان يأنس الى شكله كما أن كل طير يطير مع جنسه . واذا اصطحب اثنان برهة من زمان ولم يتشاكلا فى الحال فلا بد أن يفترقا وهذا معنى خفى تفطن له الشعراء حتى قال قائلهم

وقائل كيف تفارقتما
فقلت قولا فيه انصاف

(١) إحياء علوم الدين
(٢) إحياء ج ٢ ص ١٤٠

لم يك من شــكلى ففارقته

والناس أشــكال وألاّف » .

يابنى

«(١) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يغضب للدنيا فإذا أغضبه الحق لم يعرفه أحد ، ولم يقم لغضبه شىء حتى يقتص له » . فليكن غضبك لله لا للدنيا ، وليكن أسوتك فى ذلك ، رسول الله صــلوات الله وسلامه عليه .

يابنى(٢)

« قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أخوف ما أخاف على أمتى الرياءوالشهوة الخفيةالتى هى أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء ، ولذلك عجز عن الوقوف على غوائلها ، سماسرة العلماءفضلا عن عامة العباد والأتقياء وهو من أواخر غوائل النفس وبواطن مكايدها وإنما يبتلى به العلماء والعباد والمشمرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة فإنهم مهما قهروا أنفسهم وجاهدوها وفطموها عن الشهوات وصانوها عن الشبهات وحملوها بالقهر على أصناف العبادات ، عجزت نفوسهم عن الطمع فى المعاصى الظاهرة الواقعة على الجوارح ، فطلبت الإستراحة إلى التظاهر بالخيروإظهار العمل، فوجدت مخلصا من مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق ، ونظرهم اليه بعين الوقار والتعظيم فسارعت إلى إظهار الطاعة ، وتوصلت إلى إطلاع الخلق ولم تقنع باطلاع الخالق وفرحت بحمد الناس ولم تقنع بحمد الله وحده .

---

(١) إحياء ج ٣ ص ١٤٨

(٢) إحياء ج ٣ ص ٢٣٨

وعلمت انهم إذا عرفوا تركه الشهوات وتوقيه الشبهات وتحمله مشاق العبادات أطلقوا ألسنتهم بالمدح والثناء. وبالغوا فى التقريظ والإطراء ونظروا اليه بعين التوقير والاحترام، وتبركوا بمشاهدته ولقائه، ورغبوا فى بركة دعائه، وحرصوا على اتباع رأيه وفاتحوه بالخدمة والسلام. وأكرموه فى المحافل غاية الإكرام، وسامحوه فى البيع والمعاملات، وقدموه فى المجالس وآثروه بالمطاعم والملابس، وتصاغروا له متواضعين وانقادوا له فى أغراضه موقرين فأصابت النفس فى ذلك لذة هى أعظم اللذات، وشهوة هى أغلى الشهوات، فاستحقرت فيه ترك المعاصى والهفوات، واستلانت خشونة المواظبة على العبادات لإدراكها فى الباطن لذة اللذات وشهوة الشهوات. فهو يظن أن حياته بالله وبعبادته المرضية، وإنما حياته بهذه الشهوة الخفية التى تعمى عن إدراكها العقول النافذة القوية، ويرى أنه مخلص فى طاعة الله ومجتنب لمحارم الله والنفس قد أبطنت هذه الشهوة تزيينا للعباد وتصنّعا للخلق، وفرحا بما نالت من المنزلة والوقار، واصطحبت بذلك ثواب الطاعات، وأجود الأعمال، وقد أثبتت اسمه فى جريدة المنافقين وهو يظن أنه عند الله من المقربين. وهذه مكيدة للنفس لا يسلم منها إلا الصدّيقون، ومهواة لا يرقى منها إلا المقربون، ولذلك قيل آخر ما يخرج من رءوس الصديقين حب الرياسة».

يابنى.

احذر الكبر «(١) فقد ذم الله الكبر فى مواضع من كتابه، وذم كل جبار متكبر فقال تعالى سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق. وقال عز وجل. كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار

---

(١) احياء ج ٣ ص ٢٨٨

وقال تعالى . واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد . وقال تعالى إنه لا يحب المستكبرين . وقال تعالى لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا وقال تعالى إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين . وذم الكبر فى القرآن كثير . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ، ولا يدخل النار من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان . وقال أبو هريرة رضى الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى الكبرياء ردائى ، والعظمة إزارى ، فمن نازعنى واحدا منهما ألقيته فى جهنم ولا أبالى . وسئل سليمان عن السيئة التى لا تقع معها حسنة فقال الكبر » .

فعذ يابنى بالله من الكبر وشره ، واسأله تعالى ألا يحشرك يوم القيامة مع كل متكبر جبار .

يابنى

(١)« سئل ذو النون بما ينال العبد الجنة فقال بخمس ، استقامة ليس فيها روغان ، واجتهاد ليس معه سهو ، ومراقبة الله تعالى فى السرّ والعلانية ، وانتظار الموت بالتأهب له ، ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب وقد قيل

إذا ما خلوتَ الدهر يوما فلا تقل

خلوت ولكن قل على رقيب .

ولا تحسبنّ الله يغفل ساعة

ولا أنّ ما تخفيه عنه يغيب .

ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب

وأن غدا للناظرين قريب . »

---

(١) أحياء ج ٤ ص ٢٣٨

يابنى

« (١) اعلم أن أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك وقد خلقت أمارة بالسوء ، ميالة الى الشر ، فرّارة من الخير ، وأمرتَ بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل القهر الى عبادة ربها وخالقها ومنعها عن شهواتها ، وفطامها عن لذاتها . فإن أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك . وان لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة كانت نفسك هى النفس اللوامة التى أقسم الله بها . ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة الى أن تدخل فى زمرة عباد الله راضية مرضية . فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ، ولا تشتغلن بوعظ غيرك مالم تشتغل أولا بوعظ نفسك »

يابنى

« (٢) قد أمر الله تعالى بالتفكر والتدبر فى كتابه العزيز فى مواضع لاتحصى . وأثنى على المتفكرين فقال تعالى : الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذ باطلا سبحانك .

وكان سفيان بن عيينه كثيرا ما يتمثل بقول القائل

اذا المرء كانت له فكرة

فى كل شىء له عبرة .

وقال الجنيد أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة فى ميدان التوحيد ، والتنسم بنسيم المعرفة ، والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد ، والنظر بحسن الظن لله عز وجل . ثم قال يا لها من مجالس ، ما أجلها . ومن شراب ، ما ألذه ، طوبى لمن رزقه » .

---

(١) إحياء ج ٤ ص ٣٥٤

(٢) إحياء ج ٤ ص ٣٦٠ — ٣٧٩ متفرقات

يابنى(١)

« غاية شهوتك أن تملأ بطنك ، ولا تقدر على أن تأكل عشر ما تأكله بهيمة . فتكون البهيمة فوقك بعشر درجات . وغاية حشمتك أن تقبل عليك عشرة أو مائة من معارفك فينافقون بألسنتهم بين يديك ، ويضمرون خبائث الاعتقادات عليك . وإن صدقوك فى مودتهم إياك فلا يملكون لك ولا لأنفسهم نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا . وقد يكون فى بلدك من أغنياء اليهود والنصارى من يزيد جاهه على جاهك وقد اشتغلت بهذا الغرور وغفلت عن النظر فى جمال ملكوت السموات والأرض ، ثم غفلت عن التنعم بالنظر الى جلال مالك الملكوت والملك . وما مثلك ومثل عقلك الا كمثل النملة تخرج من حجرها الذى حفرته فى قصر مشيد من قصور الملك ، رفيع البنيان ، حصين الأركان ، مزين بالجوارى والغلمان ، وأنواع الذخائر والنفائس ، فإنها اذا خرجت من جحرها ولقيت صاحبتها لم تتحدث لو قدرت على النطق إلا عن بيتها وغذائها ، وكيفية ادخارها ، أما حال القصر والملك الذى فى القصر فهى بمعزل عنه وعن التفكير فيه بل لا قدرة لها على المجاوزة بالنظر عن نفسها وغذائها وبيتها الى غيره . وكما غفلت النملة عن القصر وعن أرضه وسقفه وحيطانه وسائر بنيانه ، وغفلت أيضا عن سكانه ، فأنت أيضا غافل عن بيت الله تعالى وعن ملائكته الذين هم سكان سمواته ، فلا تعرف من السماء الا ما تعرفه النملة من سقف بيتك ، ولا تعرف عن ملائكة السموات الا ما تعرفه النملة عنك وعن سكان بيتك . نعم ليس للنملة طريق الى أن تعرفك وتعرف عجائب قصرك وبدائع صنعة الصانع فيه ، وأما أنت فلك القدرة على أن تجول فى الملكوت وتعرف من عجائبه ما الخلق غافلون عنه . ولنقبض عنان الكلام عن هذا النمط فإنه مجال لا آخر

---

(١) إحياء ج ٤ ص ٣٨ .

له ولو استقصينا أعمارا طويلة لم نقدر على شرح ماتفضل الله تعالى علينا بمعرفته . وكل ما عرفنا قليل نزر حقير بالإضافة الى ما عرفته جملة العلماء والأولياء . وما عرفوه قليل نزر حقير بالإضافة الى ما عرفته الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وجملة ما عرفوه قليل بالإضافة الى ما عرفه محمد نبينا صلى الله عليه وسلم . وما عرفه الأنبياء كلهم قليل بالإضافة الى ما عرفته الملائكة المقربون كإسرافيل وجبريل وغيرهما . ثم جميع علوم الملائكة والجن والأنس اذا اضيف الى علم الله سبحانه وتعالى لم يستحق أن يسمى علما بل هو الى أن يسمى دهشا وحيرة وقصورا وعجزا أقرب . فسبحان من عرف عباده ما عرف ثم خاطب جميعهم وقال . وما أوتيتم من العلم الا قليلا » .

ألا رحم الله امرء ايابنى عرف قدر نفسه . فاعرف من أنت . ماعلمك؟ ماقدرك ؟ وتواضع لله وقل ... رب زدنى علماً .

يابنى (١)

« إنى علمت يقينا أنّ الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى . خاصة وأن سيرتهم أحسن السير وطريقتهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق بل لو جمعوا عقل العقلاء وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرتهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا اليه سبيلا فإن جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة . وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به» .

فتحل بأخلاقهم يابنى « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده »

يابنى .

ذلك بعض ما أريد قوله لك ، والتحدّث به اليك ، وحين تأتى مكة

(١) المنقذ من الضلال لحجة الإسلام الغزالى ص ٣١ .

بإذن الله ، ستجد شفاء لما فى نفسك ، مما حدثتنى به فى خطابك . لقد أعددت لروحك جرعات ، سأسقيك منها بنفسى ، وأقدمها لك فى كأسى . وفى كل جرعة منها — لما شكوت — دواء . فاصبر وما صبرك الا بالله . ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » . واعتصم بحبل الله ، هو مولاك . نعم المولى ، ونعم النصير . ولتذكر دائما أن من يعمل من الصالحات وهو مؤمن ، فلا يخاف ظلما ولا هضما . ولا كفران لسعيه « وانا له لكاتبون » .

وختاما « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطو واتقو الله لعلكم تفلحون » ...

فرغ صاحبنا من قراءة رسالة شيخه اليه ، وما به جلّ أن يسمى . فليس لقلم أن يحاول التعبير عمّا كان يحسّ به وقتذاك . لقد كان يحس بمعنى لا يجد له فى كلام الناس من لفظ . معنى يشبه رائحة الورد اذا ما توغلت فى القلوب ، فحركتها وأبهجتها ! ما رائحة الورد ؟ يقول اللفظ ... جميلة ... حلوة ... ممتعة ... ذكية ... طيّبة .. حسنا . فهل وصفت هذه الألفاظ رائحة الورد حقاً ، أو عبرت عنها أصدق تعبير . ذلك التعبير الجامع المانع كما يقول المناطقة ؟! اللهم لا . فهذه ألفاظ مشتركة نطلقها على كل ما يعجبنا ، دون ما تخصيص . وهى هنا لا تنفرد بخاصية تعبر عن شىء واحد قصدناه ، رائحة الورد ! فيا ألفاظ الناس بعدا ، ويا بالغه أقصرى . ان مرادى فوق ما تُسعفين !

أجل . لقد كان ما به رائحة الورد ... وورود المحبة ، فى رياض المعرفة !

أخذ صاحبنا يعد للسفر عدته ، فغدا إذ تطلع عليه الشمس يكون إن أذن الله ، قد أخذ يضرب فى الأرض ، موليا وجهه شطر أول بيت وضع للناس ، للذى ببكة ... حيث المغفرة والتقوى .. حيث المحبة والرحمة .... وحيث يخلو الحبيب بالحبيب ... وثم الغزالى أيضا !

الفصل السادس

اللقاء الاول

دع عنك حديث السفر ، وما فيه من عناء . وتعال بنا نطو مع الركب أياما وليالى آمنين . ينشر النهار صفحته ، ثم يجى الليل فيطويها فى ظلامه . فإذاماولى قلّب الزمان ورقة ، يضيفها إلى ماسبقها من ورقات - نشرت ثم طويت - فى كتاب الزمن الخالد ! حتى يجىء ذلك اليوم الذى لا يأذن الله فيه لصفحة النهار أن تنشر ، ولا لصفحة الليل أن تطوى ، والأمر يومئذ لله ! إنه لكتاب ضخم ذلك الكتاب ، كتاب الليل والنهار ، قُسم الكتاب إلى أبواب ، طول الباب منه مسيرة عام . وقد قُسّم كل باب فيه إلى فصول أربعة . فهيا بنا نفتح ذلك الكتاب الخالد ، لنقف عند بابه التسعين (١) بعد الاربعمائه ، لدى الفصل الثانى من ذلك الباب ، وأمام هاته الصفحة الثانية التى كادت تطوى من ورقة ذلك اليوم ! ..

أخذ الحادى يحثّ الجمال ، وتسرع فى السير ، منساقة بذلك النغم العذب الذى يبعث به الحادى فى نايه ، فيصل إلى مكان النشاط من قلبها ، فإذا كلها حركة وحياة ونشاط .. .. لقد قارب الركب أبواب مكة .. والليل قبل ذهابه روعة ، وللصحراء فى ذلك الوقت من الليل رهبة . ثم

---

(١) خرج الغزالى .. كما جاء فى منقذه - من بغداد سنة ثمان وثمانين واربعمائة . وقد قصد الشام ولبث فيها عامين . ثم ذهب إلى الحجاز بعد ذلك ، فيكون ذلك فى التاريخ الذى ذكرناه فى عل . المؤلف

هذا النغم الحلو الحزين الذى ينساب من فم الحادى فى نايه عذبا. فيه شجى وفيه طرب .فيه حزن وفيه فرح . فيه يأس وفيه أمل. فيه صوت الحياة بناحيتيها، لأسى والطرب! إنه لم يحرك الإبل وحدها فحسب حتى تغذ السير ، بل حرك قلوب من فى الركب جميعا . فقلب باسم .. لقد بدا له من الله حسن مبتسم! وقلب باك..لقد تحرك عليه الشجو بالألم ! وقلب يائس.. لقد تعاظمته ذنوبه فانتابه الندم ! وقلب ؟ . . قد حركه فى الله النغم ! وفى كل لحن منه للغزالى نداء، حتى كأن الناى إذ يرسل ألحانه يقول

وإذا ذكرتموا أميل كأننى

لطيب ذكركم سقيت الراحا

وماكانت راحا، ولكن أمانى فى الله ، ألذ منها طعما . إذا ماغدت الراح يوما ، حلالا على الشاربين !

الركب يسير . . . . والنغم ينساب فى الظلام . بل ظلام من غير ظلمة . فثم ساهرة فى السماء . عيون القمر ! ولكن كأن السهاد أجهدها ، اذ لم يبق من الليل غير قليل ، فانكسر الجفنان قليلا، ونظر أخو السماء كالوسنان. فطالعتك من وجهه نظرة ، تبسم للكون فى فتور !

ومن حواليك ترقص كالأشباح ظلال. أليس الناى يعزف لها، والقمر يرنو اليها، فى تراخ ؟! فالصحراء ليلتها فى عرس ، والجبال شهود!

ثم أخذت بنات الجن يصحن ، فتسمع صوتاً يأتيك من بعيد.... له دوى وله صفير . ثم يخفت الصوت ويتلاشى ... لاشىء بعده . لاشىء . غير سكون وركب وليل !

أرض مكة .. رمالها .. جبالها .. ثم تلالها والحزون . . أية ذكرى لك فى النفس تبعثين ؟!

يا أرض سار عليك الرسول يوما ، وأنت . أنت ، لاتتغيرين . خففوا الوطء ما أظن أديمك الا طيبا من ذكرى الصالحين .

وياحادى خبر العيس ان قدرت ، وقل لها .. سيرى الهوينى فقدنزلت بأرض الأكرمين !

ويارمال ما فى ذراتك غير طهر ، من نور خطى سيد المرسلين . بقى الأثر فلم تقو عليه يد السنين . وبقى منك هيبة ، رغم خطى أقدام العالمين . أولئك تفنى آثارهم عليك ، وتزول سريعا بعد حين . لكن خلد أثر عليك واحد . أثر من أرسله الله رحمة للعالمين . ياسيدى ياقدوة المسلمين . يانبى الله ، ياسيد المرسلين . أية ذكرى حلت فى بواديك ؟ تكلمى يارمال ففيك ذكرى تنفع المؤمنين !

وياجبال حدثى بما كنت ترين . خبرينا كيف ائتلق الحق ، وانهزم سبيل المشركين . كم روتك دماء ، وسالت على جنباتك شهادات الأحياء المرزقين . أعيدى لنا ما قاله الرسول يوم أحد ، وكيف صاح فى موتى من الذاهبين ؟ فكانوا أسمع إليه من الأحياء ، وإن سمعوا غير ناطقين . ثم حدثينا بما كان يوم حنين . حين أعجبتهم كثرتهم فلم تغن عنهم شيئا ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت فولوا مدبرين . فتلك عظة ـ أبلغ بها ـ ياليت قومى يسمعون ما العبرة بالكثرة ، والقلوب شتى ، وكل حزب بما لديهم فرحون . إن الخير فى الفئة وإن قلت ، إن كانت هى فى الصابرين

حدثى ياجبال ومن الصمت بيان للعارفين . وأشهدى ياتلال بمأثورات الصحابة الأولين وأروى ياحزون لليل وللناس أجمعين . . . هاهنا كانت خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، والعاقبة للمتقين . .

صاح صائح بالركب . مكة ! فانبعث الركب يدعو وسكت النـــاى

ليشترك فى الداعين ! فخرجت الفاتحة من القلوب إلى الألسن ، لتصعد إلى السماء . . دعوات مباركات للرسول عليه السلام ، وللخليل ابراهيم . . . انهم ليذكرون اذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم .. ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك . وأرنا منا سكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . . . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم .

فاستجاب لهم ربهم وبعث فيهم نبيا منهم ، وجاءهم رسول من أنفسهم ، عزيز عليه ماعنتوا ، حريص عليهم . بالمؤمنين رءوف رحيم .

أخذت الذكر تطرف بالركب ، فيصلّون على النبىّ الأمىّ . ويذكرون ماوصىّ به ابراهيم بنيه ويعقوب « يابنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون » .

فلم يعد صاحبنا يرى أمامه غير اثنين ، الخليل والحبيب !

فأخذ يدعو مع الخليل تارة . . رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر .

ثم يدعو مع الحبيب تارة أخرى . . ربنا (١) أغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلاّ للذين آمنوا . ربنا إنك رءوف رحيم . . . اللهّم إنى أعوذ بك من الجبن وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر . وأعوذ بك من فتنة الدنيا وأعوذ بك من عذاب

(١) هذا من أدعية الرسول عليه الصلاة والسلام واستعاذاته ، التى اوردها الغزالى فى إحيائه ج ١ ص ٢٩٠ .

القبر . اللهم إنى أعوذ بك من طبع يهدى إلى طمع . ومن طمع فى غير مطمع . ومن طمع حيث لا نطمع . اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع .

اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ! وهنا انتفض صاحبنا كما لو كان فى هاته العبارة ، سحر جعله يفيق .

لقد أخذ هذا الدعاء المأثور عن الرسول عليه السلام ، عن شيخه الغزالى ، فهو الذى علمه إياه ، فسرعان ماذكره ذلك الدعاء شيخه . وقد نساه بعض وقت . وتلفت قلبه عند هذه العبارة الأخيرة مما كان يدعو به - اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع - كما تلفت عندها يوما . . ليلة المسجد ببغداد !

وهل سعى الى مكة ، وعانى ماعانى فى الطريق ، ليتسنى له أن يقابل شيخه ، الا من أجل هذه العبارة ؟ ان هذه العبارة لتلاحقه دائما ، مقيما أو كان على سفر !

وهنا اختفت مكة برمالها وجبالها وتلالها وحزونها ، عن بصر صاحبنا وفكره ، وغاب عنه كل ما تحدثه به هذه الأشياء . فلم يعد أمام بصره غير صورة واحدة ، صورة الغزالى . ولم يعد بأذنيه هتاف حديث ، سوى مالكلام شيخه فى قلبه وأذنيه من صدى !

وانما بداله شيخه فى آخر صورة رآه فيها ، ولم يسمعه متحدثاً الآن الا بما كان يقوله وقتذاك . . . انها صورة الغزالى ليلة المسجد ببغداد . أبيض يستسقى الغمام بوجهه - فاستمع معه لما تقوله الصورة من حديث . . اللهم انى أعوذ بك من علم لا ينفع !

فتمتم دون أن يشعر . . الغزالى !

وقد شارك بندائه هذا ـ من فى الركب جميعاً ـ اذ هتف معهم ، وهو لا يقصد ولا يدرى ، بذلك الاسم المحبب !

لقد أبصر أهل الركب رجلا يدنو منهم ، عرفوه ، فهتفوا باسمه بينا كان صاحبنا فى أحلامه وتصوراته ، فما أبصر ولا شعر . ولكن انطقه الله الذى أنطق كل شىء صدفة وتوافقا ، بما نطق به غيره على علم . فلم يستغرب هتافه أحد ، اذ تلاشى فى أصوات الهاتفين . ولكن أفاق صاحبنا لنفسه ، لتأخذه الحيرة والدهشة بعد ذلك ، اذ يرى أن من نادى باسمه قد حضر ، كأنما كان مع الركب على موعد ينتظر . وكأن هتافه السحر .

إن أهل البصائر ، أرباب القلوب ، أولئك الذين ينظرون بنور الله ، يعرفون متى يحضرون ، ومتى يذهبون . ولكن صاحبنا لم يدهشه ذلك طويلا ولم يسأل فيه شيخه ، كما فعل ابن العربى حين لقيه فى البرية ، وسأله الإمام بما لم يحطه به بعد خبرا ، فأدهش ذلك ابن العربى ، وسأل إمامه أن ينبئه بتأويله ! لقد كان صاحبنا على درجة من العلم والمعرفة بقدر الغزالى ، تزيد على درجة أخيه فى الله حيال الشيخ !

أقبل من فى الركب على الإمام ، يسلمون عليه ، ويقبلون يديه ، متبركين بيد فوقها يد الله !

ثم رحل الركب وتخلف عنه واحد ، أخذ يد شيخه يقبلها ويمسحها بدموعه ، والإمام يدعو له .

ثم انطلق نور فى صحراء مكة يسرى صوب البيت ، وبجانبه شخص يستهدى طريقه ، ذلك النور !

انهما من تعرف !

الفصل السابع

— أيها الولد —

كان للغزالى بمكة مريد من أخلص مريديه ، له بيت بجوار الكعبة صغير . وكان مريده هذا ، كثيرا ما يسعى وراء إمامه فى البريه باحثا عنه وقد حمل له الزاد والماء ، فكان الغزالى يكرمه بأن يأخذ منه شيئا ، ليطيب نفسه ولا يرده خائباً . وان كان الإمام فى عزلته فى غير ما حاجة الى ما بأيدى الناس من زاد وماء !

كان ذلك البيت الصغير هو هدف الغزالى ليلته . قاد صاحبنا اليه ، ليجد فيه راحة بعد تعب ، وطعاما طيبا وماء عذبا ، ثم فراشا يقضى فيه سويعات قليله ، ليلقى شيخه بعدها اذا ما كان الصباح ، منشرح الصدر ، مرتوى العين ، وقد نال من الراحة قصده .

وكان الغزالى يعرف فى صاحبنا داء الترف . فصاحبنا وان صارت له فى التصوف شبه قدم ، بيد أنه ما كان يقوى بعد ، على ما يعيش عليه الصوفية من تقشف فى الحياة . خشن ملبسهم ، وحقر طعامهم ، وما على الصوفى من بأس ان توسد ليلته الحجر ! فكان فتانا صوفى النفس والروح ، غزالى الفكرة . لكنه لم يخشن ملبسه كما خشنوه ، ولم يحقر طعامه كما حقروه ، ولم يتوسد حجرا ليلته . كان مترفا ، نشأ فى بيئة مترفة ، ثم جاء الغزالى وضمه الى بيئته وجعله يعيش دائما فى جوه . لكنه لم يستطع حتى الآن ، وإن شئت فقل لم يرد ، أن ينسيه ترفه فى معاشه . فبقى مترف العيش ، ولكن

غير مترف الروح . شأن أمثاله ممّن يعرفون ألوان ترف الحياة ! فعرف كيف يحاسب نفسه دائما كما علّمه الغزالى ، وكفى بحساب النفس الدائب ، إشقاء لروح ، وإجهادا لعقل ، وتنغيصا لترف الجسد !

فلم يعتب عليه الغزالى ذلك ، ولم يسأله فيه شيئا . فبقى صاحبنا صوفيا مترفا ، إن صحّ هذا التعبير ! وللغزالى فى ذلك حكمة ! ومن يدرى ، فقد يجىء يوم ، لايرى فيه صاحبنا من بأس ، إن وقع بين يديه الطعام الجيد أو التافه ، لبس الثوب الخشن أو الفاخر ، نام على فراش تعوّده وثير أو رقد كما ينام أهل التصوف ! إنّ الغزالى ليسير بمريديه على مراحل ، ويصعد بهم سلمّ التصوف على درجات . فلا يرتقى بمريده درجة إلاّ بعد أن تثبت قدمه على الدرجة التى قبلها . فيتخطاها وإيّاه إلى مابعدها ، حتى يبلغ بمريده يوما « الدرجات العلى » . فالإرشاد عند الغزالى كالدواء ، لايعطيه إلاّ بقدر . ولايزيد نقطة تربو على حاجة ، أو ينقص قطرة مايكون عنها غناء . وصاحبنا ألميسر الغزالى معه على هذه الخطة ؟ لقد أخذه فى بحره ، ولكن لايسقيه إلاّ بقدر . وهاقد مرّت على صحبته الغزالى أعوام وأعوام . فكيف أصبح وكيف ؟ كان وهل صاحبنا اليوم هو صاحبنا قبل ستة أعوام ؟ وهل هو فى كل عام يمضى ، مثله فى العام الذى سبقه ؟

لقد صحب الغزالى مايربو على ستة أعوام ، مافارقه إلاّ القليل خلالها ، فإذا نظر إلى درجته الآن ، وجد نفسه عند الدرجة السادسة ، ولكن ماتكون الدرجة السادسة فى سلم التصوّف العلىّ الدرجات ؟ وأين درجته تلك من درجة الذين يقول فيهم المولى سبحانه « فأولئك لهم الدرجات العلى » ؟ ! ولكن هذه خير على أية حال من الدرجة الأولى التى خطا عليها منذ ستة أعوام ! . .

. . . لقد تغيرت نظرته فى الحياة ، وفى الناس ، حتى آماله فى الله أصبحت

وهو قائم مع الغزالى فى الدرجة السادسة ، غيرها عند ماكان لايزال معه لدى أولى الدرجات ! قد يقولون السنّ والتقدم فيها ، ولكن اسألوا من فى مثل سنّه . ماأفكارهم ؟ مانظرتهم فى الحياة ؟ ما آمالهم فى الله ؟ واسألوهم عن ذلك كلّه كيف كان لديهم قبل هذا بسنوات سنوات؟ ستجدون بالطبع تغيرا . ولكن قد تكون آمالا ، كانت أمس صغيرة ، وكبرت، لكن لتزداد فى الكبر ضلالا !

وقد يكون هو التغير بعينه ، أو آمال خلقت ولم تك من قبل شيئا ، خلقتها الأيام والليالى ، والليالى كما يقول شاعرها ـ حبالى يلدن كل عجيب!

حسنا ، تمشوا معهم ، لكن اعقدوا بعد ذلك المقارنة . فانظروا آمال صاحبنا الصوفى ، وأفكاره ، ونظرته للحياة ، وقارنوها بمثلها معمن فى مثل سنّه ، من يوم أن كانت بذرة فكبرت ، أو آمال وأفكار خلقت بنت ساعتها دون أن يكون لها من قبل وجود . . وعندئذ ستعرفون أن ليست السنّ وحدها هى التى غيرت من فكر صاحبنا فى الحياة ، وآماله فى الله ، وتقديره للناس ، وعرفانه لمعنى الحياة . بل ثمّ ماوراء السنّ وماوراء التحصيل ، وماوراء العلم الذى يأخذون فيه الاجازات العلمية . . . ذلك اسألوا عنه الغزالى ! فلن يجيبكم عنه سواه ! إنها الدرجة السادسة التى يقف عليها صاحبنا الان مع شيخه الإمام ، فيرى مالايراه الناس ، إلا من وقف معه مثل وقفته . ويسمع مالايسمعون من أسرار الحياة ، ويقدر مالايستطيعون تقديره إذ جعل الله « على قلوبهم أكنّة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا » إنّ منظارا وضعه على عينيه الغزالى ، قد جعله يبصر به « فى الآفاق وفى أنفسهم » أبعد من غيره مدى . فتبدو له على حقيقتها الأشياء ! . . .

فالناس أقزام أرادوا أن يطاولوا — هيهات — السماء ! لن يخرقوا الأرض ولن يبلغوا الجبال طولا . وليس هناك ماهو جدير بأن يسمى جاها . . . ذلك الذى يتسابق إليه الجاهلون الأغبياء . ويسعون فى سبيله (كالأنعام بل هم أضلّ) بشرف أو بغير شرف ! وليس الشرف وألقابه، ما اصطلح عليه الذين لا يبصرون بمثل منظار الغزالى ! فكل هذا الزبد لا يبدو أمام منظار الحقيقة إلاّ جفاء ! أما ماينفع الناس ويمكث فى الأرض، فوا أسفا.. إن أكثر الناس يرونه ولا يتبعونه (وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا) ليتهم كانوا ينظرون للحياة مثله بمنظار الغزالى ،إذا لرأوا الحياة على حقيقتها ، فإن ذا المنظار لا يرى صاحبه الاّ حقا . وصاحبنا كلمّا ازداد به بصراً ، كلمّا قربه الغزالى من عينه يوما فيوما ، تكشف له جديد آفاق ! ما كان عنه قبل من الغافلين . لم يعد يعكس له المنظار من المرئيات سوى شىء واحد ، يقرؤه بوضوح فى لوح الحياة ، وذلك اللوح الزاخر بكل ماحفلت به الدنيا وسارت به الحياة ، انه ليقرؤ بوضوح . .

ألا كل شىء ما خلا الله باطل

وكل نعيم لا محـــالة زائل !

حسب الغزالى هذا من صاحبنا ، فلم يشأ - كما رأيت - أن يغيره دفعة واحدة ، لذا تركه ينال من مطعم وملبس ومنام ، ما شاء له طبع المترفين.

ثم أليست البيئة بأقوى الحاكمين ؟

وهكذا لم يشأ الغزالى أن يغير من عادة صاحبنا فى حياته اليومية ، فاصطحبه الى ذلك البيت الصغير ليقضى فيه ليلته ، واجدا فيه ما شاء له طبعه من راحة وأمن !

بيد أنّ الغزالى لم يقض ليلته مع مريده ، فمنذ أن جاء الإمام مكة ، لم يظلّه فى ليلته سقف، ولم يأكل على مائدة ! إنّه يعيش فى البرّية على الكفاف — كما رأيت — بيده عكّازه ، وعلى عاتقه ركوته ، ثم لاشيء أكثر من هذا . وما قبل الإمام أن يخرج من عزلته حتى حين ، إلاّ إكراما لمريده الذى أتاه من مصر يسعى ، فابتدر لإجابته ، بعد الوقوف على صدق رغبته. فالفتى أثرة عند شيخه — كما علمت — ومن المقربين !

وقبل أن ينصرف الشيخ واعدفتاه على أن يكون اللقاء ضحى غد ، بالبيت العتيق . . .

صلّى صاحبنا صلاة الفجر ، ثم أخذته سنة من النوم ، فلم يستيقظ إلا وقد مرّت على الصبح سويعات . فقفز من فراشه وتناول القليل من ذلك الإفطار الشهى الذى قدمه إليه مضيفه الكريم . وأسرع إلى الكعبة ليجد الشيخ قد سبقه إليها ، وجلس فى انتظاره ...

يابنى — أهاب به الغزالى وقد استبّ بهما المجلس — ألق إلى سمعك إنّ لى حديثاً معك . . لقد شكوت إلىّ فى خطابك أشياء ، وسألتنى هل من دواء ؟ وإنى لمجيبك إلى ماسألت . أول ماشكوت لى منه ، هو العلّة لما تفرع عليه من شكاياتك . فإن وفقنى الله لأن أزيل أصل الداء من نفسك ، فلن تحتاج الى علاج ماتبقّى من شكاوى رحت تبثّنى اياها وأنت من الصادقين . لأنك ستجد جواب كل سؤال بنفسك ، وتعرف حلّه دونما استعانة بأحد ، بعد الله ، ولو كان من تلجأ اليه ، شيخك وإمامك ! فإنّ العين اذا زال ماران عليها ، فلن تحتاج فى الرؤيا الى مبصر ودليل . حسبك أن تنفتح عين بصيرتك على الضياء ، حتى تستبين الطريق بنفسك ، فتعرف ماذا تأخذ وماذا تذر « وما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا » واذ ذاك لن

تأخذ إلاّ حقا ؟ ولن تدع إلاّ باطلا . ستعرف كيف تنصف نفسك من نفسك ، وعندئذ ترضى ربك . ولا تكون لنفسك من الظالمين ، فإن الناس انفسهم يظلمون .

يابنى . أصل دائك هو جهلك - كما تقول - بالعلم الذى ينفع . فأنت تخشى أن تقضى عمرك أو حتى جزءا منه فى تحصيل شىء لاينفعك ، وإن حديث الرسول عليه السلام — وهو آخر ما حدثتكم به ببغداد — اللهم إنى أعوذ بك من علم لاينفع ، يلاحقك فى روحاتك وغدواتك ! فأنت تطلب منى ما يكون فيه شفاء لنفسك القلقه الراغبة فى الله ! حسنا يابنى . لقد أعددت لك دواء جعلته مكوناً من ثلاث وعشرين نقطة ، سأعطيكها تباعا ، حتى إذا انتهيت من تناولها ، لن تصبح بك حاجة إلىّ . إذ ستعلم يقينا بإذن الله ، ما العلم الذى ينفع . فإن استعذت يوما بعد هذا من ذلك العلم الذى لاينفع ، ذلك الذى استعاذ منه الرسول عليه السلام ، فستكون استعاذتك استعاذة العارفين الذين يشكرون الله على ما آتاهم ؛ ويكبرونه على ماهداهم . ففرق يابنى بين من لايعرف الشرّ فيقع فيه ، ومن يعرفه لتوقّيه كما يقول على رضى الله عنه .

وستكون بإذن الله (عارفا) ؛ تعلم كيف تتّقى ما أنت منه تستعيذ ! فلك علىّ ثلاثة وعشرون قطرة ، فيها بإذن الله لما شكوت شفاء . ولولا ما أتوسمه فيك من مخايل المعرفة وأتفرّسه فيك من سمات تعدّك لأن تحمل رسالتى يوما بإذن الله ، فتنشرها على الناس وتقول ؛ ذلك ممّا علمنيه الغزالى وما علّم الغزالى إلاّ ربه يابنى ، لما خرجت لك من عزلتى ، تلك العزلة التى عقدت العزم عليها بعد تروّ كما عرفت ممّا قصصت عليك بعضا من أطرافه !

وما أريد أن يتحدث الناس باسمى يابنى ، فقد تركت ذلك الجاه الزائف

والصيت الزائل ، إلى غيرى ممن صرف الله أبصارهم عن نورالحقيقة ، يتهافتون عليه بغير علم ، كما يتهافت الفراش على النار .

وبودّى لو ساروا بتعاليمى فاهتدوا ورشدوا ، وما تعليمى وماتوفيقى إلاّ بالله ، عليه توكلت واليه أنيب . فإذا تفرّست فيك يا بنى ما يؤهلك لأن تحمل رسالتى يوما ، فلست أعنى بذلك أنى أرغب فى خلود اسمى عن طريق فم يشيد به دائما ، بل عن طريق قلب يعمل ، بما هدانى اليه ربّى فعلّمته الناس ، فيكون من العالمين العاملين . فأنا أعدّك يا بنى لحمل رسالتى لا اسمى ، ألا أن الأسماء فانية ، والأجساد بالية ، ولا ينفع إلاّ الباقيات الصالحات ، وهى خير عند ربك ثوابا . ويومذاك ستبسم لك روحى وتباركك بإذن الله ، وسأسأل لك الله أن يجعلها ترعاك فى كل خطواتك المقبلة ، ما دمت لا تخطوا لغير الله خطوة ، ولا تفعل شيئاً « إلا إبتغاء وجه ربك الأعلى » ولسوف ترضى .

ولكن دعنى قبل ذلك أسائلك (١) « أيها الولد المحب العزيز أطال الله بقاءك بطاعته . وسلك بك سبيل أحبائه . إن منشور النصيحة يكتب من معدن الرسالة عليه السلام . فإن كان قد بلغك عنه نصيحة فأى حاجة لك فى نصيحتى ؟ وإن لم يبلغك فقل لى ماذا حصلت فى هذه السنين الماضية ؟ » .

... وهنا أخذت صاحبنا الحيرة والفكر ! ترى بماذا يجيب شيخه على ما سأله عنه ؟ الظاهر أنّ شيخه سيحاسبه حسابا عسيراً . لقد كان الامام لبقا حين تمشّى مع مريده فيما طلبه منه وأعلن اليه أنه سيجيبه إلى كل ماسأله عنه ، وأنه قد أعدّ له الدواء من ثلاث وعشرين نقطة ! بيد أنه راح يفاجئه قبل المضى معه فيما اعتزمه ، بذلك السؤال البسيط ! البسيط فى ظاهره فقط ،

---

(١) تمهيد رسالة أيها الولد لحجة الاسلام الغزالى

وإن كان قد حوى فى طيّاته كل شىء ! حوى فى طيّاته ما عناه أبو طالب المكى حين قال :

« (١) ما من فعلة وإن صغرت إلاّ وينشر لها ثلاثة دواوين . الديوان الأول لم ؟ والثانى كيف ؟ والثالث لمن ؟ فمعنى لم . أى لم فعلت وهذا موضع الابتلاء عن وصف الربوبية بحكم العبودية . أى أكان عليك أن تعمل لمولاك أم كان ذلك منك بهواك ؟ فإن سلم من هذا الديوان بأن كان يعمل كما أمر به ، سئل عن الديوان الثانى فقيل له كيف فعلت هذا ؟ وهو مكان المطالبة بالعلم وهو البلاء الثانى أى قد عملته، بأن كان عليك عمله ، فكيف عملته أبعلم أم بجهل فإن الله تعالى لا يقبل عملا إلاّ على طريقته وطريقة العلم ؟ فإن سلم من هذا نشر عليه الديوان الثالث فقيل لمن ؟ وهذا طريق التعبد بالإخلاص لوجه الربوبية وهو البلاء الثالث : وذلك بغية الله عز وجلّ من خلقه الذين قال فى حقهم إلاّ عبادك منهم المخلصين. وهذا مقتضى كلمة الاخلاص من نفى ما سواه وهى لا إله إلاّ الله وليس بعده إلا الاشفاق إلى وقت التلاق . أى قد عملته بعلم فلمن عملته ، لوجه الله عزّ وجل خالصا فأجرك عليه أم لشخص مثلك فخذ أجرك منه . أم عملته لتناول عاجل دنياك ،فقد وفينا اليك عملك فيها أم عملته لنفسك بسهوك وغفلتك فقد سقط أجرك وحبط عملك لذهابك عن القصد وعدم النية فى الفعل ؟ » .

إذا فالغزالى يعمل معه بقول المصطفى عليه السلام : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا . وليس حساب الغزالى بالشى اليسير . إنه الحساب فى الله فهو حساب القلوب — يا ويلتاه مما أضمرت — لا حساب ظواهر الأعمال! تلك التى تنال أصحابها بالحمد فى الدنيا، وما تكون عليهم فى الآخرة إلاّ حسرات!

---

(١) قوت القلوب لأبى طالب المكى ج ١ ص ١٢١ .

إن شيخه ليدرى عنه الكثير . فإنه ينظر بنور الله ، فهو لن يستطيع أن يروغ منه فى شىء ، أو يكذب عليه فى أمر . وهبه قدر ، فهل يستطيع أن يخدع الله ، فيكون من الذين « يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون » ؟ فثم الله ، وعبد آمؤمناً قد اصطفاه ، نوّر بصيرته وفتح عين فؤاده ، ثم جاءه يطالبه ، ذلك الذى يقرأ فى القلوب أشياء ، ويسأله أسئلة يعرف سلفا ، أكذب صاحبها فى جوابه أم أصاب ؟ إن الغزالى يسأله ماذا حصّل فى السنين الماضية — يسأله على ذلك الوجه الذى بيّنه لك أبو طالب — فبماذا يجيبه ؟ لا شك أن بيد الغزالى كتابا جمع فيه أعمال مريده ، ظاهرها وباطنها ، بإذن الله ، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فهو يقول له — قد أذن له الرحمن وقال صوابا — إن أراد المراوغة « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » أخذ صاحبنا يفكر وهو يرتعد من هذه الفكرة .. إن الغزالى يجول معه فى خاطره ، ويتحرك معه فيما تضمره حركات قلبه ، فهو يطّلع الآن ... على ماذا ؟ حيرته .. وذنوبه التى أخفاها عن أعين الناس وعلمها الله فسترها عليه ... وحقيقته ماذا تساوى عند الله ؟ .. وعلمه .. وعمله .. وإيمانه .. يارب رحماك !

وإذا بالغزالى يبتسم ويضع يده على كتف فتاه ويقرأ له قوله تعالى « أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين » .

أرأيت ! لقد صدق الفتى فيما ذهب ظنّه إليه .. وكان الغزالى يتمشى معه قارئا ما فى نفسه كما لو كان يقرأ فى كتاب مفتوح .

وإذ ذاك تصبّب صاحبنا عرقا ، وتصوّر ماذا يكون فى غد مع الله حاله ، فى ذلك اليوم الذى لا ريب فيه ؟ يوم تشهد الألسن ، وتتكلم الأرجل ، بما كانوا يعملون . فإن قال لجلده لم شهدت علىّ ؟ يقول أنطقنى الله الذى

أنطق كل شىء . ذلك يوم ينفع الصادقين صدقهم ، ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم . وهنا ردّد صاحبنا ذلك البيت الذى يرويه عن الخيام دائما

وإن خدعت الناس ماذا ترى
في خدع من يطوى ومن ينشر (١)

ربّ إن حساب يومذاك عسير ! أخذ صاحبنا يستعبر . . لقد خجل الآن من إنسان مثله . نعم هذا إنسان فى أسمى مراتب الإنسانية ، إذ هو ممّن ينظرون بنور الله ، ولكنّه ما خرج عن كونه إنسان ـ وإن كان عنده به مرضيا . وإنسان مثله يمشى على رجلين ، ويأكل ويموت ! ترى ماذا يكون مقدار خجله مع الله ، إذا ما أتاه فردا كما خلقه أول مرة ، ووقف خاشعا بين يديه لا ينطق ، ولا يؤذن له فيعتذر . . بل يقال له إن أراد الكلام . قف . مكانك : ذلك بما قدّمت يداك وما ربّك بظلام للعبيد ! أرهب بك ياذا الموقف وأعظم !

وهنا لم يجد صاحبنا له عزما . أراد أن يتكلّم مع إمامه ، فطغى عليه تصوره ، فغاب عنه القول ، وحارت المعانى بباله ، وقست عليه الذكرى فى خياله ، ثم خرج معنى حائر من هذه المعانى وجد سبيلا للخلاص ، فإذا هو يتوسّل إلى شيخه .. ياإمامى . لا تؤاخذنى بمـــا نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا .

فتبسّم اليه الشيخ ضاحكا من قوله . . يابنى ما أردّت إرهاقك ، ولكن خيرك أردت . قس على موقفك الآن منى ـ ولا مقارنة ـ موقفك غدا مع الله ، وبيدك كتاب ما فُرّط فيه من شىء . أرأيت يابنى كيف يكون شعور الإنسان بضعته وضآلته وتفاهة قدره وعظم ذنبه ، إذا ما علم أن عليه رقيبا ، لا يخفى عليه من شىء ، وقد جاءه هذا الرقيب يناقشه الحساب ؟! لو صاحبك

(١) رباعيات الخيام ترجمه الشاعر احمدرامى . ص ٣٥

هذا الشعور كل وقت ، لما عصيت الله أبداً ، ولخشيته فى قول ، وحذرته فى عمل . فلم تقل إلا الخيرا ، ولم تعمل غير صواب . ولعبدت الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تره فهو يراك ، ولقلت لنفسك دائما إن هى بالسوء حدثتك « أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم ».

وهنا سرّى عن صاحبنا قليلا وتنفس الصعداء ، وقال لإمامه .. قد وجدت الآن ياشيخى نفسى . فقد ظننت أنك ستحاسبنى على ماكان ، من يوم ابدأ الكرام الكاتبين فعلهم ، والرقيب العتيد حسابه . . ذاك حساب ما مضى من حياتى ، عدد سنين وليال ، وعدد مادق القلب فيهما من خفقات. لكن قد سكنت نفسى الآن ، وقرّت بوادى عفوك ، وإن كنت أشعر بثقل ما أعطيتنيه من درس « لعلهم يرجعون » وعبرة ، لأولى الألباب، وعظة ، تنفع المؤمنين ! إن فى ذلك لذكرى !

والآن أجيبك ياشيخى ، عما سألتنى عنه، بعدأن ضربت الصفح عن كثير، حسابه على الله ، وسأعلم كيف أصفّيه معه باذنه ، بالسير على ما ارتضاه. أليس من يعمل السوء بجهالة ، ولم يصرّ على ما فعل ، ثم يتوب إلى الله « يجد الله توابا رحيما » ؟ أجيبك يامن جعله الله رحمة لى . . ان رسول الله قدوتى وإمامى ؛ فلى بسيرته على الحياة اهتداء . فلا أدع إلاّ ماعنه نهى ، ولا آخذ إلاّ مابه جاء . لكن ربمّا قصر فهمى عن إدراك شىء به أمر ، أو قعد فكرى دون بلوغ حكمة الأنبياء . وربمّا أجهد بصرى أن يتطلّع إلى ذلك النور ، متلمّسا شعاعا من ذلك الضياء ! وقد أكون الظامىء إلى ورده لكن ، تعلو كأسه على أيدى الظماء . المنهل عذب ولكن، جهد المقلّ لا يطاول السماء. فيبقى العطاشى وما بهم ظمأ ، ليس له بغير العارفين ارتواء.

أولئك الذين سمّاهم الرسول ، ورثة الأنبياء . فجئتك يا إمامى من ظمئى أسعى ، فأنت الوريث رافع راية العلماء . علمك لله وللرسول ، ووزن مدادك ما يربقه الشهداء ولو طلبتُ عند غيرك حاجتى ، لما كان لى عنك بالعالمين غناء . ستزيد حيرتى ويظلم أمرى ، ويزيد ما أشكوه ولا شفاء . من مدع علما ليس يدرى ، أنّ فوق علمه علم السماء . ومن جاعل لغير الله علمه ، صرفه إلى الدنيا فأضرّ نفسه والآخرين أساء وأضلّه الله على علم ، وكم فى العلم من أدعياء . من يحرمه الله نفحته ، فهو الشقىّ بعلمه ومتلقيوه الأشقياء . إنى عذت بك يا إمامى من ضلة فى العلم ، اذا العلم بصاحبه أساء . ان ما عند الناس الزبد ، فى الذاهبين جفاء . وما عندك الحق ، والحق إربة العقلاء . جئتك بكأسى وقد فرغت ، فأترعها بالدين خمراً وصفاء ، وفض علىّ من المعانى ، وعلمنى كيف يكون فى الله الرجاء ! أنت يا من ذاق فعرف ، ان خبرتك بعض خبرة الانبياء . . سأبسط معك لله يدى وأدعو كما دعوت . . . «(١) اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه . وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه» . . . . . ربنا وتقبّل دعاء .

أرأيت يا شيخى . لقد أحسنتَ وأيم الله إذ ضربت صفحا عن سؤالك ما استفدته فى السنين الماضية - عفا الله عما سلف - أما عن موقفى وأخذى عن مبلغ الرسالة ، فكما علمت . . رسول الله قدوتى ، وأنت اليه وسيلتى ، فعلمنى مما علمك الله ، وخذ بيدى واسع بى نحو كأس الرسول ، هذه الكأس التى « لا لغو فيها ولا تأثيم » ، وأذقنى من قطراتها ، كما قلت لى ، ثلاثا وعشرين قطرة ، ستجدنى ان شاء الله من الصابرين . وبعد ألم يقل المولى سبحانه « فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » ؟

فأخذ الإمام برأس فتاه بين يديه وقبّله فى جبينه وقال . . يا بنى . سأنفذ

---

(١) منقذ من الضلال لحجة الاسلام الغزالى

لك ما وعدتك به من الغد اذا الله شاء . فاحضر الى هنا ضحى غد ، لأبدأ معك حديثى . . . وأسقيك أول قطرة .

سأله صاحبنا . وأين ستبيت ليلتك وألن يكون لقائى معك غير هذه المرّة الواحدة كل يوم ؟ فابتسم الغزالى وأجابه . . منذ وطئت قدماى أرض مكة ، فى غير البرية يا بنى لم أنم . وأما عن يومى وكيف أقضيه ، فلا تقف ماليس لك به علم ، وحسبك من لقائى كل يوم ،هذه المرة الواحدة ! فقبّل الفتى يد شيخه . ثم انطلقا . . !

الفصل الثامن

ــ فى هذه النصيحة كفاية لأهل العلم ــ

الغزالى

ولو أنى تركت سراح قلبى

لطار اليك من قفص الضلوع

ذاك حال صاحبنا وقد اتخّذ سبيله نحو البيت ليلقى شيخه وإمامه . بات ليلته وما غير الغزالى له على بال . فلما تنفّس الصبح صبر على مضض حتى كان الضحى . . فإذا هو جالس بجوار الغزالى فى خشوع ، وقد انتبذا من «البيت» مكانا قصيا . . فلما استبّ بهما المجلس ، وشعر الشيخ أن فؤاد مريده قد هوى يصغى اليه . ولم يعد صاحبنا غير عقل يعى ، وأذن تسمع ، وقلبّ يهفو ، ابتدأ الشيخ درسه :

«(١) أيها الولد . من جملة ما نصح به رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته قوله (علامة إعراض الله عن العبد اشتغاله بما لا يعنيه . وان امرأ ذهبت ساعة من عمره فى غير ماخلق له ، لجدير أن تطول عليه حسرته . ومن جاوز الاربعين ولم يغلب خيرّه شره فليتجهز الى النار) فى هذه النصيحة كفاية لاهل العلم » .

انها القطرة الاولى . أو النصيحة الأولى . أو الدرس الاول من دروس

---

(١) الفقرة الأولى من رسالة أيها الولد لحجة الاسلام الغزالى

الأمام الخالد . وان شأن هذه القطرة عجب ! انهـا لقصيرة كصلاة الصبح . وبصلاة الصبح القصيرة تفتح الخمس صلوات . وبهذه القطرة من النصح اليسيرة ، تنفتح الثلاث والعشرون نصيحة ، والتي ستأتى بعدها، فيما يجيء من أيام !

أجل هي قطرة . ولكن أيـة قطرة هى ؟ إنها من جملة ما نصح به رسول الله ﷺ أمته ! فهى بلغة الكلام : ما قل ودل . وهى بلغة الواقع : إن فى ذلك لذكرى . وفى الذكرى عبرة . وفى العبرة فكرة . وفى الفكرة تأمل . وفى التأمل . . . . سبح طويل ! فهى الاشارة لذوى البصائر والالباب . لاطول العبارة التى يقف عندها من لا يستطيع تجاوز حد ما تدل عليه العبارات والألفاظ !

أخذ صاحبنا يحلل هذه القطرة الصغيرة التى جاء له بها الغزالى ، فشمله التأمل والسبح الطويل . رأى فيها بحرا من المعانى ، ولم ير فيها ذلك الأفق المحدود الذى تنتهى عنده هذه الكلمات القصيرة ، عند من لا يستطيع أن يبصر لا كثر من ذلك . وكلما انتهى عند أفق من تفكيره ، تكشف له أفق سواه . حتى أصبح يرى فى تتابع هذه الآفاق ، تترى فى نفسه فصولا ، وتنفتح أمامه فى نفسه ، ما ذكره بقوله تعالى « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » وهكذا أخذت روحه تسبح فى هذه القطرة . . .

ما غاية المؤمن من حياته ؟ رضاء الله ولا شك وأن يختم الإنسان حياته وهو عند ربه مرضى . إذن فهدف الحياة هو ذلك الرضا . . . لكن كيف يحفظ المؤمن رضاء ربه عليه ؟ . . يعمل من الصالحات وهو مؤمن . ولكن أترى ذلك يكفى ؟ أليس يوجد كثيرون يعتقدون أنهم يعملون لله ولكن

ضلّ سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا »؟ فالعمل وحده لا يكفى إذن، ولكن تلزم النية. فان الأعمال بالنيات. ولكن ما شأن النية؟ أيقيسها الإنسان دائما بالمقياس الصحيح، فيعطيها حكمها على وجه اليقين. أم يدخل فى ذلك الحكم هواه، ورضاه عن نفسه حينا، وعن عمله حينا آخر. فيخفى عليه ما كان حريا به ألا يخفى عليه، فيرتفع بنفسه درجة، وكان الاولى به لو انخفض بها درجات؟ « إن نظن إلا ظنا ومانحن بمستيقنين » والله سبحانه يقول « انما يتقبّل الله من المتقين ». فالعمل إذن حتى يتقبله الله من عبده يجب فوق النية الخالصة لله فيه، أن يكون فاعله كما قال سبحانه، تقيا. فهل عرف إنسان قدر تقاته؟ وفى أى درجة من الأتقياء هو؟ قل لا يعلم ذلك الا ّخبير. فاسأل به خبيرا. وقد جاء هذا الخبير المصطفى من لدن الخبير العليم، يحذّر الناس ويقول أن هذه تذكرة «فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا » ثم بين علامة إعراض الله عن عبده، وأنها اشتغاله بما لا يعنيه. فالله سبحانه قد جعل علامة رضاه إذن عكس ذلك. فمن شاء أن يعرف أهو مرضى عند ربه أم لا؟ يبصر فى نفسه « وفى أنفسكم أفلا تبصرون »؟ ويرى مايفعله. فإن كان ممن يشتغلون بما لا يعنيهم، فذلك من علامة إعراض الله عنه. فإن كان ممن كتب الله لهم السلامة، أقلع عما سلف وتاب، ولم يعد يشتغل بغير ما يعنيه. فإن أفلح فى ذلك فقد نجا وأصبح عند ربه مرضيا، اذ جاءته علامة ذلك الرضاء! وان كان الله لم يشأ له الهداية، فماله من هاد، فسيركب هواه، ويصرف الله عن علامة رضائه بصره. نعوذ بالله أن نكون فى الهالكين...

فما كان أروعك أيها الإمام الخالد حين ابتدأت نصيحتك لفتاك، بلفت

نظره الى هذا الامر ، الذى هو قوام الحياة ، وغاية الآملين ، وهدف المؤمنين فهو نقطة البداية لطريق الخير والصلاح . وهو نقطة السعادة لدى النهاية ، لمن سار فى طريق الحياة ، حتى بلغ آخره ، وقد تجنب أبدا ، علامة إعراض الله عن عبده ! . . عرف صاحبنا لذلك الاستهلال قيمته ، فرأى أن مثل شيخه واياه ، كمثل عارف بالطريق ، ومسافر يريد قطع ذلك الطريق . فعلى المرشد (العارف) أن ينبه السائر السالك الى علامات الخطر التى يلقاها فى طريق سيره ، قبل أن يذكر له مافى الطريق من محاسن وطرائف . إذ مافائدة ذلك كله ، ان قدر له أن يقع فى حفرة يهلك فيها ، اذ هو بها من الجاهلين ؟ لن يفيده وقد تردّى ، بديع المناظر ، وخضرة الشجر . وعزف الماء ، وحلو الثمر . ماأغنى عنهم ما كانوا يمتعّون . لقد حيل بينهم وبين مايشتهون ! اللهم صراطك ، صراط الذين أنعمت عليهم (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) . ان هذه (العلامة) لهى أول ما يتزود به (السالك) فى الطريق . وما كان الغزالى لها نسيا !

وبعد ذلك . أليست

دقات قلب المرء قائلة له

ان الحياة دقائق وثوان ؟

فما شأن هذه الساعات التى يتكون منها عمر الانسان . أتراه عليها من المحاسبين ؟ أم ما بدا له فليفعل ؟

بل (ان امرأ ذهبت ساعة من عمره فى غير ما خلق له ، لجدير أن تطول عليها حسرته) .

فياويلتاه من حسرة طالت : يا أيتها الساعات الماضية فيماقضّيتك؟ وأغير الله فيك وجها قصدت ؟ عفوك يارب!

فليبحث الإنسان لم خلق ، ليعرف كيف يقضى ساعاته حتى لا تطول حسراته ! وألم يقل المولى سبحانه « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون »؟

إذا ما خلقنا الله عبثا ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، بل لنعبده ، ولنصطبر لعبادته . فما عبادة الإنس ؟ يقول سبحانه « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون . وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » .

تلك عبادة الإنس إذن : أن يعملوا لله صالحا ، والله بما يعملون خبير . فلو شاء الله أن يخلقنا لنعبده ، بالتسبيح وحده ، والصلاة ، وغيرها من فروض وعبادات ، لخلقنا ملائكة « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » ولكن جعل عبادتنا من نوع آخر ، هو العمل لوجهه الكريم . فما يعمل البشر ، وهل عملهم كعمل الملائكة من نوع واحد ؟ بل يختلفون أعمالا ، حتى تعمر الدنيا وتسير . فالطبيب يعمل ، والزارع يعمل والصانع يعمل ، والتاجر يعمل ، والعامل يعمل ، والعالم يعمل ، ورجل الدين مثلهم ينبغى أن يكون فى العاملين . فالكل وإن اختلفوا فى نوع العمل ، الذى يؤدونه ، يعملون « قل كل يعمل على شاكلته » . وهم إذ يختلفون فى العمل ، إنما يتفقون فى الغاية التى يقصدون . العمل لوجه واحد . وجه ربك ذى الجلال والإكرام !

ذلك ما خلق من أجله الأنسان ، يعبد الله فى عمله الذى ارتضاه له الله أيا كان نوع ذلك العمل . فإن ضاعت ساعة من عمره فى غير ما خلق له ، فهو الجدير بأن تطول عليها حسراته !

وهكذا أخذت هذه القطرة اليسيرة تنسع أمام صاحبنا آفاقا ، حتى رأى فيها ما رأى ، وهى بعد لم تنضب ! لقد أراد أن يقيس طول هذه القطرة العجيبة ، فإذا مسيرها أربعون سنة ... «ومن جاوز الأربعين ولم

يغلب خيره شره فليتجهز إلى النار »

بعد أن رسمت القطرة لصاحبنا الطريق، وعرّفته علامة الإعراض ليتّقيها ويكون محبوبا، وبعد أن ذكرته لم خلق؟ وكيف يعمل ويعبد الله فى عمله دون أن يضيع ساعة من عمره فى غير ما خلق له، وبعد أن سارت به فى شوط النصيحة أعمارا، حتى وصلت به إلى الأربعين، «سنّ البعث والرسالة لدى النبي صلوات الله وسلامه عليه، أخذت تترقرق حية وتهيب به أن من بلغ هذه السن « ولم يغلب خيره شرة فليتجهز إلى النار »

أرأيت؟! إن عمر هذه القطرة الأولى، أربعون سنة! يقرؤها الجاهل فى لحظات. ويمر بها (العارف) ليقف عند آفاقها مسيرة أربعين عام وعدد ما فى هاته السنين من ساعات ودقائق وثوان!

حقا. صدقت ياإمامى ... « فى هذه النصيحة كفاية لأهل العلم »

أخذ صاحبنا يردد - ولا يشعر - فى هذه النصيحة كفاية لأهل العلم. فلم يفق إلا على لمسة على كتفه رفيقه.. يابنى - أهاب به الغزالى - حقا فى هذه النصيحة كفاية لأهل العلم، ولكن لا ينتفع بها إلا « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » فاحذر أن يكون حظك منها، الاعجاب دون العمل. واحذر أن تحوى العلم والنصح، كما يحوى الإناء الماء.. فشر العلم مالا ينتفع به صاحبه!

فرب علم كثير ونصح وفير، ولكن القلب عنهما فى صمم! والآن سأتركك تحاسب نفسك على ما قدمت يداك.. وتعال القنى غدا إذا الله شاء. هاهنا يابنى إذا ما كان المساء. فلى معك كما قد علمت، كل يوم حديث.

الفصل التاسع

النصيحة سهلة والمشكل قبولها ... ومانفعنا إلا ركيعات ركعناها في جوف الليل
الغزالي الجنيد

حدثت أخت الشافعي - رضي الله عنه - بأن أخاها ربما قدموا له المصباح ليلة واحدة ثلاثين مرة قد تزيد أو تقل فكان يستلقي ويتذكر ثم ينادي «ياجارية هلمي مصباحا . فتقدمه ، ويكتب ما يكتب ثم يقول : أرفعيه ، فقيل لأحمد : ما أراد برد المصباح ؟ قال : الظلمة أجلى للقلب [١] »

والظاهر أن الغزالي - نصير الشافعي - قد عرف للشافعي حكمته في جلاء الظلمة للقلوب فسار مع مريده الفتى على حكمة للشافعي ارتضاها ! فقد عرفت موعده مع فتاه أمس كان ضحى ؛ واليوم ضرب له الليل موعدا . فسقاه أمس على ضوء مصباح الصبح أول جرعة من دواء حكمته - كما كان الشافعي يسكن إلى النور - ثم رد موعده عن المصباح ليجعله في ظلمة الليل - كما رفع الشافعي مصباحه - ليجد مريده في ظلمة الليل ، ماوجده الشافعي ، جلاء لقلبه وقد كان !

فمنذ أن فارق صاحبنا الغزالي يومهما الفائت ، وهو دائب التفكر والتأمل فيما تلقاه عن شيخه . وقد كانت له في مساء ذلك اليوم ؛ سبحات مع الليل طويلة ! وهاقد أتى عليه مساء اليوم التالي ، وهو أشد ما يكون إشراقا ونورا وكلما تأمل في الليل إذ يغذ السير ليلقى شيخه بالبيت العتيق ، أحس

---

(١) تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية للمرحوم الاستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق ص ٢٣٠ .

راحة فى هاته الظلمات التى بعضها فوق بعض . فليس مايشغل بصره عن التفكر ، وليس مايحجب الفكرة عن أن تبدو أمام عينية واضحة ، مرتسمة على صفحة الليل ، يكتب عبارتها بنور بصيرته ، وتنقط النجوم مايكتبه. انه ليسير وكل ماحوله هادىء ساكن ، ثم يصل ليجد شيخة فى انتظاره. حقا كم لظلمة الليل فى القلب من معان . أصاب الشافعى وصدق أحمد . ياليل لايدرى حكمتك الا الذائقون !

استلم صاحبنا يد شيخة يقبلها ، ثم جلس ينتظر .. الجرعة الثانية!

(١) : « أيها الولد . النصيحة سهلة والمشكل قبولها ، لأنها فى مذاق متبعى الهوى مرة . إذ المناهى محبوبة فى قلوبهم وعلى الخصوص لمن كان طالب العلم الرسمى ، ومشتغلا فى فضل النفس ومناقب الدنيا فإنه يحسب أن العلم المجرد له ستكون نجاته وخلاصه فيه ، وأنه مستغن عن العمل . وهذا اعتقاد الفلاسفة . سبحان الله العظيم . لايعلم هذا المغرور أنه حين حصل العلم إذا لم يعمل به تكون الحجة عليه آكد كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أشد الناس عذابا يوم القيامة ، عالم لاينفعه الله بعلمه ؟ وروى أن الجنيد قدس الله سره رؤى فى المنام بعد موته فقيل له ماالخبر يا أبا القاسم : قال طاحت تلك العبارات ، وفنيت تلك الأرشادات ومانفعنا الا ركيعات ركعناها فى جوف الليل».

نطق الغزالى قول الجنيد هذا ، وقد تمثل له معنى مايستشهد به، فإذا بكل معنى يخرج حيا من قلبه ليندفع على شفتيه ألفاظا ، فيها حرارة الحياة ، ونور الإيمان ، فتشعل قلب فتاه ، حتى ليكاد يضىء .. ثم نهض الشيخ بقامته المديدة وقد بلغ به «الحال» مداه ، ليضرب فى البرية ـ وقد واعد صاحبنا على لقائه مساء غد مكانهما ـ سار وكل ماحوله يردد ماقال ... طاحت تلك

« ١ » الفقرة الثانية من رسالة أيها الولد

العبارات ـ قالها الليل ـ .. وفنيت تلك الإشارات ـ حدثت بها النجوم ـ .. ومانفعنا إلاركيعات ركعناهافى جوف الليل ـ أعادها الليل على سمعه والنجوم شهود .. وحدّث « البيت » (١) بلسان الحال .. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام !.

أخذ صاحبنا وقد خلا بنفسه، يسترجع ماسمعه من شيخه . . لقد سقاه شيخه أمس ما فيه لأهل العلم كفاية ، فهى نصيحة من وعاها ، فقد أوتى خيرا كثيرا، ـ ترى أكان له فى ذلك الخير نصيبا؟ ومن عمل بها ، فقدغلب خيره شرّه ، وأصبح قريبا من رب العالمين ، عند ذى العرش مكين. ـ أتراه قد تعلق من ذلك بسبب ؟. ولكن النصيحة ـ كما يقول شيخه ـ سهلة ، والمشكل قبولها ـ لم (١) « لأنها فى مذاق متّبعى الهوى مرة .... » . وهنا أخذ صاحبنا يتحسس وقع هذه النصيحة فى مذاقه هو . أيجد لها مرارة فيكون من متبعى الهوى ؟ أم هى حلوة قد أحسّ حلاوتها ،فلايكون اتّبع الهوى ولا أمره بالفرط ؟ خيّل إليه ـ ومن الوهم رياء وتخييل ـ أن نفسه قد تفتّحت وتقبلت هذه النصيحة ، كما تتفتح الزهرة للطل !إذن يكون ، وحاله هذه ، فى الفائزين ! لكن ـ أخذته الحيرة والفكر ـ أتراه قد توهم شيئا ماله فى نفسه وجود ليرضى عنها ؟ أم كان فيما ذهب إليه من الصادقين؟ وسوس له الخناس «الذى يوسوس فى صدورالناس »لقد غرّك بالله الغرور. فياذا المغرور أفق . ماأنت ، وأنا لك ناصح أمين ، على شيء مما ظننت ! فلم يبرىء نفسه ـ قد لايكون شيطانه عليه كذوبا ـ فقد يكون أسلم كماأسلم شيطان عمر !! ـ ولم يتهمها كذلك ـ عساه أن يكون من المفلحين ـ لكن متبعى الهوى ـجاءه صوت شيخه.. «المناهى محبوبة فى قلوبهم وعلى الخصوص لمن

---

(١) أى البيت العتيق .

« ١ » يراجع نص الفقرة السابق

كان طالب العلم الرسمى ومشتغلا فى فضل النفس ومناقب الدنيا ! » . فجاءه الوسواس الخناس وعاد يسر فى أذنيه.. ألست تطلب العلم رسميا ، وتشتغل فى فضل النفس ومناقب الدنيا ؟ إن العلم المجرد ، نجاتك فيه والخلاص ، ومثلك عن العمل قد استغنى ! اللهم لا . قد كذب عليه شيطانه . وما كان اعتقاد الفلاسفة اعتقاده ، وماهو عن العمل بمستغنى . ولا خطر له ذلك يوما على بال.

ماالعلم المجرد عنده ، لاعند شيطانه ، لاشيء . هكذا علمه الغزالى . فكيف يكون خلاصه فى عدمه ونجاته فى « لاشيء » ؟! إنه ليعلم جيدا أنه

اذا لم يكن عون من الله للفتى

فأكثر مايجنى عليه اجتهاده .

فالعلم المجرد ، كالجسد وقد خلا من الروح . فأصبح لاخير فية ولا أمل . ليس فيه من جدوى ، ولاتحته بطائل . أما ماينفع ، فهو نور العلم ، وكما يقول الشافعى ، العلم نور . فالذى يؤتى هذا النور فقد فاز بعلمه وانتفع . ومن حرمه ، فقد أضله الله على علم . كما أضل من الفلاسفة كثيرين . أتاهم العلم وحرمهم نوره ، فخسروا بفقده كل شيء . ظنوا أنهم بعلمهم قادرون

فإذا هم فى وادى العجز يضربون « كالأنعام بل هم أضل » إلا إذا أردت أن تسمى هذه السفسطة ، كما سماها قوم ، فلسفة ، وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون . وإن فى ذلك لآية : فالله هو الذى يعطى وهو الذى يمنع . وهب الانسان العقل ، وبالعقل نتعلم . ولكنه لم يجعل ذلك العلم المجرد الذى واسطته العقل ، هو سبيل الهداية . بل إن الهدى هدى الله لا العقل . فلكم شقى ذو عقل بعقله . فالله يهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، ولو كان على علم ! أرأيت ؟ ! فليس العلم وحده ما نبغى — وما أوتينا من العلم إلا

قليلا وفوق كل ذى علم عليم — ولكن ما فى العلم من نور نقصد ونريد . ولكم صدق الشافعى وكيع (١) ؛ فنور الله لا يهدى لعاصى . العاصى ؟ إنه ذلك الذى لا يمتثل لله أمراً ، ولا يدع ما عنه نهى . فما فائدة العلم لمثل هذا ، وهل يفيد العلم المجرد صاحبه ؟ أيصحبه علمه القليل فى الدنيا ، وأيامها يسيره ، إن صلح له الحال يوما لم يصلح له فى آخر ، وإن صحّ يوما مرض فى غيره ، وقد يهلك الطبيب بالداء الذى كان يداويه ؟ أم ترى ذلك العلم المجرد سيصحبه فى آخرته ؟ أيدرى صاحب العلم المجرد ما مصيره ؟ أن يأتى الرحمن فرداً ، فتوفى نفسه ما عملت ، وهو لا يظلم . ذلك يوم على الخاطئين عسير . يوم يقول الكافر ياليتنى كنت ترابا . ذلك التراب الذى كان يزعم ، وهو العالم الجيولوجى ، أنه به من العالمين ! ياطالما فكّر وقدّر . فقتل كيف قدّر . ثم قتل كيف قدّر . ليته قدر قبل ذاك مصيره ، بين أيدى ملائكة غلاظ ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .. خذوه فاغلوه ، ثم الجحيم صلوّه ، وفى سلسلة سلكها سبعون ذراعا فاسلكوه .. ذق انك أنت العزيز الكريم . فما أصبرك على النار يا صاحب العلم المجرّد !

أليس يعلم صاحب العلم المجرد ، مافى الخمور من ضرر ، فينهى غيره عن شربها ، ولكنه يعيش مع الكئوس حياته ، غير واجد عنها عزاء ! فهل استفاد من علمه شيئاً ، ماذا أفاده العلم المجرد إذن ؟ أكل ما استفاده من معرفة ، هو اكتشافه فعل الخمور بالكبد ، ليفتت كبده بعد ذلك ، سليب عقل وفؤاد ؟ ! ثم ماذا يكون موقف هذا العالم من ربه غدا ، وقد أتى

(١) وكيع هو شيخ الشافعى — رضى الله عنهما — والذى ورد ذكره فى بيتى الشافعى المشهورين .

ما حرّم الله ، على علم بعلّة التحريم ! ..»(١) سبحان الله العظيم . لايعلم هذا المغرور أنه حين حصل العلم اذا لم يعمل به تكون الحجة عليه آكد كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أشدّ الناس عذابا يوم القيامة ، عالم لا ينفعه الله بعلمه ».

وهنا ازداد صاحبنا معرفة بفضل الغزالى عليه ، وتأديبه اياه . إنه لينصحه النصيحة التى لو عمل بها ؛ لم يضلّ بعدها أبداً . ثم يتسلسل معه فى النصح ، كما يتسلسل الماء ؛ وفى كل قطرة من نصحه ، غنى وشفاء ! .

إنه ليشعر بعد هاته القطرة الثانية من دواء جعله شيخه مكوّنا من ثلاث وعشرين نقطة ، بأنه قد سار فى طريق الهداية ، أشواطا بعيدة . وارتقى فى سماء المعرفة آخذا سبيله صوب .. الدرجات العلى ! ربما تكون نقطتان كهذين لا تقدمان غيره أو تؤخرانه ، لكن بالنسبة له هو .. لقد علّمه الغزالى كيف يتخطى حدود العبارات ، ويتجاوزها إلى حيث تسكت لغة الكلام ! فغيره قد يرى كلمة ؛ ولكنه يرى كتابا . وغيره يقرأ جملة ؛ وهو يقرأ كما قال تعالى .. رب قد أتيتنى من الملك وعلّمتنى من تأويل الأحاديث . وهو فى ذلك عامل بما علّمه شيخه ، اذ قال له يوما ، اذا أردت أن تأخذ القول من قائله(٢) (فلا تقف به حيث وقف به كلامه . فالمعانى أوسع من العبارات والصدور أفسح من الكتب والمؤلفات ؛ وأطمح بنظر قلبك فى كلامه إلى غاية ما يحتمل) .

(١) يراجع ما سبق من فقرة رسالة أيها الولد .
(٢) الاملاء على اشكالات الأحياء لحجة الاسلام الغزالى .

ذلك حال صاحبنا والقطرات ما عدت به بعد الثانية . ترى ماذا يكون في غد حاله ، اذا ما أتمها عليه إمامه ، ثلاثا وعشرين ؟ .

إنه لهاتف اذ ذاك — لا ريب — بما قاله الجنيد ... طاحت تلك العبارات ، وفنيت تلك الاشارات ، وما نفعنا الا ركيعات ركعناها في جوف الليل .. !

أليس يبغي العلم الذي ينفع صاحبه ؟

الفصل العاشر

... ادخلوا ياعبادى الجنة برحمتى ، واقتسموها بأعمالكم !

الحسن البصرى

أخذ الشيخ يد فتاه بين راحتيه ، فشعر الفتى ببرد الرحة يسرى خلال جسده. فكان إذ ينظر فى عيون إمامه ، كأنما تطالعه الحياة بأسرار بعيدة الأغوار! فسكنت نفسه الشابة ، وهدأت روحه الوثّابة ، تلك الروح التى استضاءت بأنوار المعرفة ، فطمحت ومالها فى غير الله طموح ، ولم تقصد غير وجهه من شيء . لقد أخذت نفس الغزالى تنساب فى نفسه ، وروحه تتوغل فى روحه ، وأثر حال القطب الجليل ، فى ذلك النجم الوليد ! قال له أهدأ ، فهدأ . واسكن فسكن . وأمره بالعلم فلبى ، وتفتّحت نفسه تسأل الشيخ المزيد . ثم أخذ يجذبه نحوه برفق ولين .. فارتقى من حال الى حال ، نشوان بغير سكر العناقيد . مازاغ بصره وما طغى ، ولا ضلّ فؤاده ممّا يرى ، إن القائد (عارف) ورشيد . فليس على تابعه من خوف ، أمن التابع والمتبوع . فثمّ من وراء ذلك كله .... رب بما يعملون محيط .

يابنى . . . أفاق الفتى وقد لامس النداء أذنه ، فألقى سمعه الى نداء كأنه يأتيه من بعيد ، انه ذلك الصوت الآتى من وراء النفس ، يثبت به الله الذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، حين يريدون وجهه ؛ ويسلكون طريقه . أن . . . أقبل ولا تخف انك من الآمنين .

يابنى . . . ناداه شيخه ، لثانى مرة ، حتى رجعت اليه نفسه ، وقد علت شفتى الغزالى بسمة كالنفحة العلوية . انه يدرك مابفتاه . لقد عرف أن

اللحظة التى يسق فيها مريده جرعته قد أزفت . وأن الجو قد تهيأ ، وأسعف الحال ، وانفتح قلب المريد ! فلم يضعها لحظة وانبعث يصيب بالنصح هدفا..

« أيها الولد (١) . لا تكن من الأعمال مفلسا . ولا من الأحوال خاليا وتيقن أن العلم المجرد لا يأخذ اليد : مثاله لو كان على رجل فى برية عشرة أسياف هندية مع أسلحة أخرى ، وكان الرجل شجاعا وأهل حرب ، فحل عليه أسد عظيم مهيب ، فما ظنك ؟ هل تدفع الأسلحة شره عنه بلا استعمالها وضربها ؟ — فمن المعلوم أنها لا تدفع الا بالتحريك والضرب . فكذا لو قرأ رجل مائة ألف مسألة علمية وتعلمها ولم يعمل بها لا تفيده الا بالعمل . ومثله أيضا لو كان لرجل حرارة ومرض صفراوى يكون علاجه بالسكنكبين والكشكاب فلا يحصل البرء الا باستعمالها .

لو كلت ألفى رطل خمر لم تكن
لتصير نشوانا اذا لم تشرب(٢)

ولو قرأت العلم مائة سنة وجمعت ألف كتاب لا تكون مستعدا لرحمة الله تعالى الا بالعمل (وأن ليس للإنسان الا ماسعى) (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا) (جزاء بما كانوا يكسبون) (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا خالدين فيها لا يبغون عنها حولا) (الا من تاب وآمن وعمل صالحا) وما تقول فى هذا الحديث (بنى الإسلام على خمس ؛ شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله

«١» الفقرة الثالثة من رسالة أيها الولد .

«٢» ترجم هذا البيت المرحوم الاستاذ الجليل محمد أمين الكردى النقشبندى .

واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع اليه سبيلا) ؟ والإيمان قول باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالأركان .

ودليل الأعمال أكثر من أن يحصى ؟ وان كان العبد يبلغ الجنة بفضل الله تعالى وكرمه ، ولكن بعد أن يستعد لطاعته وعبادته ، لأن رحمة الله قريب من المحسنين . ولو قيل أيضا يبلغ بمجرد الإيمان . قلنا نعم . لكن متى يبلغ ؟ وكم من عقبة كئود يقطعها الى أن يصل ؟ فأول تلك العقبات عقبة الإيمان ، وأنه أيسلم من سلب الإيمان أم لا — واذا وصل هل يكون خائبا مفلسا ؟ وقال الحسن البصرى ، يقول الله تعالى لعباده يوم القيامة : أدخلوا ياعبادى الجنة برحمتى ، واقتسموها بأعمالكم » .

ادخلوا ياعبادى الجنة برحمتى ، واقتسموها بأعمالكم ... الرحمة من الله ، والعمل من الإنسان . أخذ فؤاد صاحبنا يهفو نحو هذين . وقد فرغ الإمام من وعظه وما كاد صاحبنا يشعر بانتهائه منه . فلبث هذان المعنيان يتجاذبانه ، فتجد لهما دوياً فى أذنيه — شأن الحق حين يجرى على لسان أهل الحقيقة — وتصورا فى خياله ، وتعمقا فى وجدانه ، وارتقاء فى حاله ، وعذوبة فى تغيّر مقامه ، واهتزازاً فى كيانه ، وانبعاثا فى همته ، وتجددا فى نشاطه ، ثم توقدا فى روحه . . . هذا الروح الغلاب ! حقا ان الكلام ليؤثر فى النفس على قدر حال المتكلم . فإذا عرفت من يتكلم ؟ وما حاله ؟ فليس بك من حاجة الى دهشة أو حيرة . ما فى الأمر من عجب . . انه الغزالى !

الرحمة من الله ، والعمل من الإنسان .. سأل صاحبنا شيخه :

— فهل لك أن تدلنى يا إمامى ، على سبيلى نحو هذين ؟

— رحمة الله من المحسنين قريب .. فكن يابنى محسنا . والأعمال بالنيات ، فأخلص لله النوايا .

ـ فما الإحسان يا إمام ؟

ـ أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فهو يراك(١).... إنك إن فعلت ذلك يابنى ، وشاء الله لك الدرجات العلى ، فكنت ممن يعبدون الله كأنهم يرونه.

وعسير بلوغ هاتيك جدا   تلك عليا مراتب الأتقياء

والصديقين أيضا والشهداء والصالحين ، ومن سار سيرهم ، والتابعين لهم بإحسان ، فلن تضل أو يصبح أمرك فرطا . ستكون مع الله دائما تعبده وتخشاه بالغيب . فتستحى من الله ، حين لايستحى منه غيرك ، وتقول مع من قال :

مكانك من قلبي هو القلب كله

فليس لشيء فيه غـــيرك موضع

ومن يرى الله ، فلن يبصر بغير نوره ، سيجعل له الله نورا يمشى به فى الناس ، فيأمن حين يضل آخرون . ويرشد حين يرى غيره سبيل الرشد ولا يتخذه سبيلا . قد جعل آلهه هواه ، ومال ميلا عظيما . نسى الله فأنساه نفسه ، وتلك عاقبة الآخسرين أعمالا (ما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون). أما أنت ـ يابنى ـ فستكون من نور الله فى رحمة وأمان . ستعرف ربك طيبا لايقبل الاطيبا ، فترضى بحكمه ـ كشف لك الغيب فاخترت الواقع ـ ألست ترى بنور الله ؟ ولن تعمل الا أطيب الأعمال . وغيرك (يعبدالله على حرف فان أصابه خير اطمأن به ، وان أصابته فتنة انقلب على وجهه ؛

---

(١) هذا حديث شريف ورد فى معنى الإحسان . وقد أورده الشيخ رشيد رضا فى تفسيره لسورة يوسف عليه السلام . المؤلف .

خسر الدنيا والاخرة ، ذلك هو الخسران المبين) فتصبح ترى اذ ذاك فى حكم الله ومقدوره ، مظهر من مظاهر طيبته ، ورحمته الواسعة على عباده حين يسخط ذلك الحكم آخرون (ما قدروا الله حق قدره) فأرادوا غير ما أراد ، وحكموا بما لايعلمون (ساء ما يحكمون) ولو كشف لهم الغيب لقالوا حسبنا الله انّا الى الله راغبون . ستكون يابنى فى نعيم الرضا مقيما بجنة لاتبصرها أعين الغافلين (فانها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) . وعلى قلوبهم أكنة ، وفى آذانهم وقر (وان تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا اذا أبدا) . ان من يرى الله دائما ، لايرى فى الكون غير آياته

وفى كل شىء له آية

تدل على أنه واحـــد

فلا يعمل شيئا لغير وجهه الواحد ، ومن يعمل لوجه واحد ، يكفه الله الوجوه كلها . وهل لإنسان بعد ذلك من أرب ؟ ...

إن كفاك الله الوجوه كلها ، ولم يكن لك من دنياك غير ذلك لكان ذلك حسبك إذ تكون مع الذى أنعم الله عاية بقوله سبحانه « فسيكفيكهم الله السميع العليم . ألم يجعل الله هذه إحدى صفاته ، فقال بأنه سبحانه « غنىّ عن العالمين » ؟ فإن منّ الله عليك بصفة كتلك قد ارتضاها لنفسه ، فمالك ورتب الناس بعدها ، عظموا أو قلوا ، رتبة واقدارا ؟ من شرف الله وهو قدره ، فلن يضع من قدر هذا الشرّف مخلوق . أما الشرّف الذى جعله البشر بأيديهم ، رتبا يمحونها تارة أو يمنعون . يمنّون بها إن رضوا ، وان سخطوا يسلبون ، فقد كرم الله وجهك ، إذا لم تلقه بمثل هذا الشرف . وعظم قدرك

بما تفرد به وحده من صفات . ثم سعادة الروح يابنى بالمشاهدة الدائمة لمن ليس كمثله شىء وهو السميع البصير . والتأمل فى ذلك الوجه الذى هو نور السموات والأرض ! تأملا بالمعنى ، ونورا فى خيال العابدين . وجمالا فى حس من رأى ، وجلالا فى تصور العابدين . وحلاوة فى قلب من ذاق ونعمة فى صدور العارفين . وسل يابنى قلب عمر ، فقد رأى ربه ، واعرف بعد ذلك لم كان عمر فى الصديقيين . إن من عرف الحق يعز عليه أن يراه مهضوما (١) .وهو إذ يصونه انما ، يكتب عند ربه فى عليين . مع الذين أنعم الله عليهم . وحسن أولئك رفيقا .

تلك درجة يابنى عاليا ، فاطلب الأخرى ان لم تستطع الآن هذه . وقد مبلغها يوما ان ثابرت ـ فاعبد الله على أنه يراك . فإذا ما خلوت الدهر يوما كما يخلو غيرك من الناس ،فلا تقل مثلهم خلوت ؛ بل قل على رقيب . أقرب الى من حبل الوريد» لا تأخذه سنة ولا نوم » ولدى كرام كاتبون ، حفظه شاهدون « مايلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد » أحصوه كتابا وماربك بظلام للعبيد .فكيف اذاوفيت كل نفس ماعملت ، وجاءت معها سائق وشهيد، وقيل .. هذه أعمالكم ردت اليكم وأنتم لا تظلمون .

هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق انا كنا نستنسخ ما كنتم تعمــــلون . حدث يابنى بهذا نفسك ، وقل لها .. اتق يوما يجعل الوالدان شيئا . يوم تقول نفسى ياحسرتا على ما فرطت فى جنب الله ! تصور هذا كله يابنى . انك ان فعلت ذلك فلن ترى يدك تمد الا بخير ولن ينطق لسانك إلا بمعروف، ولن تسير لغير الله خطوة قدماك . فإن حدثتك نفسك يومابسوء ، وسول لك الذى « يوسوس فى صدور الناس » أمرا ، كفاك حتى تفىء لأمر الله ، أن تذكر اذ ذاك .. أن الله على كل شىء شهيد . فتخشاه فتسلم ، وان الذين يخشون

---

(١) عبارة خالدة للشيخ محمد عبده رحمه الله رحمة واسعة

ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير . وتلك هى الخشية يابنى ، تردك عن الاثم قبل فعله ، وتذكّرك ربك اذا نسيت .

يابنى. لو عمل الناس كلهم بهذا ، فعبدوا الله على أنه يراهم — ونخفف عنهم ولا نطالبهم بالدرجة الاخرى العالية أن يعبدوا الله كأنهم يرونه — لما أثم من أثم ، أو زلّ من زلّ . ولما وجدت شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا . ولأصبح الناس كالملائكة، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . ما أتاهم الرسول يأخذون وما نهاهم عنه ينتهون . وهم عن عبادته لا يستكبرون . لا تأخذهم بإثم عزّة ، ولا هم يقولون. . . هكذا وجدنا أباءنا الاولين ! قل أو لو كانوا لا يعقلون ؟! فإنّ من يرى الله حقا ، أو يعتقد ، بقلبه لا بلسانه ، انه يراه ، فلن يخالفه ولن يعصاه ، وان ادعىّ عكس ذلك المبطلون . اولئك الذين (يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم والله اعلم بما يكتمون) . ان العبدّ حين يأثم ، لا يكون له الله لحظته على بال . يقول المصطفى عليه السلام : لا يزنى احدكم حيث يزنى وهو مؤمن .وهو ان ذكره بعد ذلك . فأنّا لهم الذكرى ، انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ، ولم يصرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون .

أدريت الآن يابنى معنى الاحسان ؟ ان ابصرت ذلك فقد عرفت كيف تكون رحمة الله قريب من المحسنين. هذه الرحمة التى يدخل بها جنته ، عباده المحسنون ! فكن واحدا فى هؤلاء يا بنى ان استطعت ، واجعلنا نراك فى المحسنين، أكن لك بالجنة زعيما ، فإن وعد الله حق ، لا يخلف الله وعده ، انهّ كان صادق الوعد مأتيا. فلقد قال وقوله الحق (اناّ كذلك نجزى المحسنين) !

ثم تسألنى بعد ذلك — يابنى — كيف تنال فى الجنة درجتك، كما روى البصرى عن رب العالمين . .

ادخلوا يا عبادى الجنة برحمتى ، واقتسموها بأعمالكم ؟ صدق الحسن (وأن ليس للانسان إلا ما سعى) وهل تجزون إلا ما كنتم تعملون ؟

لقد قلت لك يابنى أن الرسول عليه السلام قال : إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى . فذلك ما أريده منك ؛ فإنك إن جعلت ما نطق به الرسول عليه السلام قدوتك وعبرتك التى لا تغيب عن عينيك ، كنت من الفائزين الذين يعملون ما يرضى الله ورسوله . والحق يابنى أن ذلك الحديث الشريف الذى جعل لب العمل نيته ، لهو الصراط المستقيم ، الذى يوصل إلى رب العالمين . فالله سبحانه يقول (إنما يتقبل الله من المتقين) . وإنما التقى من لا يفعل لغير وجه الله شيئا ، فهو يتقيه فيما يفعل ويقول . فإذا خلصت نية المرء فى الفعل والقول ، فذلك هو العمل الصالح . يثاب صاحبه عليه ، أخطأ أم أصاب . وفى ذلك يقول المصطفى عليه السلام للمجتهد أجر حين يخطىء ، وأجران حين يصيب . فالمجتهد اذ يقول أو يفعل ، انما يحاسبه الله على نيته قبل أن يكون حسابه على ما أصابه من توفيق أو أحرزه من نجاح . فثواب العمل فى النية كما ترى يابنى . والنية لا يراعيها إلا المتقون ، وأولئك يتقبل الله منهم أخطئوا أم أصابوا . ثم انظر الحكمة يابنى كيف توحدت وظهر ارتباطها ، بين ما رواه البصرى عن المولى سبحانه :

ادخلوا يا عبادى الجنة برحمتى ، واقتسموها بأعمالكم . وبين ما يقوله سبحانه (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) . فالله جل شأنه . جعل رحمته وأنه مع الذين اتقوا . وقد عرفت — على ما بينته لك — من

هم المتقون . وكيف يعملون ويكون حسابهم بالنية ، وكيف يكون للمجاهد منهم أجر حين يخطىء وأجران حين يصيب ؟ فمن ذلك فافهم كيف يقتسم المتقون الجنة بأعمالهم ، ويكون لكلٍّ درجات ممّا عملوا ، تنوفّ إليهم وهم لا يُظلمون !.

ثم انظر كيف جعل الله رحمته ، وأنه مع الذين هم محسنون ، فى بقيّة الآيةالشريفة. وقد عرّفتُك فيما سبق ماهو الإحسان؟ ومن هم المحسنون ؟ ومن ذلك فاعرف كيف يدخل المحسنون الجنة برحمة الله ، التى هى قريب من المحسنين ! .

إنك أن تفعل ذلك يا بنى فقد تحريت رشداً فما بدا لك بعد ذلك فافعل . . . ولا تخف إنك من الآمنين . سترى العلم إن طلبته لغير الله ، يأبى ألاّ أن يكون لله(١) ! وسترى آية ذلك فى نفسك ، إذ لا ترضى عن نفسك حتى تكون بماعلمتَ من العاملين ! وأتذكر يا بنى كيف شكوتَ إلىّ فى رسالتك ، حيرتك وتردّدك فى طلب العلم الذى ينفع صاحبه . أىّ علم تطلب، وأى سبيل فى المعرفة تختار ؟ وإن جرعة اليوم يابنى ، لهى لما شكوت دواء : أبصر ما فيها وذقه ، يكن لك ما أردتَ من شفاء !

أطلب العلم يا بنى ؛ ولو بالصين ، كما روى عن الرسول عليه السلام ؛ أياّ كان ذلك العلم الذى تطلبه ، فهو نافعك ، ما دمتَ جاعلا فيه لله نيّتك . واستعد على أذنيك دائما ، صورة ما حدّثتك به فى تفسير معنى الاحسان والنوايا فى الأعمال ! انك أن فعلت ذلك ،فلن توسوس لك نفسك بما كانت

---

(١) عبارة خالدة للإمام الغزالى ـ رضى الله عنه ـ وهى .. أردنا أن نطلب العلم لغير الله ، فأبى العلم إلا أن يكون لله .

توسوس لك به ، وستقول : اللهم انى أعوذ بك من علم لا ينفع . ولكن تقولها هذه المرة — لا كما قلتها من قبل — بل دعاء من بعد ما تبين لك الحق — كما كان يدعو بها من قبل الرسول عليه السلام بعلم . وقد كنت إذ تردّدها من قبل ، حائراً يطلب هدى ، وعاجزاً لا يرى سبيل الراشدين !

يا بنى . إنك إن صرت تقياً محسناً — على ما عرفت من معنيهما — لردّك الطبع بنفسه عن أن تطلب من العلم مالا ينفعك فإن (الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم) وعلى ذلك لن تكون بك حاجة لأن تسأل شيخك ، ما يضرك وما ينفعك ؟ ! انّ من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا .

وليكن لك فىّ يا بنى أسوة ، فقد طلبت أنواعا من العلوم ، نهيتُ عنها غيرى ، فلم أكن لأدعو الناس الى ماأخالفهم فيه . بل عرفت الشّر لا للشّر لكن لتوقّيه . درستُ الفلسفة ولكن ما جعلتها هدفى ، بل أخذتها بحكمة وقدْر . وكانت نيتى فيها لله .

فرددتُ على الفلاسفة ما يزعمون . وكلتُ لهم بالكيل الذى به يكيلون، وذلك عملا بقوله تعالى (فعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغاً) . ولولا ذلك لسخروا منّ وقالوا ، جاهلا يناقش بغير علم ولاهدى . واذن لرفضوا قول من لا يساويهم فى علمهم « (١) فإنه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى يساوى أعلمهم فى أصل العلم ثم يزيد عليه ، ويجاوز درجته فيطلع على مالم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائلة » . وعلى ذلك ترى يا بنى أن العلم الواحد قد يكون ضاراً . بإنسان

---

(١) منقذ من الضلال لحجة الاسلام الغزالى ص ٩٠ .

ونافعا لآخر . وانّما العبرة فى الأعمال بالنوايا كما ترى ! فقوم درسوا الفلسفة فجحدوا الله ، وآخرون خبروها فاستدلوا بها على ماجحده هؤلاء ! فليستعذ الأولون بالله منها ، وليحمده عليها الآخرون . فانظر فى نفسك يا بنى فى أى واحد من هؤلاء أنت « (١) فإن أدوية الشفاء تختلف باختلاف الداء وكم من دواء ينتفع به مريض ويستضّر به آخر » . ولن تعرف ذلك حتى تكون تقيا محسناً . ضالتك الحكمة ، ورائدك وجهه سبحانه !

ان وفقّك الله لهذا يا بنى فلن تطلب منى ما سألتنيه فى رسالتك . . . . « أين ما ينفع . وكيف أنفع . أى شيخى وامامى (٢) » .

والآن يا بنى هل عرفت السبيل ؟ .

— أجل يا إمامى ، ولكن ينقصنى شىء ! .

— وما هو ؟

— دعوة تدعو لى بها صالحة ، من دعوات لك طيّبات . فاسأل الله يا شيخى أن يجعلنى ممنّ سمع القول فاتّبع أحسنه . ولا يجعلَ قلبى غلفا ممّا تدّعوننى اليه . أسأله لى أن أكون ممنّ عرف فوعى ، انّا نراك من المحسنين !

— جعلك الله يا بنى (٣) « ممن آثره واجتباه . وأرشده الى الحق وهداه

«١» منقذ من الضلال . للغزالى

«٢» يراجع ما سبق فى الفصل الثانى من هذا الكتاب

«٣» منقذ من الضلال . للغزالى

وألهمه ذكره حتى لا ينساه . وعصمه من شر نفسه حتى لا يؤثر عليه سواه واستخلصه لنفسه حتى لا يعبد الا إياه ، » ربنا وتقبل دعاء . . .

تخيّل إلى صاحبنا أن السماء تؤمّن على دعاء شيخه وجاءه هاتف فى أذنيه ... « فاستجاب لهم ربهم » .

.. ثم واعد الغزالى صاحبنا، على أن يلقاه غداً مكانهما، اذا ما كان المساء. فانطلقا ....

الفصل الحادى عشر

... أيها الولد . مالم تعمل لم تجد الأجر ...

الغـــزالى

أدّى صاحبنا فريضة المغرب ، وأقام بالبيت العتيق ينتظر شيخه ، وفى نفسه أمر ذو بال . لبث يتفكّر فيه حائراً ، ولا يصل له إلى تعليل .. لقد رأى شيئاً عجباً ، إذ هو قائم يصلّى « بالبيت » .. أنكره أولا وظنّ أنه تخيلات ، صوّر له الوهم أشياء واخترع . لكن عاد فلم يستطع إنكار ما يرى ، بعد أن أطال النظر ، ودقّق الفحص ، فتيقّن أن ما يراه حقيقة واقعة ، لا مجرد وهم أو خيال !

ترى ماذا رأى وفيم حار ؟

... أسرع صاحبنا يستقبل شيخه ، واستلم يده يقبّلها ، ثم انبعث يحدّثه بما رأى ، وما كاد يطمئن بهما بعد المجلس !

— أى شيخى وإماى ... هتف صاحبنا . لقد رأيتُ اليوم منظراً عجباً ! كذّبت نفسى فيما رأيت ، وقلتُ عساها خطرة فى النفس عبرت . قد أخرجها الوهم للعين فظهرت . فإذا أنا مسحور يخيّل لى ! لكن عرفت أن ما بى سحر ولا جنّة . إذ اختبرتُ نفسى فوجدتنى يقظان ، ما أخذ منّى الكرى بمعاقد أجفان . ثم أخذتُ أتلو فى كتاب الله ، وكلما مضيتُ فى التلاوة ، إزداد وضوحا ما أراه .. إذن ليس ما بى السحر ! كنتُ قابعاً فى

مجلسنا هذا يا شيخى ، وقد انتهيت من آداء الفريضة، وأخذتُ أنظر صوب الكعبة ، وتأخذ نظرتى فى السماء سبلا ... ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك ! تخيّل إلى أننى أرى نوراً .. قويا أخّاذا ؛ يصعد من الكعبة صوب السماء ! تأملتُ فى ذلك النور وقلت عسى مابى الوهم ! كنتُ جالسا فوقفت — ما كنت نائما إذن — فبقى النور وما اختفى. فعدت ثانية وجلست، عسى أن تطرد الحركة مابى إن كان مابى الوهم والغفوة .. لكنّى ما كنتُ غافيا . وأشهد لقد بقى هذا النور كما هو ، ينبعث من البيت صوب السماء، عاليا زاهيا ! عمود من نور ؛ زاهى اللون ، حلو الشعاع . صاف كضياء القمر . يكاد زيته يضىء ولو تمسسه نار ، هو نور على نور !

فما ذلك النور يا إمامى ؛ وأحقًا هو . أم ذاك تخيّل نزل من نفسى منزلة الحقيقة ؟ .

— بل ما رأيته الحق يا بنى — أجابه الغزالى — إنّه نور الله فى بيته وما ذلك على الله بعزيز . فذاك النور الذى شاهدته يصعد من الكعبة صوب السماء ، يراه مثلك كثيرون ؛ وقت الصفاء ! وسل حجاج بيت الله عن ذلك، يشهدون(١) ! وإنى لأنصحك يا بنى بأنك إذا مارأيتَ هذا النور ثانية ، فكبّر لله وأخذ فى دعائه بما تحب ؛ عسى أن تكون هذه لحظة إستجابة منه وقبول !

---

(١) رويت ذلك لأنى سمعت كثيراً من حجاج بيت الله الثقاة . يقولون انهم رأو ذلك النور الذى ينبعث من الكعبة صوب السماء ؛ بعد الغروب . وتكاد تبلغ هذه الرواية حد التواتر بين العدول الشاهدين . وليس ذلك على الله بمستغرب ؛ أليست الكعبة . بيته العتيق ؛ أ فكثير على بيت الله ؛ أن يضىء من نوره بشعاع !! المؤلف

— لك علىّ هذا يا شيخى .. هتف صاحبنا .. وقد ناله إستعبار ؛ حتى كادت تسيل عيناه . ان من ذاق عرف !

— والآن اسمع يا بنى ؛ قال الغزالى لفتاه ، وقد أخذ يربّت على كتفه بلطف ..

« أيها الولد [1] . مالم تعمل لم تجد الأجر — حكى أن رجلا من بنى اسرائيل عبد الله تعالى سبعين سنة فأراد الله تعالى أن يجلوه على الملائكة ، فأرسل الله إليه ملكا يخبره أنه مع تلك العبادة لايليق به دخول الجنة . فلما بلّغه قال العابد : نحن خلقنا للعبادة فينبغى لنا أن نعبده . فلما رجع الملك قال إلهى أنت أعلم بما قال . فقال الله تعالى إذا هو لم يعرض عن عبادتنا فنحن مع الكرم لانعرض عنه . اشهدوا ياملائكتى أنى قد غفرت له .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا) وقال على رضى الله عنه : من ظنّ أنه بدون الجهد يصل فهو متمنن . ومن ظنّ أنه ببذل الجهد يصل فهو مستغن ،وقال الحسن رحمه الله تعالى (طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب) وقال : علامة الحقيقة ترك ملاحظة العمل لاترك العمل ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من اتّبع هواه وتمنّى على الله تعالى الأمانى » .

... لقد عرف ما يقصده شيخه من هاذه الجرعة . إنّه يدعوه للعمل . ما لم تعمل لم تجد الأجر .. فهو أحوج ما يكون إلى عمل يزكّى به علما أصبح

«١» الفقرة الرابعة من رسالة أيها الولد للغزالى .

يملأ صدره ، والعمل زكاة العلم ! وهو حتى اليوم ما عمل بعد تماما بما علم ! ربما لم تخل صحيفته من عمل ، ولكنه دون ما يعلم بكثير، ودون ما يتمناه لنفسه ، إذ اتخذ مع الله سبيلا . فهو عمل المقلّين، فأحرى به أن يستحى من الله إذن . وما فائدة علم لم ينتفع به صاحبه ؟

فكل علم — وإن جلّ — مادام لم يعمل به صاحبه فهو والجهل سواء. إنما يعتبر المرء عالما فى ذلك الجزء فقط الذى نفّذه من علمه وأخرجه إلى حيّز العمل به . أما ما اختزنه فى رأسه ، فما لذلك يطلب العلم . فإن العلم كالمال ، وكما أنه ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت عند الله جزاءك . فكذلك ليس لك من علمك إلا ما أخرجته فانتفعت به إذ تكون به من العاملين ! أمّا الذين يكنزون الذهب والفضة فبشّرهم بعذاب أليم . وكذا الذين يبخلون على أنفسهم وعلى الناس بما أتاهم الله من فضله ، ومن نور العلم ، فسطيّوقون ما بخلوا به يوم القيامة . لقد فاز من كان عمله أكثر من علمه ، وضلّ من رجح علمه عمله . فإنّ الثانى تاجر يختزن العلم ويتخذه غاية ، والأول يتخذ علمه وسيلة تمكنه من العمل والله سبحانه يقول «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم » ولم يقل ... تعلّموا فسيرى الله علمكم . ولما كان العمل لا يكون بغير علم (فاسألوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون) . فقد دلّ ذلك على أن المراد بطلب العلم الذى هو فريضة على كل مسلم ومسلمة كما يقول الرسول عليه السلام ، إنما هو العمل ، الذى نطقت به الآية الشريفة .

صدقت يا إمامى ... مالم تعمل لم تجد الأجر !

فياوياتاه ممّا تعلّمت ! إنّ علمى ليشهد علىّ لا لى ، اذا ما وضعت الموازين القسط ! ترى بماذا أجيب الله حين يسألنى معاتبا « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون » ؟ .

وعندئذ ستشهد علىّ جوارحى ... لقد تحدّثتَ بالعلم الذى عرفت ، وقلتَ فى العلم أشياء ، ما عملتَ بما قلتَ منها غير قليل . فما قولى والملائكة تقول... ألم يأتكم نذير . أن (كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالاتفعلون)؟ فياليت علما أجده يومذاك فى ميزانى ، ينقلب الى كفّة الأعمال ، فتثقل موازينى (فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون) .

وليت علما مجردا يخفّف من موازينى ، يكون بينى وبينه أمدا بعيدا . فإنّ من خفّت موازينه (فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون) قد ضلّ عنهم ما كانوا يفترون . فيا من كان يملأ الدنيا علما . قف تكلم . كيف من النار الخلاص ؟ أوَ منقذك علمك ، أم رأيته عليك حسرات ؟ علمك ما كان فى الدنيا غير قدر يسير . ما أُوتيت من العلم غير قليل . باهيت به فانخدع بك الجاهلون . واليوم هاهم منك يتبرءون . أدعهم عساهم لك يستجيبون . وسدى تدعوهم . لقد علمت . ماهؤلاء ينطقون . إلاّ من أذن له الرحمن وقال صوابا . وقليل ماهم . وأولئك عنها مبعدون ، لايمسهم لغب ، ولا هم فى العذاب محضرون .

اللهمّ انى أعوذ بك من علم لا ينفع ، فشرّ العلم علم لم ينتفع به صاحبه . .

أخذ صاحبنا يحدث نفسه بهذا ، وهو يتفكر فى قول الغزالى له . . . انّ ذلك الإمام الحكيم ليعرف جيداً كيف يسير بمريده فى طريق الإرشاد وكيف يرتقى به من حال الى حال ! أما رأيت كيف لمس نقطة الضعف فى نفس فتاه ، وحاجته الى العمل ، فدعاه اليه دعوة الخبير . فلم يسقه اياه فى جرعة النصح التى قدمها له الاّ بعد ما أسبقها بالنقط الثلاث السالفة .

فأعدّ الأرض أولا ومهّدها ثم جاء بالبذر ، وهو لآت باذن الله أكله !

وهو بعد أن دعاه للعمل ليجد الأجر ، لم يتركه سدى ، يعمل فيكون من الذين (ضلّ سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) بل أقام له الميزان وقال له . . . . زن عملك قبل أن توزن ، وما ظنك بمن يحاسب نفسه عالما بأنه إن لم يحاسبها فثم من يحاسبه . إن محاسبا كذاك يعلم أن عليه رقيبا ، اذا ماوزن عمله ، لعارف كيف يزنه بمقدار . فلا يكبّر من حسناته، ويهوّن من شأن سيئاته (يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون) . انه ليزن نفسه وعمله بالحق ، عالما أن ما وزنه بنفسه ، سيزنه له الله يوما ، وهو لايريد أن يقال له حينـــذاك (ويل للمطففين) ! فهو يقلل من شأن حسناته ، ويعظم من شأن سيئاته عسى الله أن يتوب عليه .

ولربّما مرّ بالعمل الحسن ولايراه كذلك ، اذ هو من خوف الله فى شغل . فهو لايعجب بعمله ، ولايعدم فى الله الأمل . . . كذاك علمه الغزالى . ألم يقل له فيما رواه عن الحسن « علامة الحقيقة ترك ملاحظة العمل لاترك العمل » . فهكذا يعلمه الغزالى ، العلم والعمل والمحاسبة والميزان، ثم التواضع مع الله ، فلا يرى لنفسه عملا ، وإن كان يعدّ فى العاملين . وكلّ ذلك عند شيخه غير كاف أيضا . فبعد العناء فى تحصيل العلم ، ثم العناء والجهاد فى العمل به ، ثم المحاسبة عن النيّة فى ذلك العمل ، وأهى كانت لله أم لغيره ؟ ثم وَزنُ ذلك العمـــل بعداجتيازه هذه العقبات ، وسلامته من شوائبها لمعرفة قدره الحقيق ، مع الدعوة إلى التهوين من شأنه إن كان حسنا وعدم الالتفات اليه ، قتلا لشهوة النفس ، فما ضر امرأ مثل إعجابه بنفسه وعمله ، يأتى دور الجهد .

فالإمام يطلب من فتاه أن يورثه ذلك جهدا ـــ أعظم به من جهد ـــ لأنه « من ظنّ أنه بدون الجهد يصل فهو متمن » . فالغزالى يطلب من صاحبنا أن يسلم له كل هذا ، فإذا ما أصبح فتاه ، وقد مرّ بكل ما عرفت مجهداً ، حتى يُظن أنه قد أرضى ربّه وبات منه قريبا ، إذا بالإمام يصيح به صيحة علىّ ـــ كرم الله وجهه « ومن ظنّ أنه ببذل الجهد يصل فهو مستغن » .

فيمسح صاحبنا عن عينه دمعة .... أبعد هذا كله أكون عنك يارب بمستغنى . فأعدّ فيمن عصاك ؟! .. أتعلّم وأعمل ، وأحاسب نفسى ، وأزن عملى ؟ وأترك ملاحظته إن كان حسنا غير ملتفت اليه ، حتى اذا مانالنى بعد ذلك الجهد ـ وخلق الإنسان ضعيفا ـ فظننتُ وعرق الجهد يتصبب منى أنى قد أرضيتك وغدوت منك قريبا ، إذا بالجهد وقد بذلته ، سبب فىّ بعدى عنك وحرمانى . إذ يقال لى أنت بما بذلت من جهد وظنّك الوصول عن الله لمستغنى !

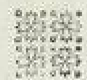
فتبسّم الغزالى ضاحكا مّما مرّ بفتاه فقال له وقد أتاه الله من لدنه علماً . . . .

ألم أذكر لك يابنى أن الرسول عليه السلام قال « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من اتبع هواه ، وتمنى على الله الأمانى » ؟ فأنت إذ تدين نفسك بعد أن تعمل هذا كله فى مرضات ربك ، لكيّس يعمل لما بعد الموت . تتهم نفسك فيبرّؤك الله ، وغيرك الأحمـــق يتبع هواه ؛ ويتمنى على الله الأمانى وما هو إلا رجل افترى على الله كذباً . وما هذا إلاّ أفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ، والظالمون بعضهم أولياء

بعض. كلا انها كلمة هو قائلها «حتى اذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون. لعلى أعمل صالحا فيما تركت . كلا انها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون » .

— صدقت يا إمامى! —

وهكذا ينتهى الدرس الرابع من دروس الغزالى لفتاه ، فلندعهما إلى غد مكانهما ، اذا ما كان المساء ! . .



الفصل الثانى عشر

حساب الغزالى لفتاه

جلس الغزالى وبجانبه فتاه ، وقد أرخى الليل سدوله على الكون أو كاد. وكانت نظرات الإمام تنفذ إلى صدر صاحبنا حيّة أخاذة ، فيرتعد . إنّ الفتى ليخشى شيخه وما يخشاه إلاّ فى الله ! وهو يعلم أن شيخه لا ينظر اليه هكذا إلاّ إذا كان اطلع منه على غير ما يحب أو يرضاه له . وقد وجد الفتى فى نظرة شيخه معنى من المعانى التى يحسّها ويحدّث بها نفسه ، فارتبك ارتباكا شديدا . وأخذه من الله بعد أن ذكّره شيخه استحياء ! ولكن الغزالى وهو طبيبه الروحى ، ما كان ليكتفى بأن يضع يده على موضع الداء من نفسه ، ويحاصره بهاته النظرة النفاذة التى فهم مريده جيداً ما تقوله من كلام . بل سيقدم له جرعة اليوم وفيها ترياق ذلك السم الذى لمس الغزالى موضعه تماما من نفس فتاه . وكما يتناول الطبيب الماهر مبضعه ليستأصل الداء ، أخذ طبيب الروح مبضعه ليجريه فى نفس مريده رحمة وشفاء ...

« أيها الولد (١) . كم من ليال أحييتها بتكرار العلم ومطالعة الكتب وحرمت على نفسك النوم ؟ »

- كثيرة ياشيخى . يخطئوها العاد إذا ما حصر . ويارب ليلة قضيتها حتى مطلع الفجر . لم أذق فيها غمضا ولا التقى الكرى بجفنى الوسنان. أذود النوم عن أجفانى وأعلل نفسى بزاهيات الأمانى ، وسبيل العلم ما كان. وحينا أسهر

« ١ » الفقرة الخامسة من رسالة أيها الولد .

للشعر إذا ما دعان . فأستجيب لسحر القوافى ، وتهزّنى فيه أنغام وألحان .
فأسكب فى أذن الليل مانى ، وأقرع كأسى لكن بغير ندمان . لم أترعها
حراما ، ولكن ملأتها القوافى وخلطتها الأوزان . ثم رحتُ بتسابيح
الشعر فى الليل اذا يسر ، أسكن الى نفسى وأنشد السلوان . فقد تعبت
كثيرا ياإمامى ، ولقيت مالقيت من عناء الزمان. أصبتُ فى الزمان بأهله ،
وبلوتُ الدهر فى أناس أخلاقهم نكران . فرحت أنشد فى الشعر سلوتى ،
وفى الأدب العزاء . وعشت فى الدنيا أياما ، لاأراها بغير أعين الشعراء !

تسألنى عن ليال أحييتها ، فتلك ليال أسأل عنها ياإمام ! سهرت فيها مع
الشعراء ، وأىّ شاعر ليله ما سهر ؟ سل نسيم الليل فقد شهد - وحدث
ياليل وارو ياسحر - كم دعانا الخيال فأستجابت أنفس ، وتحركت الدواعى
فانبعث الوتر . يروى فى الليل اذ يشدو ... حديث الشباب والآمال والغد
المنتظر .. وكان حديثنا فى الله ، يبسم له فى السماء القمر ! ثم هبّت الحقيقة
فانزوى الخيال ، وصاح صرف الدهر بالشمل فانتثر . وجاءت صعاب إثر
صعاب ، سكبها الشاعر فى كأسه حين شعر . فلم يلم الزمان ولم يلم القدر .
ولكن رأى الدنيا بعين شاعر ، لا تبقى ولاتذر . فتلك ليال ياإمام كانت ،
للشعر وللهوى وللأدب وللألم !

ثم جاءت ليال ، كلها آمال فسهرت مقلة ولم تنم .. كان يطلب العلم وكانت
له فى طلبه غاية قد تكون الدنيا وقد يكون غيرها ، ولكن ما خلا الله من
باله . فأنا أسأل عن أمان لله ما كانت . وأسأل فى طلبه عن كل سبب عدا
ماكان فيه لله من سبب ! قرأت العلوم أصنافا ، وأردت المجد من أطرافه.
وأغمضت عين الحقيقة لأفتح عين الخيال ، فأرى الدنيا قد أتت طوعا ،
وما وراء الدنيا لمن عرف ... غير عذاب وسؤال ... ياعبد فيم أنفقت
أمس عمرك ؟ ! فهل أطيق حسابا كذاك يوما ؟ ياالضيعة الليالى ، والعلم،

والكتب . ووا أسفاه على ما حرمت نفسى من لذيذ الرقاد . فقد كان النوم لو علمت . عبادة وراحة للعباد !

فقد سهرت الليالى وأحيتها بتكرار العلم - كما رأيت - يا إمام . ولكن العبرة بالباعث ، فالأعمال بالنويا . أفأثاب على هذه كله ، أم الام ؟

« لا أعلم (١) ماكان الباعث فيه . ان كان نيل عرض الدنيا وجذب حطامها ، وتحصيل مناصبها ، والمباهات على الأقران والأمثال ، فويل لك ثم ويل لك » .

وهنا ارتعد صاحبنا فقد شعر بأن الإمام يعنيه بهذا القول ، ويوبّخه توبيخا شديدا . فهو لا يستفهم منه عن شىء يجهله ، بل ينكر عليه أن كان باعثه على ذلك هو غير هذا . فأخذت نفسه تذوب من حسرتها . . . لى الويل . لى الويل .

ثم استأنف الإمام قوله :

« (١) وإن كان قصدك فيه إحيـــاء شريعة النبى صلى الله عليه وسلم ، وتهذيب أخلاقك ، وكسر النفس الأمارة بالسوء ، فطوبى لك . ثم طوبى لك . ولقد صدق من قال شعرا

سهر العيون لغير وجهك ضائع

وبكاؤهن لغير فقدك باطل » .

إحياء شريعة النبى صلى الله عليه وسلم ؟ ! .. يشهد الله إنها الأمنيته الكبرى . فما درس الشريعة يوما لغير ذلك الغرض ، وماله فى هوايتها غير ذاك سبب . أنه ليحلم بذلك اليوم الذى يصبح فيه الدين كله لله ، وهو عند الله الاسلام

---

(١) تكملة الفقرة الخامسة من رسالة أيها الولد .

(١) تكملة الفقرة الخالسة من رسالة أيها الولد .

«ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه» فتسود شريعة الحق على ماعداها من شرائع ، حرفها أهلوها من بعد ما تبين لهم الحق . وهم يعرفون من أتى بأم الشرائع ، كما يعرفون أبناءهم . ولكن يجادلون بالباطل ليد حضوا به الحق ، حسدا من عند أنفسهم ، من بعد ما تبين لهم الحق ، والله متم نوره ولو كره المبطلون! ولكن متى هذا اليوم ؟ قل عسى أن يكون قريبا إنهم يرونهم بعيدا ، ونراه قريبا ، والذين غُلبوا من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين «ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله» . ولو كانوا ترابا والعظم رميم ! وهو بسبيل ذلك ليعد نفسه ذلك الاعداد الروحانى الخاص ، ويطلب العون من الله ، متخذا رائده الغزالى . وإن نفسه لتضعف أحيانا وتقوى حينا آخر . فيهتف مرة بقول شيخه له ، لك الويل . لك الويل . ويهتف مرة أخرى : طوبى لك طوبى لك !

ويكون اذ يلعن نفسه ، قد أسهر الأعين لغير وجهه – فهو سهر ضائع – أو بكى وقد أسى على شىء فات ولم يدركه – فهو بكاء باطل – ويكون إذ يطرى نفسه ، قد سلك نفسه مع الذين

أسهروا الأعين العليلة حبّا

فانقضى ليلهم وهم ساهرونا

شغلتهم عبادة الرحمن حتى

حسب الناس أن فيهم جنونا

ويكون غير فرح بما أوتيه ! وإن فرحته الكاملة ليوم تسود الشريعة ، وما دامت هذه بعد لم تسد . فليس إلى فرحته من داع . إنه من التفكر فى شغل . وإنه من ذلك الشغل فى عمل مستمر . أوله جهاد مع نفسه ، وآخره سعى فى طلب العلم وتحصيله ! وهو خلال ذلك باك لفقـــد النخوة فى

المسلمين . وقد تفرقوا شيعا وأحزابا ، كل حزب بما لديهم فرحون .
ومتحسرا على قوم قد لبسوا الدين كما يلبس الفرو مقلوبا ، كما يقول على كرم الله وجهه . وهو يسأل ربه اذ ذاك ما وسعه الجهد والعمل ، أن يهذّب خلقه ، ويكسر نفسه الأمارة بالسوء .

وان صاحبنا ليشعر بأن الغزالى ليعتب عليه فى هذه الفقرة الثانية من نصيحته له ، أن لم يجعل وقته كله مكرسا لذلك الغرض السامى . وان تذكيره له بالباعث على طلب العلم وما يجب أن يكونه ؛ انما هو تذكير له بذلك الهدف الذى يسعى اليه حياته ، والذى يعلمه شيخه منه تمام العلم والمعرفة.

فحقّ للغزالى أن يقرعه على سهوه وغفلته اذ يطلب العلم لغير الله « فويل لك . ثم ويل لك »
وحق له أن يثيبه ويطربه اذ يصحو من غفلته فيطلب العلم لله « فطوبى لك ثم طوبى لك » .

وصاحبنا بين حالى القبض والبسط هذين ، حائر يدعو الله كما علّمه الغزالى .. ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب »

وهكذا أخذ فكر صاحبنا يسبح فيما سمعه من شيخه ، ويتفكر فى نصيحته تلك ، ويعيها جيدا . انها تذكرة فلتعها أذنه الواعية . عظة ساقها اليه الغزالى على علم . أحوج ما يكون اليها .. .. وهنا عاهد صاحبنا نفسه على شىء سيجعل لله ، علمه كله ، وليلته حين يحييها بتكرار العلم ومطالعة الكتب ، وسهاده حين يحرم نفسه لذيذ الرقاد .

ياإمامى ـ هتف صاحبنا ـ ماسقت لى هذا باطلا . يامن تقول على علم . لأنت تعلم ماتعنى

فابتسم الغزالى .. ..

ثم افترقا على وعد باللقاء . . غدا .. مكانهما .. مساء

الفصل الثالث عشر

يابنى .. خذ ثلاثة عنى .

كان صاحبنا متعبا لأن الشوط الذى قطعته روحه أمس (فى صحبة الغزالى) شوط متعب. تشعّب الطريق خلاله والشيخ يتنقّل بفتاه فى رياض المعرفة، فتنفتح عين بصيرته للطريق الذى يختار . . . وانه لطريق — على عظمه وفائدته واستقامته — لشاق طويل ! وما تردد صاحبنا عن السير فيه، وان كان قد لهث وهو ما خطا فيه بعد غير أولى الخطوات ! وقد سبقت روحه الزمن، فراحت تطويه لتصل الى نقطة من ذلك الطريق تسمع منها قوله تعالى .. فاستقم كما أمرت . ثم تكر راجعة بعد ذلك الى حيث صاحبها بجسده، فإذا به لا يزال فى أول الطريق، يمشى كالطفل إذ يتعثّر .. حقا ما أعظم الفرق بين الروح والجسد ! إن الروح من أمر ربى . والله غالب على أمره . والجسد ذاك الماء والطين . انه ليقعد بصاحبه عن بلوغ عليين . تحاصره الشهوات، وهى لإبليس جند محضره . فتنزع الروح نحو خالقها، ويرسل الانسان طرفه رائدا لقلبه، فتتعبه المناظر ! تودّ الروح لو تلبى، لكن.. ما تفعل سجينة الجسد، وقد حكم عليها أن تبقى رهينة قيده، حتى حين ؟!.. فكان ان استجابت الروح لدعوة الغزالى، وقطعت ذلك الشوط البعيد فى ذاك الطريق ، ثم عادت بعد ذلك مجهدة — من عناء الوصول — متعبة . من أثر ما رأت . تقول للجسد . أفق..واستقم كما أمرت ! ترى هل يستجيب للنداء ؟ أم تشغله الحياة فيكون عنه فى صمم ؟ إنّ الحياة وبريقها الزائف ليستهويان عينيه أحيانا ! فيصبح صاحبنا بجسده عن حديث الروح فى شغل.

فيكون الجسد فى واد وتكون الروح فى آخر. فهل كان سعيدا بذلك؟ وأيّة سعادة تلك! ما نعيم الجسد ان لم تصاحبه الروح فى تذوّق ما ينعم به، وماله بغيرها حسّ وحياة؟! وأين استقرار الروح وبينها وبين المكان الذى تقيم فيه: حرب وكفاح وعناء؟! فيكون الجسد والروح؛ اذ يعمل كل على شاكلته، منغصا على صاحبه متعته، فلا تكمل لهذا؛ ولا تخلص لتلك!

ترى لمن يكون النصر أخيرا؟ ألروح وقد استجابت للغزالى. أم للجسد ودنيا الناس تناديه؟

.. .. يابنى .. ما كان الله ليضيع إيمانكم ان الله بالناس لرءوف رحيم!

فهبّ صاحبنا ليلاقى شيخه وقد أقبل عليه مبتسما؛ ومفاجئا له بذلك الرّد الجميل؛ الذى فيه شفاء لما فى نفسه القلقة المتعبة. لقد كان الغزالى على علم بما يحدّث به فتاه نفسه!

... أجل يا بنى استطرد الغزالى بعد ما رجعت الى صاحبنا نفسه. للّه أكرم من أن يضيع ايمانك؛ وقد علم صدق نيتك. فتوكل على الله انك على الحق المبين. ولا تخش على روحك وقد أخلصت سرّها لله؛ من شرّ ما خلق. ومن شرّ غاسق اذا وقب. فإن اجساد المؤمنين تنقاد لأرواحهم فيكون للثانية على الأولى الغلب. ولو بعد حين. فالله غالب على أمره؛ ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

فلا تخش يا بنى؛ اذا ما سلكت قلبك مع المؤمنين؛ أن تذلّ روحك للجسد المهين. ولكن أخش ان كنت فى الأعراب الذين قالوا «آمنا»

فيجيبهم الذى يعلم ماتخفيه الصدور « قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم » ! فأولئك يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم ، والله أعلم بما يكتمون. والمؤمن بلسانه ، دون قلبه ، هو الذى يُخشى عليه من انتصار جنده على روحه . أمّا من آمن ، بقلبه ، فالله يهدى قلبه . ومن يهده الله فهو المهتد . هيهات أن تجد له مضلاّ مفسدا ! فعليك أن تبصر فى نفسك دائما يابنى — فإن قلب المؤمن بين أصبعين(١) من أصابع الرحمن — أمؤمن أنت حقا ، بقلبك لا بلسانك . أم أنت من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ؟ وإذ ذاك ، إن كان الأمر كذلك ، حاشاك . فاخش على روحك من شر الجسد ، إذا ما دعته دنيا الناس .

واعلم أنّ للإيمان علامات ودلائل يابنى . . طالما حدثتك بها . فاجعل نصب عينيك دائما ، أن المؤمنين حقا ، هم الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا . فاحذر أن تشوب إيمانك ريبة ، ولا تجعلن شيئا — وان جلّ — يزعزع ايمانك بالله شعرة . واصبر لحكم ربك ، وسلّم اليه فى كل ماحكم . فإنك لا تدرى الشر فيما أحببت ، أم الخير فيما أبغضت ، ويكون الله قد جعل لك فيه خيرا كثيرا ، وما أنت بذلك من الشاعرين . ودائما يابنىّ « قل كل من عند الله » . بذلك أُمرت فكن أول المسلمين . ولا تقل سمعت وعصيت . قد ضللت اذن وما كنت من المهتدين . واما ينزغنّك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله . فإن الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذاهم مبصرون .

فليس موضوع القضية اذن ما خفته من انتصار الجسد على روح المؤمن

---

(١) حديث شريف

فإن ذلك لا يكون . بل الأمر على وضعه الصحيح هو ، أبقى المؤمن على إيمانه ، أم أتبعه بريبة ، فتزعزع ايمانه وأصبح من الذين « ارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون » ؟ واعلم ان كل درجة يفقدها المؤمن من درجات ايمانه، انما تكون هذه الدرجة للجسد ، تحسب له على حساب الروح ، فتقوى موازين الجسد ، وتخف موازين الروح ، فيقوى هو وتضعف هى . وما وراء هذه القوة وذلك الضعف — لو علمت — غير الويل للذين ضعفوا واستكانوا ، من عذاب يوم عظيم ! فإذا بأعمالهم الحسنة قد طارت الى جانب ما عملوا من سيئات « وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا » . فأشباه المؤمنين يابنى ، هم الذين يخشون على أنفسهم ولا يدرون لمن يكون الغلب الاخير . ألِلروح أم للجسد ؟

أمّا من اعتصم بالله فقد هدى الى الصراط المستقيم، واستمسك بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها . وما ذلك على الله بعزيز . ألم يسلم وجهه لله وهو محسن ؟

فإذا ما اطمأننت الى مرتبة إيمانك يابنى ، ولاحظت علاماته ودلائله فى نفسك ، فلا تخش بعد ذلك الا من آفة ترد على من سلم ايمانه مما سبق من شوائب عرفت حديثها . وهذه الآفة هى فتور الايمان وقلة الحماس فيه . فانك ان تركت إيمانك يفتر يوما . . . هنا فاخش على روحك من شر سطوة الجسد. واعلم أن هذا استدراج من الشيطان، ان رحت تلتمس لنفسك عذرا . بل اعمل على تقوية نفسك من جديد ، واعكف على العبادة والصلاة واصطبر عليها « واذكر ربك إذا نسيت » . وإنى لمعطيك الآن جرعة تتعاطاها ، كلما شعرت فى ايمانك بفتور . . فإذا بإيمانك قد تجدد ، ونشاطك عاد ، وحماسك انبعث . فتأمن أن يسلب جسدك روحك ، درجة من درجاتها العلى . .

« أيها(١) الولد . عش ما عشت فإنك ميت . واحبب من شئت فإنك مفارقه . واعمل ما شئت فإنك مجزى به » .

. . . فاطرق صاحبنا لحظة ثم سأل شيخه

— وهل يعيش الإنسان كما شاء يا إمام . إذ تقول عش ما عشت ؟!

فأجابه الغزالى . . ذلك ما عنيته يا بنى . فاذا كان الانسان لا يضمن من عمره لحظة مهما صغرت . ولا مشيئة للإنسان مع الله « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » وقد جعل الله لكل أجل كتابا . فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون . وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت . فكيف تهنأ للإنسان لحظة من عمره تنقضى وهو لا يدرى ما بعدها ، أيكون فى عداد الاحياء ، أم يأتى الرحمن فردا ؟ ألا يكون فى انشغال باله بهذه الفكرة، وحذره ممّا وراء الحساب. ما يتكفّل بتذكيره ان هو نسى ؟ وماذا وراء التذكر غير استدراك ما فات ، ان كان ذلك فى حدود الإمكان أو التأسف عليه ان كان ردّه من المستحيلات ؟ وهنا تكون التوبه، توفرت دواعيا ، وانبعثت أسبابا . والله يحبّ عباده التائبين . فاذا بالهمة قد انبعثت ، وإذا بالنشاط قد ذكى ، وإذا بالصدر قد امتلأ ايمانا برب العالمين !

وهكذا يكون تذكرك لذلك الأمر يابنى ، ومعرفة مقدار عجزك فيه ، وقصور حيلتك أن تعرف لحظة من عمرك أتنقضى عليك حيا أم لا، وانك مهما عمّرت ، ولو كما عمّر نوح، لمصيرك إلى الموت ، وإنك الى حيث صار

---

(١) الفقرة السادسة من رسالة أيها الولد

القوم صائر ، وأن حياتك لا دخل لمشيئتك فيها ، عامل على تقوية إيمانك ان شابه فتور . وبمثل هذا آمن عليك . فما أريد منك أكثر من أن تكون مؤمنا ، ايمانه صاح !

وعش يابنى واحبب من شئت . قد عاش قبلك كثيرون . أحبّوا مثلما أحببت فانظر هل تحسّ منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ؟

وقد كان بين الحجون إلى الصفا آنسون ، وبمكة سامرون . فانظر واعتبر . ماذا بقى ؟

كأن لم يك بين الحجون إلى الصفا

أنيس ولم يسمر بمكة سامرُ .

وتعال معى نبك من ذكرى حبيب ومنزل ، بسقط اللوى بين الدخول فحومل . سدى يبكى شاعرها . قد بكى قبله باكون . ومن بعده آخرون ، مثلما بكى وبكوا سيبكون! والديار لاتجيب الحزين . صُمّت وقدم المدى فبلين . فليس هناك غير الطلول والدموع والدمن ... ومن ورائها . . . . زمان محيط !

وعاد وثمود ؟ وإرم ذات العماد . الذين جابو الصخر بالواد ؟ أين هم ؟ سلوهم إن كانوا ينطقون ؟ لا لقد علمتَ ما هؤلاء ينطقون . وما أنت بمسمع من فى القبور !

وانظر يابنى ... ثمّ أقوام كانوا أشدّ منّا قوّة . أثاروا الأرض وعمروها . فتلك بيوتهم خاوية على عروشها . ثمّ بئر معطلة وقصر مشيد .

وسكن القبور من كان يسكن الدور . فلا البانون بقوا ، ولا دامت لأهلها القصور .

يابنى . . .

أين الأكاسرة الجبابرة الألى
كنزوا الكنوز فما بقين ولا بقوا
خرس إذا نودوا كأن لم يعلموا
أن الكلام لهم حلال مطلق !

قدحيل بينهم وبين مايشتهون !

فالموت آت والنفوس نفائس
والمستغرّ بمـــا لديه الأحمق

يا بنى

أين ذلك البشر الضعيف الذى يختال كبرا ؟ أين ما فعله يوما على إيوانه كسرى ؟ ... قد دُكّ عرشه وعرف أن الأمر لله سبحانه

أين . وأين ؟

ألا يابن الذين فنوا وبادوا ∴ أما والله ماذهبوا لتبقى

فنوا وبادوا ، وكانوا مثلك قبل أحياء . أحبّوا ثم حيل بينهم وبين

ما يشتهون ؛ فذهب ما أحبوا جفاء . فما الحياة الحب ، ولا الحب كما يقول شاعرها الحياة . .

ألا كل شيء ما خلا الله باطل
وكل نعيم لا محـالة زائل

فاذكر هـذا يابنى ، لاتحب غير اللـه . واذكره فى ذلك الوقت الذى تشعر فيه بفتور همّتك ، ينبعث إيمانك ولايفارقك النشاط . وأنا أريدك المؤمن الصاحى .

ويابنى أنت حر فافعل مابدا لك . ولـكن اذكر يوم تردّ الى صاحبها الأعمال . فيومئذ يودّ الذين ظلموا لو تسوّى بهم الأرض ويقول الـكافر ياليتنى كنتُ تراباً . يوم يرى الإنسان ماعمل من سوء محضرا ، يودّلوأن بينه وبينه أمـدا بعيدا وما عمل من خير حاضرا « ولايظلم ربك أحدا » . فإن تلك مثقال ذرّة يأتى بها اللـه ، وهو خير الحاسبين . أليس من يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره . ذاك يوم توضع الموازين القسط ، والأمر يومئذ لله . ذاك يوم الجزاء ؛ يوم يجزى الانسان بما عمل ... لقد كان حرّا فى حياته يفعل ما يشاء . ولـكن نسى الـكرام الكاتبين . نسى أنه ما لفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد . ولاعمل من شيء إلا أحصى عليه فى كتاب « لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها » . وسيلق يوما ذلك الـكتاب منشورا . يشهد عليه... اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا .

فحاسب نفسك يابنى قبل أن تحاسب . ولا تكن من أهل الغفلة الذين

نسوا يوم الحساب. فعملوا بما شاء لهموا الهوى . وظنوا أنهم فى الخالدين.
ولو عرف جاهلهم كيف حسابه لارعوى ، وأخذته الخشية من رب العالمين.
ولكن هكذا شاء ربك أن يمتعهم حتى حين. ثم يردّوا إلى أقسى العذاب .
فيابنى إنّى أعظك أن تكون من الجاهلين. لاتظنن نفسك حرا تفعل ما تشاء
ولا رقيب . فان أخذتك الحياة بغفلة ، أفق قبل فوات الأوان « واذكر
ربك إذا نسيت » . وكن مع الذين يذكرون الله قياما وقعودا ويخافون
يوما كان شرّه مستطيرا . يوم يقول الكرام الكاتبون ... « هذا كتابنا
ينطق عليكم بالحق إنّا كنّا نستنسخ ما كنتم تعملون » .

فخذها عنى يابنى ، حكمة تسلم . إذا ما أردت العمل ، فاذكر قبل فعله
الجزاء . فان رأيته الحسن الجميل .. أقبل ولاتخف إنك من الآمنين . وإن
رأيته السوء فذره ، وفرّ منه الى الله إنى لك منه نذير مبين . وان شككت
فيما يكون الجزاء ، فدع مايريبك الى مالايريبك . بذلك أُمرت ، وكذاك
قال سيد المرسلين .

فإن فعلت ما وعظتك به لأصبح خيرا لك . . فتذكّر دائما . . الموت
قبل الحياة ، والفرقة قبل أن يحال بينك وبين ماتشتهى ، والجزاء قبل
العمل .

ـــ صدقت يا إمامى ، وأصبت ياشيخى .. يامن عرف جرحى
فشفانى ، شدّ ما كنتُ محتاجا الى ذكرى هذه الثلاث . . « ذكرى لعلّهم
يرجعون » .

ثم ودّع الغزالى فتاه ، بعد ما أسى جرحه وشفاه . لقد عرف كيف يدخل فى نفس مريده مدخل صدق ، فأخرجه الله مخرج صدق ، وجعله من لدنه لفتاه ، وليا نصيرا .. يهديه للتى هى أقوم !

ثم واعد الغزالى صاحبنا ، على أن يلقاه غدا ـ كما هى العادة ـ مكانهما إذا ما كان الليل !

فانطلقا . . .

الفصل الرابع عشر

محاسبة الصوفى

لم يكن صاحبنا راضياً عن نفسه . لقد كان له معها حديث و حساب . فيه شجى وفيه عتاب . فمذ فارق الغزالى أمس ، لم تخلص له نفسه تماما كما كان يظن ، ولم يصف قلبه من كدوراته كما كان يقدّر . ولم يسبح فى ذلك العالم العلوى ، الذى تعود أن تكون له فيه سبحات وسبحات ! لقد فارق الغزالى آخرة مرة وهو - كما رأيت - يظن أنه سيقطع مابينه وبين الدنيا من سبب . فلن يكون له فى غير الله شغل ولا حاجة ! لقد كانت جوانحه تكاد تشتعل إذ هو قائم مع شيخه - وتضىء ... فهمته انبعثت ، وروحه استضاءت ، وقلبه أصبح يتحرّك بمعان بعيدة الأغوار ! ولكن ما أن فارق شيخه حتى تنابته حالة غريبة ، لم تكن له فى تقدير وحسبان ... إنه يتفقد الآن هذه النار التى كانت تشتعل بين جوانحه ، وهو بين يدى الغزالى ، فلا يجد إلا رمادا تحت رماد . ومن تحت هذا كله شىء .. قد يكون بقية من هاته النار وينادى همته فلا تجيب ، فأخذ يتحسس روحه عسى شعلة منها تهديه . فينكر روحه أو تنكره روحه . هل إلى خروج من سبيل ، فقد ضاقت عليه نفسه والأرض بما رحبت ؟

إنّ فى الحالة الظلماء يفتقد القلب ، فليلجأ إلى قلبه إذن ، وليقل له تحرك . . لكن واأسفاه فإن قلبه وهو آخر ما كان يستطيع أن يلجأ اليه .. .. أبى أن يسعفه ولم يرض أن يواتيه .. إنه ليشعر به غلفا مما يدعوه اليه ، تحوطه الأكنّة فلن يفقه له قولا !

يافؤادى لم خذلتنى، وخيّبت أملا فيك ماظننته يخيب ؟ ألم تتب الى الله فلم عدت تعصاه . أنسيت الرقيب ؟

أترى الله قد أراد أن يشقيه بعد إذ هداه . ومن الناس من يضله الله على علم ؟ ! .

لبث صاحبنا مدّة على هذه الحال . . ثم قام يصلى ، عسى أن يجد راحته فى الصلاة . ألم يقل المولى سبحانه « ألا بذكر الله تطمئن القلوب »؟ فصلىّ . . ولكن كما تتحرك الآلة ، فى قيام وقعود ، وركوع وسجود . وكأن بالملائكة إذ انتهى من صلاته ، قد لفّوا صلاته ليقذفوه بها فى وجهه ... كان يقرأ إذ هو قائم يصلى . . ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا . وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » . ثم يرفع بصره الى السماء بعد أن ينتهى من ركعته مسبحاً ربّه العظيم ، وقبل أن يسجد لرب العالمين ، ليرى أين ذهب دعاءه ... ربنا لا تزغ قلوبنا ... الخ . فيخيّل اليه أن ذاك الدعاء ، ما تجاوز بعد شفتيه ! فيغض من بصره حياء من ربه وفى نفسه حسرة لا تعلوها حسرة ، وفى عينه دمعة تحجرت فهى لا تريد أن تسيل ، حتى كأنها اقتطعت من قلب طال عليه الأمد ! فهى تنزف من إناء ما فيه غير أحجار . . فيسرع ساجداً عسى أن يجد فى اقترابه حين يسجد ، مالم يجده من قبل . . فيعفّر جبهته ، ليشعر نفسه ذلّه وحاجته ، ولكن لا تتعفر جبهته الا بقدر ما على البسط من تراب ! وهو بوده لو سجد على طين ليقوم وعلىّ جبهته أثر ، من خلقته الأولى، خلقه آدم أبيه ! وهو اذ يسجد يدعو ربه رب إن كنت كتبتنى عندك فى أم الكتاب شقياً أو محروما أو مقتراً على فى رزقى . فامح اللهم بفضلك شقاوتى وحرمانى ، واقتتار رزقى ! . . ثم يسلم على الملكين ويقول لهما أشهدا . . فهذا قسمى فيما أملك ولكن

لاحيلة لى فيما يملك ولا أملك .. الفرض والطاعة لهما منى الصبر والأداء .. أمّا القلب، فبين إصبعين من أصابعك يا ربى ، يا مقلّب القلوب. سبحانك؛ ما جعلت حضورها فى أيدى الضعفاء !

☆☆ ☆☆ ☆☆ ☆☆ ☆☆

ذهب الفتى ليلقى شيخه اذ حان موعد اللقاء ، يمشى على ضعف وعلى استحياء ، أترى أرضه قد أصبحت بعد الإخصاب جدباء ؟ فكل بذر يلقيه فيها الغزالى هباء ؟ أين ما أدّبه به فأحسن تأديبه ، شيخ جرت على فمه حكم السماء ؟ ! بذل من عمره فى تثقيفه وقتاً ، وهو الضنين بوقته على غير الأصفياء . أحلّه من روحه منزلا ، فسكنت نفسه بعد جهد وأذعنت بعد عناء .. واليوم يجيئه مستطار اللب : لم ؟ غائب القلب . كيف ؟ أشهد ما قصّر الشيخ، ولكن المريد أساء !

... أشاح صاحبنا بوجهه اذ استلم يد شيخه يقبلها ، حتى لا يقرأ هذا ما تقوله أعينه من كلام ، حتى ودّ لو استطاع أن يضع يده على قلبه ليمنع خفقه ، حذر أن ينمّ وجيبه على ما يضن به من أسرار ! فالنظرة تفضحه ، والخفقة تبوح بما يهمس به فى نفسه . أليس من النظرات همس ، ومن الخفقات كلام ؟ ما أصعب لقاءك اليوم ياشيخى .. ولكن هيهات .. أخذ الشيخ بيد فتاه ، وأجلسه بجواره . لقد كان الغزالى صامتاً لا يتكلم ، ولكنّ عيونه قالت لفتاه كل شىء ، فاستمع صاحبنا لها مكرها وهى تهيب به... إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا . فتلفتّ حواليه كمن يهم بالفرار ، ولكنه ما لبث أن عاد فسكن ، متعباً مخذولا . ثم تمتم بصوت لايكاد يبين . . . أشكو اليك يارب قساوة قلبى . أترى قد ران عليه ما تعاظم من ذنبى ؟ ! إن كنت خاطئا يلاحقنى إثمى . ألست تغفر الذنوب ياربى ؟ فامح اللهم

بفضلك شقاوتى . فاطر السموات والأرض أنت وليّ فى الدنيا والآخرة،
توفنى مسلماواًلحقنى بالصالحين.ان قلبى يعذبنى والإثم حمله يتعبنى، فارفع الذنب
وامسح دموع التائبين . فأنا بين يديك وقلبى بين إصبعيك رهين !

ثم أفاق صاحبنا من نجواه ، ليرى عيون الغزالى تكاد تأخذ بتلابيبه .
انه ليسمعهاتصيح... ذلك بما قدمت يداك، وما ربك بظلام للعبيد ! صدقت
ياشيخى . الذنب ذنبى ، والإثم فى قلبى ، والخطيئة منىّ.وقلبى المدان. والمولى
سبحانه « لايسأل عمّا يفعل وهم يسألون » فياويلتاه اذا ما سئلت حسابا .
سأرمى فلا أجد لى جواباً . وما تكون حجتى . ألم يحذرنا الله نفسه فقال..
بأن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ؟ وما يغنينى اذ
ذاك أننّا كلنّا فى العذاب مشتركون .

كانت النظرة نظرتين . واحدة لى وأخرى علىّ . فمالى أخطأت وأسرفت
نخفّت منها موازينى . ليتنى جعلتها كلهافى حسابى ، ولم أفتح على إبليس بابه !

وكان السمع فى يدى ، قبل أن ترفع الأقلام ، فياليتنى لم أسمع إلاحلالا
ولم أتبع غير أحسن الأقوال ! ليتنى أصخت السمع للهاتف الكريم . . .
كلا لا تطعه « واسجد واقترب » . ووأسفاه لقد أطعت اللعين وأنلته أذنى ،
فما قولى لرب العالمين ؟ أشهد يارب لقد حذرّتنا . . . ألم أعهد اليكم يابنى آدم
أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم.
ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون »؟ رب سمعنا وعصينا
واتبعنا الهوى وكان أمرنا فرطا ، وسلكنا أنفسنا فى الظالمين . ربنا غلبت
علينا شقوتنا فاغفر لنا . : .

ذاك يوم حساب ، وعناء وعذاب . يا أيها السمع ما كان هذا كله إلا من جرّائك . ويافؤادى كنت تدعونى فأجيب . ترى الدنيا حلوة وتلذك الامانى وهى تعذيب . فمددت فى المنى حبالا ، وأرخى لك الزمان وهو رقيب . والآمال تصدق تارة وتخيب . وكنت أخا الهوى لا تدرى ما غد ، أسرتك الدنيا فغدوت فى حجرها كالطفل الربيب . زعمت أن قد بلغت فى السن رشدك ؛ وأتاك الزمان حكمة الرشيد اللبيب . جهلا يا فؤادى ما كنت غير طفل ؛ لعبت بك الدنيا وبدلتك بالشباب المشيب ! فأخذتك فيها أهواء . . أفق قبل أن تأذن شمسك بمغيب . إن من يسرف فى شهواته غير دار ؛ أن الدنيا كالغوانى لعوب !

يا فؤادى عذّبتنى ، ليتك اتّبعت نصيحة العقل الرشيد. إنّ يوم الحساب وان طال آت ، والغد للناظرين قريب !

أنت فى الدنيا ملكى ، وأنا يوم الحساب بما كسبت رهين . فإن لم تحفظ لى عهدى ، لا كنت ياقلبى فى قلوب العالمين .

السمع . . والبصر . . والفؤاد . . كل أولئك كان عنه مسئولا !

صدقت يا بنى !

فأفاق صاحبنا ليرى شيخه بجواره ، قد حنى عليه حنوّ المرضعات على الفطيم . وقد سلّط عليه من أشعة نفسه المطمئنة ، وأنوار روحه العلوية ، ما جعل هذه الآيات البينات تنعكس فى مرآة نفسه ، فيجد صداها فيما عرفت من حديث ! شدّ ما كان فى حاجة الى ذلك الحساب مع نفسه ! وإن الغزالى ليجول معه دائما بالغيب(١) فيها !

---

(١) القلب

فلما سكت عن صاحبنا « الحال(١) » ابتدأ الغزالى درسه ...

« أيها الولد (٢) . العلم بلا عمل جنون .والعمل بغير علم لا يكون واعلم : أن العلم لا يبعدك اليوم عن المعاصى ، ولا يحملك على الطاعة . ولن يبعدك غدا عن نار جهنم . واذا لم تعمل اليوم ولم تدارك الأيام الماضية ، تقول غدا يوم القيامة . فارجعنا نعمل صالحا ـ فيقال .يا أحمق أنت من هناك تجىء »

أرأيت ! ـ لقد أبان الغزالى لصاحبنا علّة ما يشكوه . فصاحبنا كان فى دهشة من أمره ، يتعجب من حالة « القبض » التى يعانيها ، ومن شعوره بتخازل همته وانصراف قلبه ، مع تحصيله لهذا القدر من علوم القوم ! فجاء شيخه يؤدّبه ويريه فى نفسه عجبا! نعم هو يعلم عن علوم القوم الكثير. ولكن ما فائدة هذا العلم كله بدون العمل به ؟ .. العلم بلا عمل جنون . إذن باطل ما حصّله إن لم يكن به من العاملين . فلم يأسى إذا على حلاوة يفتقدها فلا يجدها ؟ ما كان العلم وحده ليجلوا صدأ القلوب ! . وكذلك . العمل بغير علم لا يكون . وهو يعرف من نفسه نقصا هنا طالما جعله يردّد « رب زدنى علما » فعلام التعجب ؟ إنّ استغرابه الأمر لأعجب ! فذاك هو الطريق قد بيّنه له الغزالى ، فإن شاء اتخذ إلى ربّه سبيلا . لقد كان ذا غفلة حين ظنّ أن القدر الذى حصّله من علوم القوم وآدابهم « يبعده عن المعاصى أو يحمله على الطاعة ، ومن ثمّ يبعده غدا عن نار جهنم» .لقد وجد مصداق هذه النصيحة الخالصة من شيخه فى نفسه . فى ذلك التخاذل الذى يشعر به فى همتّه ، وفى انصراف قلبه وصدئه ، رغم هذه القراءة المستمرة وذلك التحصيل المتواصل لعلوم القوم ومعارفهم إنّ شيئا كبيرا جليلا ذا خطر لا زال

«١» الحال هنا المقصود به المعنى المعروف عند الصوفية . المؤلف

«٢» الفقرة السابعة من رسالة أيها الولد

ينقص بعد صاحبنا ، وهو العمل بما يعلم . فتى هذا اليوم ؟ .. « وإذا لم تعمل اليوم ولم تدارك الأيام الماضية تقول غدا يوم القيامة . فارجعنا نعمل صالحا » . حقا . إن اليوم لى وغدا .. ماتدرى نفس ماذا تكسب ؟ وهو لا يحب أن يكون فيمن ينادى فى ذلك اليوم : « يا أحمق أنت من هناك تجىء » !

عرف صاحبنا إذن ، علة غياب قلبه ، وسبب ذلك الشعور بالملل الذى طالما يعتريه . إن ذلك لتذكرة له من الله ، ساقها اليه على يد الغزالى ، ليرجع اليه « ذكرى لعلهم يرجعون » . ويعمل بما علم ، حتى يورثه الله علم مالم يعلم ! وإلا .. ضل سيعه وهو يحسب أنه يحسن صنعا !

فليذكر إذن كلما غفل قلبه ، فشكا من غفلته ، وأحس الملل .. كم من عمل أهمل . أو سنة ترك . أو تأس بالصالحين أغفل ، فإن من « يتولى الله ورسوله والذين آمنوا فأن حزب الله هم الغالبون » .

.. .. قم يابنى إذن - أهاب به الغزالى - واسلك نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه . وأستقم على « الطريقة » تسق الماء الغدق . واعمل صالحا ، يوفقك الله لما فيه رضاه .

فقبل الفتى يد شيخه ، ثم انصرف الغزالى بعد أن واعده على لقائه غدا كعادته مساء . فقام صاحبنا يمشى إلى حيث يقيم ، وفى عينيه نظرة شاردة ، وبين جنبه خفقة يكاد يسمع صوتها ، وأمامه ترتسم ، حيث الغيب المجهول .. أمنية حائرة ! .. متى يارب يبصر فؤادى ، كما أبصر قبلى ، فؤاد عمر ؟!

(الفصل الخامس عشر)

"حال المريد"

أخذ صاحبنا ينظر فى نفسه ـ فقد بدأ فؤاده يرجع اليه ـ ويحاسبها على ماقدّمت يداه . فقد اعتزم أن يحدّد موقفه من نفسه أو يحددموقف نفسه منه. أظلمهاأم ظلمته ؟أوسوس لها أم وسوست له ؟ وأهو من الذين أنفسهم يظلمون، أم هو من الذين تسّول لهم أنفسهم فتوسوس لهم، والنفس أمارة بالسوء؟!

قالت له نفسه وهى تحاوره :

ماذا أعطيتنى ؟ لا أراك إلاّ أشقيتنى ! قال لها .. أتجحدين يا نفس جهادى. أتذكرين كم عصيتك وملكت قيادى؟لقد أعطيتك علما فهل تنكرين؟... لست أنكر ولكن خبرّنى ماذا أفادك التثقيف ؟ أجل سهرت ليالى وأتعبتنى فى التحصيل . ولكن حويت العلم كما تحويه فى الصفحات الكتب. فهل استفاد الكتاب « نفسه » بما حوى ؟ وهل ملك عن نفسه دفاعا حين سعت اليه الجرذان فى الطلب ؟ وهل تشفع له عندها ، ما خط فيه من علوم وسطّر ؟ كم من أسطر فيه خطتها أيدى الحكماء ، قرأها الفأر بأسنانه وهى الدرر والفنون والضياء ! فانظر ماخلفه العباقرة العلماء ، كيف أصبح للسوس طعاما وللفأر غذاء ؟ ! وأنت أنت ياصاحبى ، قد تركت الشهوة تصرعك ، وسمحت للكيد الضعيف أن يأتيك ، والشيطان فأر فى صدور الضعفاء . يأتى على كل ما سطرته أيدى الفضلاء : فالعلم منثور جفاء ، والفضل مضيّع هباء ، إذا لم يكن العمل بالعلم ، والتحقيق ، للفضل ، رائد

العلماء ، وهدف الفضلاء .. فتركتني ياصاحبي كالكتاب ، أزهو أسطرا ، وافتقد همة لا أجدها فيك قعساء . فأضعف إذا الشهوات بى أحاطت ، وأخور إذا الشيطان لى جاء . وكلما استمددتك عونا لم أجد لك عزما ، وتركتني نهبا مضيّعا ، فلا يذرنى اللعين غير أشلاء . أجمع منها أسطرا إذا ماتركنى ، وأبكى فيها حكمة العلماء . وأرثى لسطور الهدى يذهب نورها فى الليلة الظلماء . أرأيت ؟ ! ذاك قدر ماأعطيتنى ، وهذا ما تدلّ به علىّ . ظلمتنى ، صاحبى.ما كنت منصفى . لوعملت بما علمت لكنت سيدّ العلماء ، ولكنت النفس المطمئنة، الراضية المرضية . تعطينى فأعى ، وتحدّثنى فأستمع لك ،وأتبع أحسن ماتحدّثنى به ، فأتخذ إياك للهدى سبلا .

فيا ظالما « نفسه » ذاك حديثى فما تقول ؟ بينى وبينك شاهد ،هوالغزالى فاجعله حكما ...

أخذ صاحبنا سبيله نحو البيت ... كان صامتا لم يرد على نفسه بشىء مما كالته له . سيصبر حتى يقضى الغزالى بينه وبين نفسه . فظلت تلك ترددّ له . . هو الغزالى فاجعله حكما !

. . . كان الامام جالسا فى المسجد وقد أطرق برأسه إلى الأرض

وكانت شفتاه تتمتمان . فاحترم صاحبنا تهجده واقترب منه بخشوع ، حتى تردد كثيرا قبل أن يلقى اليه سلامه . لقد كان على يقين من أن فكره قد سبقه الى الغزالى . ولاشك أن الغزالى يعلم الآن مابه فما هذه بأول مرة سعى فيهاالشيخه على أمر فى الجوانح يخفيه،وما هذه بأول مرة يبادره الشيخ فيها بما قصده من أجله.فتقدم صاحبنا وتردّد فى إلقاء السلام كما رأيت،وأخيرا انفجرت شفتاه . . ياإمامى . تحية من عند الله مباركة طيبة . فمسح الغزالى على رأسه ودعا له بخير ، ثم أخذ فى أطراقه وسبوحه وصاحبنا يتصبب بجانبه عرقا . ترى لماذا سكت الإمام ؟ ! وأخيرا بعد فترة من الصمت طالت،

مرت على صاحبنا نخالها دهرا، رفع الغزالى رأسه، فالتقت عينه بعين فتاه .. يابنى.. قد أفلح من زكاها .

فأطرق صاحبنا برأسه.. لقد حكم الامام بينه وبين خصمه.. نفسه ! لقد زكاها وأدانه . فازداد ارتباكا ثم همس وما كاد صوته يبين.. رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى.

— أجل يابنى - استأنف الغزالى- فما كانت نفسك إلاّ مطيّة لك أنت فارسها. هب الفرس جموحا، لم تضعف فينفلت من يدك الزمام ؟ ليس العيب فى الفرس ،قدر ما هو فى الفارس،إن العنان لا تفلته إلا أيدى العاجزين. أمّا من استمسك بالعروة الوثق ، فتلك لا انفصام لها ، وما على المحسنين من سبيل . تعلّم كيف تمسك بالزمام ، وذلك العلم ماكان ليفيدك ، الا اذا عملت به ، فتنقاد لك الفرس ، وينضبط بيدك العنان ! أمّا ذلك العلم كله دون العمل به ، فسدى :

« أيها الولد (١) أى شىء حاصل لك من تحصيل علم الكلام والخلاف والطب والدواوين والأشعار والنجوم والعروض والنحو والتصريف ، غير تضييع العمر بخلاف ذى الجلال انى رأيت فى انجيل عيسى عليه السلام قال : من ساعة أن يوضع الميت على الجنازة الى أن يوضع على شفير القبر يسأل الله بعظمته منه أربعين سؤلا . أوله يقول : عبدى طهرت منظر الخلق سنين وماطهرت منظرى ساعة : وكل يوم ينظر فى قلبك يقول: ماتصنع لغيرى وأنت محفوف بخيرى أما أنت أصم لا تسمع » ؟

استمع صاحبنا لشيخه وهو يكاد يذوب حياء ،وأخذت كل كلمة من الغزالى تنفذ الى قلبه وتترك فيه أثرا .. يجده تارة فى سرعة خفوق قلبه حتى كأنه يكاد يثب من بين ضلوعه ، وأخرى فى دمعه الذى

(١) الفقرة الثامنة من رسالة أيها الولد

يذرفه قلبه فيسرع به ندمه إلى خدّيه ، ويتساقط على الأرض أمامه ، فيرى فى كل دمعة منه ، خطيئة ومعصية . فتصيح به خطيئة : «عبدى طهرت منظر الخلق سنين وما طهّرت منظرى ساعة ! » .فتزعق المعصية : « ماتصنع لغيرى وأنت محفوف بخيرى ؟! » . ثم تلتقى الدمعتان ، وتمتزج الخطيئة بالمعصية فيصرخان : « أما أنت أصم لاتسمع ؟! » .

لقد سمع — شهد الله — ووعى جيدا ذلك الهتاف . فأحاط به سرادق الندم . فهل إلى خروج من سبيل ؟ لقد امتلأ السرادق بالذنوب والخطايا ، حتى ماعاد فيه لقدم موضع . فهل إلى خروج من سبيل ؟ . . رفع عينيه صوب السماء يتلمّس مخرجا وخلاصا . فازداد الحصار عليه اشتدادا . لقد أبصر فى السماء « أربعين سؤالا » .تسدّ الأفق عليه ثقالا . ولم يجد لسؤال منها، جوابا عليه واحدا .... ووقع عليه القول بما ظلم فهو لاينطق . فودّ لواستطاع أن ينفذ فى الأرض هربا، فصاح به من الغيب صائح :

أخاف إن هبّت رياح الردى .·. عليك أن يأنف منك التراب .

فأخذ صاحبنا استعبار .. حتى الأرض لاتريد أن تسعفه . فضاقت عليه نفسه ، والأرض بما رحبت ، والسرادق بما حوى..وهنا صاح به الغزالى - لقد كان معه إذ يتنقّل من حال إلى حال — لاملجأ لك من الله إلاّ هو ، ففرّ منه إليه !

فنادى صاحبنا ، كما نادى أخ له من قبل ، لاإله إلاّ أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ! فأمسك الغزالى بيديه وصاح به : ولكن تذكر يابنى « إنما يتقبل الله من المتقين » فتب توبة نصوحا ، وعد إلى نفسك فانصفها ، واعطها قبل العلم .... العمل بما علمت.

— لك ذلك العهد يانفسى ، واشهد علىّ ياإمام ! صاح صاحبنا .

فشدّ الشيخ على يد فتاه ، ودعا له بخير ، ثم انطلق صوب البرّية ، ومن

ورائه صاحبنا عائدا إلى بيته ، وقد شعر بأن الله قد استجاب لدعوة شيخه له ، وأن حال الإمام قد أثّر فى حاله ، فأحسّ بقلبه يكاد يضىء ولو لم تمسسه نار ، وكأنه ولد منذ اليوم ميلادا جديدا ، يفتتح به عهدا جديد ، كلّه خير وسعادة وبركة !

فإلى غد وما غد ببعيد .... !

الفصل السادس عشر

عتاب ثقيل

أصبح صاحبنا على خير حال ، وذهب مابه من انقباض ووحشة ، فأحسّ بقلبه يخفق قويا بذكر الله وهو يتدفق إيمانا واطمئنانا .... لقد استيقظ العافى بعد طول سبات . فهو يتحرك الآن ويدفع صاحبنا دفعا قويا لأن يسير فى الطريق مسترشدا مستأنسا بذلك النور الذى جعله الله بين جنبي كل مؤمن قد استقام . وظهر الهدف ثانية أمام عيون صاحبنا يناديه ، أن أقبل ولا تخف .. وهكذا عاد صاحبنا فلبس ثانية هاته الحلة الجميلة الغريبة التى يشعر كل من يرتديها .. بالهدوء .. والثقة .. والأمان .. والاطمئنان ... والتسليم لله تسليما تنعدم فيه الإرادة ، وتفنى دونه الرغبة ، ويتلاشى بعده الخيار . فينظر الإنسان إذ ذاك للحياة نظرة الرضا وللناس بعين المحبة ، حتى مافى الحياة من شيء يسخط ، وليس فى الناس من يستأهل عداء ... إنّه القلب الذى ينسكب رقّة والنفس التى تذوب صفاء . إنه الحال الذى يعرفه أهل الذوق ، حين يهدأ القلب بين إصبعين من أصابع الرحمن !

كان صاحبنا يضع على عاتقيه — منذ أمس — هاته البردة التى نسجها الإيمان . وما أن شعر بالدفء الذى تجلبه للابسيها ، حتى تحرك فؤاده — كما رأيت — بكل معانى الحياة . هاته المعانى التى لها هيئة المكنون ، حتى لا يفصح عنها القلم وما يسطرون ! فسعى حثيثا يطلب إمامه ..

فتلقاه شيخه كما تتلق الشمس شعاعا من أشعتها ، عارفة من أين أتى ، دارية ما به جاء . إنه لا يحمل إلا ما حملته ، ولا يعود اليها إلا بما أعطته . سرّ منها . . فيه توهج . ونور . وصفاء . فكذلك كان شعاع صاحبنا حين عاد إلى شمس الإمام ، مرآة تنعكس بباهرات الضياء . انّ الغزالى ليدرى ما يحمله صاحبنا بين جنبيه من أسباب الحياة !

فما كاد ينتهى من القاء سلامه ، حتى ابتدره الغزالى . . .

« أيها الولد(١) . اجعل الهمة فى الروح ، والهزيمة فى النفس ، والموت فى البدن . لأنّ منزلك القبر . وأهل المقابر ينتظرونك فى كل لحظة متى تصل اليهم ؟ اياك اياك أن تصل اليهم بلا زاد . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : هذه الأجساد قفص الطيور واصطبل الدواب . فتفكّر فى نفسك من أيهما أنت — ان كنت من الطيور العلوية فحين تسمع طنين طبل ارجعى الى ربك تطير صاعدا الى أن تقعد فى أعلى بروج الجنان . كما قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم « اهتزّ عرش الرحمن من موت سعد ابن معاذ » . والعياذ بالله ان كنت من الدواب كما قال تعالى (أولئك كالأنعام بل هم أضلّ) فلا تأمن من انتقالك من زاوية الدار الى هاوية النار . وروى أن الحسن البصرى رحمه الله تعالى أعطى شربة ماء بارد فأخذ القدح وغشى عليه وسقط من يده فلما أفاق قيل له مالك يا أبا سعيد : قال ذكرت أمنية أهل النار حين يقولون لأهل الجنة — أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله » .

وهكذا أفصح الشيخ لمريده عمّا كان يجول بخاطره . لقد كان صاحبنا يخشى ذهاب حالة (البسط) هذه . فيسلب تلك النعمة بعد ماذاق نعيم العطاء !

---

(١) الفقرة التاسعة من رسالة أيها الولد

ويا طالما صحا قلبه ثم غفا ، كالشمس تصحو تارة وتغيب . ولكن هاهو الشيخ يرسم لفتاه خطة ،ان سار عليها فليس لحال (القبض) عليه من سبيل . لقد أوصاه - كما رأيت - بأن يجعل (الهمة فى الروح) . . . والروح من أمر ربى ، والله غالب على أمره . فمن تكن همته فى روحه ، وتكون روحه متعلقة بالعرش ، كالطير العلوى . فهمته باقية لا تفارقه الا بفراق الروح ، أو انحراف تلك - ومن حرم انحرف - عن رب العرش العظيم .

وأوصاه بأن يجعل (الهزيمة فى النفس) . . . ومن يفعل ذلك ، يصبر على ما أصابه ، فيكون ذلك من عزم الأمور . فالنفس أمارة بالسوء . والذين ينسيهم الله أنفسهم . ساء ما يعملون . فالنفس تسول ، والغافل يعمل ، ويزين له سوء عمله فيراه حسنا . وما هو بالحسن . ضل سعيه وهو يحسب أنه يحسن صنعا . . انه فى غفلة . فإن شاء الله للغافل أن ينتبه ، وللنائم أن يستيقظ ، فيتعاظمه ذنبه ، حتى ينوء بإثمه وما حمل . هنا فليأخذ حذره سريعا ولا يدع هزيمته تسيطر عليه ، فإنه لا ييأس من رحمة الله الا القوم الكافرون ، بل عليه أن يرمى ذلك الحمل - وما أثقله - عنه . يرمى به نفسه ويقول . . . وما أبرىء نفس إن النفس لأمارة بالسوء . ثم يخلص لله نجيا ، سليم القلب . طاهر الجوارح ، عذب الروح ، وان كان مثقل النفس بالحساب القديم ! فمن قهر نفسه انتصر عليها . ومن جعل الهزيمة فيها ، قدر أن يعاود النضال من جديد . يعينه القلب الصاح ، والروح المتقد . ثم تأتى النفس من خلفهما ، تطلب طريقا فيه يسيران ، باكية مستغفرة . . . وقد أفلح من أناب ! يحدث هذا ولا عجب . أليست الهمة فى الروح ، والروح وثاب ؟ فهو سائر بصاحبه نحو الترقى من حال الى حال ، وان تخلفت النفس الى حين . . تتخلص فيه مما يشوبها ، وتستعيد رشدها ، وتفىء الى أمر الله . فإن أفلحت ، فإذ ذاك ترى بعد الشوط بينها وبين الروح ، فتجد فى اثرها ، وتسعى اليها تطلبها حثيثا .

وتلك فترة جهاد . يعقبها الظفر . وان طال أوان (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين) .

والموت ؟ ذلك الرهيب ! يخشاه المرء وهو مدركه . ولو عرف قدره لهزأ به واستهان . أليس أحقر ما فى الانسان الجسد ، وأشرف ما فيه نفس وروح ؟ فالنفس باقية ، والروح خالدة . . والموت للبدن . فهل خسر الإنسان شيئا ؟ أليس الذى خلق البدن من عدم ، على رجعه بقادر ؟ (بلى وهو الخلاق العليم) فحسبنا اذن ، نفس خلدت وروح بقيت ، وليذهب الجسد . . . ان له غدا لعودة ! يوم يقوم الناس لرب العالمين . . . (يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا : هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) .

فما ذاك الرهيب الذى يخافه الغافلون ؟ ترى ماذا منا قد سلب ؟ لا شيء (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) وان تعجب فاعجب لقوم ، يضحون بخلوص أرواحهم لله ، وطهارة أنفسهم لمن خلق نفسا وما سواها ، فرارا من أذى الخلق ، ليسلم لهم أرخص ما فيهم . البدن ! والله أحق أن يخشوه ان كانوا مؤمنين . ولو حرصوا على الموت لوهبت لهم الحياة .

فكل من يجعل نصب عينيه أن « الموت فى البدن لأن منزلك القبر » . لا يخشى على الضعيف المهين ، ويرعى حق ما فى هذا الجسد . أطيرا هو أم من الدواب ؟ وذاك الجسد . . أقفصا هو أم اصطبلا ؟ ولتفكر فى نفسه كثيرا وتساءل : ترى من أيهما أنا ولتفكر أين يكون غداً فى بروج الجنان مقعده ؟ وأيهتز له عرش الرحمن ، كما اهتز لموت ابن معاذ . فيطير راجعاً إلى ربه ؟ أم يكون من الدواب بل هو أضل . فينتقل من زاوية الدار إلى هاوية النار . وهناك تصبح أمنيته أمنية أهل النار فيقول مع من فيها . . « أفيضوا

علينا من الماء أو مما رزقكم الله » ؟!

إنه إذ يتفكر الآن فى ذلك، لايسعه إلا أن يغمض عينيه ويقول . . ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون . وقنا عذاب النار .

فيجيبه الغزالى بعد مايهزه هزة عنيفة :

«أيها الولد(١). لو كان العلم المجرد كافيا لك ، ولاتحتاج إلى عمل سواه، لكان نداء ، هل من سائل ؟ هل من مستغفر ؟ هل من تائب ؟ ضائعا بلا فائدة » .

فيأخذ الوجد صاحبنا فإذا به يصيح . سأعمل يا إمامى . سأعمل ياإمامى وقد عقدت على ذلك العزم .

فيبتسم الغزالى ويمضى قائلا له

« روى(٢) أن جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين . ذكروا عبد الله بن عمر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : نعم الرجل هو لو كان يصلى بالليل . وقال عليه الصلاة والسلام لرجل من أصحابه (يافلان لاتكثر النوم بالليل فإن كثرة النوم بالليل يدع صاحبه فقيراً يوم القيامة »

وهنا أطرق صاحبنا برأسه . لقد فهم ماعناه شيخه بهذا ! .. إنه ليلفت نظره ويحذره أن يكون مع مثل هذا الفقير يوم القيامة ! فإن الرقاد حبيب إلى نفسه ، وياطالما نهى النفس عنه فلم تجب . ترى هل آن لها الآن أن تجيب؟ أترى نصر الله والفتح قريب ؟ إن الرفاهية فى طبعه . وذاك خلق للصوفى

---

(١) الفقرة العاشرة من رسالة أيها الولد

(٢) تكملة الفقرة العاشرة من رسالة أيها الولد

غير حميد . قد ودّ كثيرا أن يكون فى التقشّف مثلهم ، فلم تجبه الأمانى ولم يسعفه الطبع العنيد . والغزالى عنه ساكت . . ولكن لكل شىء نهاية، وقد آن له الآن أن يتكلم . وحق للشيخ عتاب المريد . .

« أيها الولد(١) . ومن الليل فتهجّد به أمرٌ . وبالأسحار هم يستغفرون شكر . والمستغفرون بالأسحار ذكر . قال عليه السلام (ثلاثة أصوات يحبها الله تعالى : صوت الديك ، وصوت الذى يقرأ القرآن ، وصوت المستغفرين بالأسحار) قال سفيان الثورى رحمه الله تعالى عليه . إن الله تبارك وتعالى خلق ريحا تهب بالأسحار ، تحمل الاذكار والاستغفار إلى الملك الجبّار . وقال أيضا اذا كان أول الليل ينادى مناد من تحت العرش : ألا ليقم العابدون . فيقومون ويصلون الى السحر . فإذا كان السحر نادى مناد ألا ليقم المستغفرون فيقومون ويستغفرون . فإذا طلع الفجر نادى مناد ألا ليقم الغافلون فيقومون من فروشهم كالموتى نشروا من قبورهم »

أخذ صاحبنا ينظر فى أىّ مقام من مقامات القوم هو ؟ وأىّ مناد من هؤلاء قد لبى نداءه ؟ فسكن عند منادى الفجر ينادى الغافلين ! وقد يلبيه مرّة ، أو يجر الغطاء فيخفى تحته رأسه أخرى ، حتى لايسمع النداء فيقوم ولو قومة الغافلين !

ترى ماذا يساوى صاحبنا ؟ راح يقيس نفسه بأصحاب النداء الأول . . فلم يصل الى سمعه نداء المنادى من تحت العرش .. لازالت بينه وبين أن يسمعه أشواط ! أين هو من أولئك الذين تحوم أرواحهم حول العرش العظيم ؟ ! .

---

(١) الفقرة الحادية عشر من رسالة أيها الولد

فأخذ ينظر قدر نفسه بين القانتين .. المصلّين الى السحر ، فلم ير على

جبهته أثر من أحيي الليل فى السهر ، وأولئك تعرفهم بسيماهم ، فى المحيّا نور، وعلى الجباه من السجود أثر .رضى الله عنهم ورضوا عنه ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما. أقصر فؤادى!

فراح يقارن نفسه بالقائمين المستغفرين ، أصحاب النداء الثالث فلم يسمع صدى لصوته معهم اذ يستغفرون بالسحر. فهالته المقارنة ونال منه القياس إنه كالذرّة بالنسبة لهؤلاء انه على الأرض وأولئك .. فى السماء. مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء .. وحسن أولئك رفيقا .

ان مكانه مع الذين يقومون من فروشهم كالموتى نشروا من قبورهم أولئك هم الغافلون . أصحاب النداء الرابع

فمتى يفق من غفلته : أما لهذا السهو يارب آخر ؟

أجل يابنى . أجابه الغزالى - تستطيع ذلك إذا قارنت نفسك، لا بهؤلاء القوم الذين رفعهم الله مكانا عليا ، بل بمخلوق ممّن خلق الرحمن ضعيف .

فإذا عرفت تميّز ذلك الضعيف المهين عنك ، فاستح من نفسك ومن الله. وأزيدك :

« أيها الولد[1]. روى فى وصايا لقمان الحكيم لابنه أنه قال : يابنى لا لا يكونّن الديك أكيس منك ينادى بالأسحار وأنت نائم . ولقد أحسن من

---

(١) الفقرة الثانية عشر من رسالة أيها الولد .

قال شعرا :

لقد هتفت فى جنح الليل حمامة

على فنن وهنا وإنى لنائم

كذبت وبيت الله لو كنت عاشقا

لما سبقتنى بالبكاء الحمائم

وأزعم أنى هائم ذو صبابة

لربى فلا أبكى وتبكى البهائم».

فأخذ صاحبنا خجل شديد، حتى ليكاد الدم يتفجر من وجنيه حياء. ان الغزالى لم يجد له ما يقارنه به من خلق الله، سوى البهائم حتى هذه تبكى ولا يبكى هو. فخير منه ديك فى السحر، ينادى قوما بالأسحار هم يستغفرون. وحمامة على فنن، تبكى فيشجى لبكائها العارفون فما لصاحبنا وأصحاب النداء. ولينظر قدره عند البهائم، سابقاته بالبكاء!

ما أقسى تعنيف الغزالى إذا عنّف. ولكن أتراه كان يصحو على غير هذه القسوة؟ لقد كان به الغرور، فراح يتلمّس نفسه عند أصحاب الدرجات العلى.. من متهجد، وقانت، ومستغفر... فإذا أقرانه ـ له الويل ـ حمامة على فنن، وتفضله، وديك ينادى بالأسحار وهو منه أكيس، ربّاه ما كان ذلك ظنّى .. .. ولولاك أنت ياشيخى لظللت فى الغافلين رحم الله امرءا عرف قدر نفسه،

صدقت يابنى. أهاب به الغزالى ـ وخير لك أن تنزل بنفسك حين تحكم عليها، فيرتفع بها الله، من أن تزكيها بما ليس فيها، والله أعلم بما فى صدور العالمين. فتعجب بها من حيث كان حريّا بك أن تعيبها وتلوم.

ضع لنفسك الموازين القسط ، قبل أن توضع لك . واعرف قدرك على حقيقته قبل أن يعرّفه الله لك ، على رءوس الأشهاد . يوم تبيض وجوه وتسوّد وجوه . ولا ينفع نفس إيمانها ، لم تك آمنت من قبل ، والأمر يومئذ لله

— صدقت يا إمامى أكذب
وأزعم أنى هائم ذو صبابة
لربى فلا أبكى وتبكى البهائم !

سأحاسب نفسى ذلك الحساب ، وأذكرها قدرها إذا نسيت ، عسى أن يهدينى ربى . فدعا الغزالى لفتاه بخير وقال له : أما وقد انتهيت بك عند هذه النقطة فى « المراقبة » ، ووقفت بك عند هـذه الدرجة من درجات « المحاسبة » ، فغداً أحدّثك — بمشيئة الله — فى خلاصة العلم ماهى؟..

الفصل السابع عشر

الغزالى يقدم لفتاه خلاصة العلم !

أخذ صاحبنا سبيله نحو البيت ، إذ كان الغروب ، ليؤدى الفريضة ... وهناك فى مكانها المختار ، اطمأن به المجلس بعد أن فرغ من الصلاة . فجلس ينتظر إمامه ، مستمداً البركات من مكان تتجه اليه أنظار المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها . حيث يولون وجوههم شطره . وقد كان يشعر إذ يجلس خاشعا ، بأن هاته الأنظار التى لاتدخل تحت حصر ، والتى تتجه صوب البيت ، وقد أخذت تحاصره وتضرب حواليه نطاقا من أشعة قلوب أصحابها ، فيهتز . . . ويساقط دمعه ، ويشعر برهبة فى الله . . . ومحبة تغمر قلبه ، واطمئنان يسيطر على نفسه ، وراحة تغشى جوانحه ، ومن وراء ذلك كله ... إيمان محيط . يتفجر من قلبه ، فيفيض من عيونه ، دمعا مما عرف من الحق . وفى كل دمعة معنى . وفى كل معنى من هاته المعانى ، سر من أسرار القلوب . لايعلمه إلا الذى يدرى ماتفيض به الأعين ، وما تخفى الصدور ! ولبث صاحبنا ينظم من دمعه قصيدة صامتة . . . حزينة علوية ... فيها شجى وفيها طرب .. فيها ندم وفيها أمل . . فيها استغفار لما تعاظم من الذنب . وفيها أمل لما يحييه فى النفس الرجاء . فهى تسبيح وصلاة ودعاء ... والناس من حوله لاتحس بشىء من هذا ، ولا ترى من ذلك كله — ولهم العذر — غير دمع يتبعه دمع . فيحسبون هذا بكاء ، على ما اصطلحوا عليه فى تعاريفهم . وما كان هذا بكاء . بماذا أسميه ؟! ذاك

ماليس له في قاموس الناس من جواب! فسلوا أرباب القلوب وأقصروا ، إنما يعرف السرّ من ذاق !

لبث صاحبنا في جلسته العابدة ، تسبح روحه في ذلك العالم الغريب الحبيب . حتى أفاق على هزّة بكتفه رفيقة ... إنها يد الغزالى .. فأفاق . ونهض يحيي شيخه .. فأجلسه الشيخ وأخذ يحنو عليه حنوّ المرضعات على الفطيم . إنه ليدرى جيدا ، كم يتعذب صاحبنا ، فيشقى ويسعد . حين يرتقى من « حال » إلى « حال » : ترى أين يستقرّ به « المقام » يوما ؟ — وهنا أخذ الإمام يمدّ مريده بنفحات منه ، ويؤثّر فيه بقوة حاله ، حتى سكنت نفس المريد إلى نفس شيخه ، كما يسكن الشعاع المتقلقل ، على صفحة الماء ، قد سكنت عنه الرياح ، فبدا صافيا يتلألأ . . ثم أخـــذ نسيم الروح يسرى هينا ، فاهتزّ الشعاع طربا ، وذاب في لجين الماء ! وآنئذ ابتدأ الغزالى درسه :

« أيها الولد (١) . خلاصة العلم أن تعلم الطاعة والعبادة ماهى . (أعلم) أن الطاعة والعبادة متابعة الشارع فى الأوامر والنواهى بالقول والفعل : يعنى كل ماتقول وتفعل وتترك يكون باقتداء الشرع . كالو صمت يوم العيد وأيام التشريق تكون عاصيا . أو صليت فى ثوب مغصوب ، وإن كانت صورة عبادة تأثم » .

ثم سكت الغزالى وأطرق برأسه لحظة ، ثم عاد فاستأنف حديثه... وعلى ذلك :

« أيها الولد (٢) . ينبغى لك أن يكون قولك وفعلك موافقا للشرع .

(١) الفقرة الثالثة عشر من رسالة أيها الولد

(٢) الفقرة الرابعة عشر من رسالة أيها الولد

إذ العلم والعمل بلا اقتداء الشرع ضلالة . وينبغى لك أن لاتغتر بالشطح وطامات الصوفية ، لأن سلوك هذا الطريق يكون بالمجاهدة وقطع شهوة النفس ، وقتل هواها بسيف الرياضة ، لا بالطامات والترّهات. (وأعلم) أن اللسان المطلق والقلب المغلق المملوء بالغفلة والشهوة ، علامة الشقاوة وإن لم تقتل النفس بصدق المجاهدة ، فلن يحيا قلبك بأنوار المعرفة. (وأعلم) أن بعض مسائلك (١) التى سألتنى عنها لايستقيم جوابها بالكتابة والقول. إن تبلغ الحالة تعرف ماهى ، وإلا فعلمها من المستحيلات لأنها ذوقية . وكل مايكون ذوقيا ، لايستقيم وصفه بالقول ، كحلاوة الحلو ، ومرارة المر ، لايعرف إلا بالذوق كما حكى . أن عنيا كتب إلى صاحب له أن عرّفنى لذة المجامعة كيف تكون ؟ فكتب له فى جوابه : يافلان إنى كنت حسبتك عنيّا فقط — الآن عرفت أنك عنين وأحمق — لأن هذه اللذة ذوقية . إن تصل اليها تعرف والا لايستقيم وصفها بالقول والكتابة »

« أيها الولد (٢) .بعض مسائلك من هذا القبيل — وأما البعض الذى يستقيم له الجواب فقد ذكرناه فى احياء علوم الدين وغيره : ونذكر هاهنا نبذا منه ونشير اليه فنقول : قد وجب على السالك أربعة أمور . (الأمر الأول) اعتقاد صحيح لايكون فيه بدعة (والثانى) توبة نصوح لايرجع بعدها الى الزلة . (والثالث) استرضاء الخصوم حتى لايبقى لأحد عليك حق . (الرابع) تحصيل علم الشريعة قدر ماتؤدى به أوامر الله تعالى . ثم من علوم الآخرة ما تكون به النجاة . حكى أن الشبلى رحمه الله خدم

---

(١) راجع ماورد فى رسالة صاحبنا للغزالى . وقد جاء كلام الغزالى متوافقا مع ماأورده صاحبنا من باب التلازم والتشابه كما جاء فى مقدمة هذا الكتاب. المؤلف.

(٢) الفقرة الخامسة عشر من رسالة أيها الولد

أربعمائة أستاذ . وقال قرأت أربعة آلاف حديث : ثم اخترتُ منها حديثا واحدا وعملت به وخليت ما سواه . لأنى تأملته فوجدت خلاصى ونجاتى فيه . وكان علم الأولين والآخرين كله مندرجا فيه ، فاكتفيت به ، وذلك أن رسول الله صلىّ الله عليه وسلم قال لبعض أصحابه (اعمل لدنياك بقدر مقامك فيها ، واعمل لآخرتك بقدر بقائك فيها ، واعمل لله بقدر حاجتك اليه ، واعمد للنار بقدر صبرك عليها ،

« أيها الولد (١) . إذا علمت هـــذا الحديث ، لاحاجة لك إلى العلم الكثير . وتأمل فى حكايات أخرى - وذلك أن حاتم الأصم كان من أصحاب الشقيق البلخى رحمة الله تعالى عليهما . فسأله يوما قال صاحبتنى منذ ثلاثين سنة ماحصلت فيها ؟ قال . حصلت ثمانى فوائد من العلم وهى تكفينى منه لأنى أرجو خلاصى ونجاتى فيها . فقال شقيق ماهى ؟ قال حاتم الأصم . (الفائدة الأولى) إنى نظرت إلى الخلق فرأيت لكل منهم محبوبا ومعشوقا يحبه ويعشقه ، وبعض ذلك المحبوب يصاحبه إلى مرض الموت وبعضه إلى شفير القبر . ثم يرجع كله ويتركه فريدا وحيدا ولا يدخل معه فى قبره منهم أحد . فتفكرت وقلت أفضل محبوب المرء مايدخل فى قبره ويؤانسه فيه ، فما وجدته غير الأعمال الصالحة ، فأخذتها محبوبا لى ، لتكون سراجا لى فى قبرى ، وتؤانسنى فيه ولا تتركنى فريدا . (الفائدة الثانية) إنى رأيت الخلق يقتدون بأهوائهم ويبادرون إلى مرادات أنفسهم ، فتأملت قوله تعالى (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى) وتيقنت أنّ القرآن حق صادق فبادرت إلى خلاف نفسى وتشمرت بمجاهدتها بهداها حتى رضيت بطاعة الله سبحانه وتعالى وانقادت .

---

(١) الفقرة السادسة عشر من رسالة أيها الولد

(الفائدة الثالثة) إنى رأيت كل واحد من الناس يسعى فى جمع حطام الدنيا ثم يمسكها قابضا يده عليها ، فتأملت فى قوله تعالى (ماعندكم ينفد وما عند الله باق) فبذلت محصولى من الدنيا لوجه الله تعالى ففرقته بين المساكين ليكون ذخرا لى عند الله تعالى . (الفائدة الرابعة) إنى رأيت بعض الخلق ظن شرفه وعزه فى كثرة الأقوام والعشائر فاغتر بهم . وزعم آخرون أنه فى ثروة الأموال وكثرة الأولاد فافتخروا بها . وحسب بعضهم الشرف والعز فى غصب أموال الناس وظلمهم وسفك دمائهم . واعتقدت طائفة أنه فى اتلاف المال واسرافه وتبذيره وتأملت فى قوله تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) فاخترت التقوى واعتقدت أن القرآن حق صادق ، وظنهم وحسبانهم كلها باطل زائل . (الفائدة الخامسة) انى رأيت الناس يذم بعضهم بعضا ويغتاب بعضهم بعضا ، فوجدت ذلك من الحسد فى المال والجاه والعلم . فتأملت فى قوله تعالى (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا) فعلمت أن القسمة كانت من الله تعالى فى الأزل . فما حسدت أحدا ورضيت بقسمة الله تعالى . (الفائدة السادسة) إنى رأيت الناس يعادى بعضهم بعضا لغرض وسبب فتأملت قوله تعالى (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا) فعلمت أنه لاتجوز عداوة أحد غير الشيطان . (الفائدة السابعة) إنى رأيت كل أحد يسعى بجد ويجتهد بمبالغة لطلب القوت والمعاش بحيث يقع به فى شبهة وحرام ، ويذل نفسه ، وينقص قدره ، فتأملت فى قوله تعالى (وما من دابة فى الأرض إلاّ على الله رزقها) فعلمت أن رزقى على الله تعالى وقد ضمنه فاشتغلت بعبادته وقطعت طمعى عمن سواه . (الفائدة الثامنة) إنى رأيت كل أحد معتمدا على شيء مخلوق . بعضهم إلى الدنيا والدرهم . وبعضهم إلى المال والملك . وبعضهم إلى الحرفة والصناعة ، وبعضهم إلى مخلوق مثله ، فتأملت فى قوله تعالى (ومن يتوكل

على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا) فتوكلت على الله فهو حسبي ونعم الوكيل . فقال شقيق وفقك الله تعالى إني قد نظرت التوراة والانجيل والزبور والفرقان فوجدت الكتب الأربعة تدور على هذه الفوائد الثمانية . فمن عمل بها كان عاملا بهذه الكتب الأربعة » .

« أيها الولد (١) . قد علمت من هاتين الحكايتين أنك لاتحتاج إلى كثير العلم . والآن أبين لك مايجب على سالك سبيل الحق . (فاعلم) أنه ينبغي لك شيخ مريد مربى ليخرج الأخلاق السيئة منك بتربيته ويجعل مكانها خلقا حسنا . ومعنى التربية يشبه فعل الفلاح الذى يقلع الشوك ويخرج النباتات الأجنبية من بين الزرع ليحسن نباته ويكمل ريعه . ولا بد للسالك من شيخ يؤدبه ويرشده إلى سبيل الله تعالى لأن الله أرسل للعباد رسولا للإرشاد إلى سبيله . فإذا ارتحل صلى الله عليه وسلم فقد خلف الخلفاء مكانه حتى يرشدوا إلى الله تعالى . وشرط الشيخ الذى يصلح أن يكون نائبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم . أن يكون عالما — ولكن لا كل عالم يصلح للخلافة وإنى أبين لك بعض علاماته على سبيل الإجمال ، حتى لايدعى كل أحد أنه مرشد . فنقول : من يعرض عن حب الدنيا وحب الجاه وكان قد تابع لشيخ بصير يتسلسل متابعته إلى سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم . وكان محسنا رياضة نفسه من قلة الأكل والقول والنوم ، وكثرة الصلوات والصدقة والصوم . وكان بمتابعته الشيخ البصير جاعلا محاسن الأخلاق له سيرة ، كالصبر والصلاة والشكر والتوكل واليقين والقناعة وطمأنينة النفس ، والحلم والتواضع والعلم والصدق والحياء والوفاء

(١) الفقرة السابعة عشر من رسالة أيها الولد

والوقار والسكون والتأنى وأمثالها ، فهو إذن نور من أنوار النبى صلى الله عليه وسلم يصلح للاقتداء به . ولكن وجود مثله نادر أعز من الكبريت الأحمر . ومن ساعدته السعادة فوجد شيخا كما ذكرنا وقبله الشيخ ، ينبغى أن يحترمه ظاهرا وباطنا . أما احترام الظاهر فهو أن لا يجادله ولا يشتغل بالاجتماع معه فى كل مسألة ،وان علم خطأه . ولا يلقى بين يديه سجادته الا وقت أداء الصلاة ، فإذا فرغ يرفعها . ولا يكثر نوافل الصلاة بحضرته . ويعمل ما يأمره الشيخ من العمل بقدر وسعه وطاقته . وأما احترام الباطن فهو أن كل ما يسمع ويقبل منه فى الظاهر ، لا ينكره فى الباطن ، لا فعلا ولا قولا ، لئلا يتسم بالنفاق . وان لم يستطع يترك صحبته الى أن يوافق ظاهره باطنه . ويحترز من مجالسة صاحب السوء ليقصر ولاية شياطين الجن والإنس من صحن قلبه ، فيصفى عن لوث الشيطنة . وعلى كل حال يختار الفقر على الغنى . (ثم اعلم) أن التصوف له خصلتان ، الاستقامة ، والسكون عن الخلق . فمن استقام وأحسن خلقه بالناس وعاملهم بالحلم فهو صوفى . والاستقامه أن يفدى حظ نفسه لنفسه . وحسن الخلق مع الناس أن لا تحمل الناس على مراد نفسك ، بل تحمل نفسك على مرادهم ، مالم يخالفوا الشرع » .

- فما العبودية يا إمام ؟

- «[1] هى ثلاثه أشياء (أحدها) محافظة أمر الشرع (وثانيها) الرضاء بالقضاء والقدر وقسمة الله تعالى . (وثالثها) ترك رضا نفسك فى طلب رضاء الله تعالى »

---

(١) تكملة الفقرة السابعة عشر من رسالة أيها الولد

- فما التوكل ياشيخى ؟

(١) هو أن تستحكم اعتقادك بالله تعالى فيما وعد . يعنى تعتقد أنّ ماقدّر لك سيصل اليك لامحالة ، وإن اجتهد كل من فى العالم على صرفه عنك . ومالم يكتب لن يصل اليك وإن ساعدك الجميع ».

- فما الاخلاص ياإمامى ؟

(٢) هو أن تكون أعمالك كلها لله تعالى . ولا يرتاح قلبك بمحامد الناس ، ولا تبالى بمذمتهم . (واعلم) أن الرياء يتولد من تعظيم الخلق . وعلاجه أن تراهم مسخّرين تحت القدرة ، وتحسبهم كالجمادات ، فى عدم قدرة إيصال الراحة والمشقة ؟ لتخلص من مراآتهم . ومتى تحسبهم ذوى قدرة وإرادة ، لن يبعد عنك الرياء ».

- وفقنى الله ياشيخى ، فأكون بهذا من العاملين ، لكن أيأذن لى إمامى بسؤال ؟

- سل يابنى ماتشاء .

- لقد أفدتنى فى صحبتك طيلة هذه المدة ، بما لا أستطيع احصاءه ، وقد أجبتنى عن معظم ماسألتك فى رسالتى . (٣) فشفيت نفسى بما حدثت ،

---

(١) تكملة الفقرة السابعة عشر من رسالة أيها الولد

(٢) تكملة الفقرة السابعة عشر من رسالة ايها الولد

(٣) رسالة الفتى لشيخه الفصل الثانى

ولكن بقيت أشياء لم تحدثنى بعد عنها ، وبى من شوق عرفانها ، ما ليس يخفى عليك خبره .

«أيها الولد. (١) الباقى من مسألك بعضها مسطور فى مصنفاتى فاطلبه ثمة . وكتابة بعضها حرام اعمل أنت بما تعلم ، لينكشف لك مالم تعلم ».

وعلى ذلك

« أيها الولد (٢) بعد اليوم لا تسألنى ما أشكل عليك الا بلسان الجنان لقوله تعالى (ولو أنهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيرا لهم) . واقبل نصيحة الخضر عليه السلام حين قال (فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا) ولا تستعجل حتى تبلغ أوانه ، يكشف لك وتراه (سأريكم آياتى فلا تستعجلون) . فلا تسألنى قبل الوقت : وتيقن انك لن تصل الا بالسير لقوله تعالى (أو لم يسيروا فى الارض فينظروا) . »

ـ ان « الطريق » صعب يا إمامى ، وشد ما أتعبنى فيه « سير » .

ـ « أيها الولد (٣) . بالله ان تسر تر العجائب فى كل منزل . وابذل روحك فإن رأس هذا الأمر بذل الروح . فتعال والا فلا تشتغل بترهات الصوفية »

ـ فما سبيلى الى هذه الدرجة يا إمامى . أأعتزل الناس ، وأقطع ما بينى وبينهم من سبب ، أم أصحبهم على كره ، وأعاشرهم على حذر ؟

ـ يابنى (٤) (ان للناس اختلافا كثيرا فى العزلة والمخالطة ، وتفضيل

(١) الفقرة الثامنة عشر من رسالة ايها الولد .

(٢) « التاسعة عشر من رسالة ايها الولد .

(٣) الفقرة العشرون من رسالة ايها الولد .

(٤) ص ١٩٧ ، ٢٠٠ احياء . باب العزلة .

احداهما على الاخرى مع أن كل واحدة منهما، لا تنفك عن غوائل تنفر منها وفوائد تدعو اليها. وميل أكثر العباد والزهاد الى اختيار العزلة وتفضيلها على المخالطة، .. .. ولكن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص ..) وأنت يابنى ممّن يستفيدون من العزلة فهى تمكنك «(١) من تحصيل الطاعات فى الخلوة والمواظبة على العبادة والفكر وتربية العلم وتخليصك من ارتكاب المناهى التى يتعرض الانسان لها بالمخالطة. كالرياء والغيبة والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومسارقة الطبع من الاخلاق الدنيئة والأعمال الخبيثة من جلساء السوء. وتمكنك من التخلص من المحذورات التى يتعرض لها بالمخالطة كالنظر الى زهرة الدنيا واقبال الخلق عليها. وطمعك (٢) فى الناس وطمع الناس فيك وانكشاف ستر مروءتك بالمخالطة والتأذى بسوء خلق الجليس فى مراءاته أو سوء ظنه أو نميمته أو محاسدته أو التأذى بثقله وتشويه خلقته، والى هذا ترجع مجامع فوائد العزلة».

فع ذلك جيدا يابنى، وان أردت العزلة لبذل الروح كما قال ذو النون، فلتكن عزلتك لما ذكرته لك من أسباب. ولكن «أعلم(٣) أن من المقاصد الدينية والدينوية ما يستفاد بالاستعانة بالغير، ولا يحصل ذلك الا بالمخالطة. فكل من المخالطة يفوت بالعزلة. وفواته من آفات العزله فانظر الى فوائد المخالطة والدواعى اليها. ماهى؟ وهى التعليم والتعلم والنفع والانتفاع والتأديب والتأدب والاستئناس والإيناس ونيل الثواب وانالته فى القيام بالحقوق

(١) ص ١ . احياء .

(٢) الخطاب فى الاصل بالهاء ولكن استبدلت كاف المخاطبة بالهاء، ليستقيم المعنى لنا. المؤلف.

(٣) احياء ص ٢١٠

واعتياد التواضع واستفادة التجارب من مشاهدة الاحوال والاعتبار بها، فلا تجعلن يابنى مخالطتك الناس إلا لسبب من هاته الاسباب التى ذكرتها لك. وهنا تكون المخالطة فى موضعها، كما كانت العزلة فى موضعها، تقوية لك على بذل الروح، على ما نصح ذو النون مريده!

والآن .. حسبك هذا يابنى.

فهتف صاحبنا . ان لى عند شيخى رجاء . لو أذن لى أبديته .

ـ سل يابنى ماتشاء .

ـ أسألك أن تخصنى بنصيحة منك ، أجعلها نصب عينى عمرى

ـ سأفعل ذلك غدا ان شاء الله .. أجابه الغزالى ، وقدهم واقفا ممسكا بعصاته ، ومثبتا على عاتقه ركوته . ثم انطلق صوب البريه .. حيث محرابه وحيث لا يشغله عن الله... انس ولا جان!

الفصل الثامن عشر

نصيحة الغزالى لفتاه

جلس الفتى الى شيخه خاشعا ينصت له ...

« أيها الولد (١) . انى انصحك بثمانية أشياء . اقبلها منى لئلا يكون علمك خصما عليك يوم القيامة . تعمل منها أربعة وتدع منها أربعة . أما اللواتى تدع :

(أحدها) ألا تناظر أحداً فى مسألة ما استطعت ، لأن فيها آفات كثيرة فإثمها أكبر من نفعها اذ هى منبع كل خلق ذميم . كالرياء والحسد والكبر والحقد والعداوة والمباهاة وغيرها . نعم لو وقع مسألة بينك وبين شخص أو قوم وكانت ارادتك فيها أن تظهر الحق ولا يضيع جاز البحث، لكن لتلك الارادة علامتان (احداهما) ألا تفرق بين أن ينكشف الحق على لسانك أو على لسان غيرك . (والثانية) أن يكون البحث فى الخلاء أحب اليك من أن يكون فى الملأ - واسمع انى أذكر لك ههنا فائدة ، واعلم ، أن السؤال عن المشكلات عرض مرض القلب على الطبيب ، والجواب له سعى لإصلاح مرضه . واعلم ، أن الجاهلين المرضى قلوبهم والعلماء والأطباء والعالم الناقص لا يحسن المعالجة والعالم الكامل لا يعالج كل مريض بل يعالج من يرجو فيه قبول المعالجة والصلاح . واذا كانت العلة مزمنة أو عقيما لا تقبل العلاج، فحذاقة الطبيب فيه أن يقول هذا لا يقبل العلاج فلا تشتغل فيه بمداواته لأن فيه تضييع العمر . ثم اعلم أن مرض الجهل على أربعة أنواع . (أحدها) يقبل العلاج والباقى لا يقبل

(١) الفقرة الواحدة بعد العشرين من رسالة ايها الولد .

أما الذى لا يقبل . أحدها من كان سؤاله وإعراضه عن حسده ونقصه فكلما تجيبه بأحسن الجواب وأفصحه وأوضحه فلا يزيد له ذلك إلا بغضا وعداوة وحسدا . فالطريق أن لا تشتغل بجوابه فقد قيل

كل العداوة قد ترجى ازالتها

إلا عداوة من عاداك عن حسد

فينبغى لك أن تعرض عنه وتتركه مع مرضه . قال الله تعالى (فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا) . والحسود بكل مايقول ويفعل يوقد النار فى زرع علمه .

الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب . (والثانى) أن تكون علته من الحماقة وهو أيضا لا يقبل العلاج كما قال عيسى عليه السلام . إنى ماعجزت عن إحياء الموتى ، وقد عجزت عن معالجة الأحمق . وذلك رجل يشتغل بطلب العلم زمنا قليلا ويتعلم شيئا من العلوم العقلى والشرعى فيسأل ويعترض من حماقته على العالم الكبير الذى مضى عمره فى العلوم العقلية والشرعية وهذا الأحمق لا يعلم ويظن أن ما أشكل عليه هو أيضا مشكل للعالم الكبير . فإذا لم يعلم هذا القدر يكون سؤاله من الحماقة فينبغى ألا يشتغل بجوابه . (والثالث) أن يكون مسترشدا وكل ما لا يفهم من كلام الأكابر يحمل على قصور فهمه وكان سؤاله للإستفادة لكن يكون بليدا لا يدرك الحقائق فلا ينبغى الاشتغال بجوابه أيضا كما قال رسول الله ﷺ (نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم) . وأما المرض الذى يقبل العلاج ، فهو أن يكون مسترشدا عاقلا فهما لا يكون مغلوب الحسد والغضب وحب الشهوة والجاه والمال . ويكون طالب الطريق المستقيم

ولم يكن سؤاله واعتراضه عن حسد وتعنت وامتحان — وهذا يقبل العلاج فيجوز أن تشتغل بجواب سؤاله بل يجب عليك إجابته .

(والثانى مما تدع) وهو أن تحذر من أن تكون واعظا ومذكرا لأن فيه آفة كبيرة إلا أن تعمل بما تقول أولا ثم تعظ به الناس . فتفكر فيما قيل لعيسى عليه السلام . يا ابن مريم عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس والا فاستحى ربك . وان ابتليت بهذا العمل فاحترز من خصلتين (الأولى) عن التكلف فى الكلام بالعبارات والاشارات والطامات والأبيات والأشعار لأن الله تعالى يبغض المتكلفين . والمتكلف المتجاوز عن الحد يدل على خراب الباطن وغفلة القلب . ومعنى التذكير أن يذكر العبد نار الآخرة وتقصير نفسه فى خدمة الخالق . ويتفكر فى عمره الماضى الذى أفناه فيما لايعنيه ، ويتفكر فيما بين يديه من العقبات من عدم سلامة الإيمان فى الخاتمة وكيفية حاله فى قبض ملك الموت . وهل يقدر على جواب منكر ونكير . ويهتم بحاله فى القيامة ومواقفها . أيعبر على الصراط سالما أم يقع فى الهاوية؟ ويستمر ذكر هذه الأشياء فى قلبه فيزعجه عن قراره . فغليان هذه النيران ، ونوحة هذه المصائب يسمى تذكيرا . وإعلام الخلق وإطلاعهم على هذه الأشياء وتنبيههم على تقصيرهم وتفريطهم وتبصيرهم بعيوب أنفسهم لتمس حرارة هذه النيران أهل المجلس وتزعجهم تلك المصائب ليتداركوا العمر الماضى بقدر الطاقة ، ويتحسروا على الأيام الخالية غير طاعة الله تعالى . هذه الجملة على هذا الطريق يسمى وعظا ، كما لو رأيت أن السيل قد هجم على دار أحد وكان هو وأهله فيها فتقول الحذر الحذر فروا من السيل . وهل يشتهى قلبك فى هذه الحالة أن تخبر صاحب الدار خبرك بتكليف العبارات

والنكت والإشارات ، فلا تشتهى البتّه ، فكذلك حال الواعظ ، فينبغى أن يتجنبها .

(والخطة الثانية) ألا تكون همتك فى وعظك أن ينفر الخلق فى مجلسك أو يظهروا الوجد ويشقوا الثياب ليقال نعم المجلس هذا . لأن كله ميل للدنيا وهو يتولدّ من الغفلة . بل ينبغى أن يكون عزمك وهمتك أن تدعو الناس من الدنيا إلى الآخرة ، ومن المعصية إلى الطاعة ، ومن الحرص إلى الزهد ، ومن البخل إلى السخاء ، ومن الغرور إلى التقوى . وتحبّب إليهم الآخرة ، وتبغض إليهم الدنيا ، وتعلمهم علم العبادة والزهد لأن الغالب فى طباعهم الزيغ عن منهج الشرع والسعى فيما لا يرضى الله تعالى به والاستعثار بالأخلاق الردّية . فالق فى قلوبهم الرعب وروعهم وحذرهم عما يستقبلون من المخاوف .

ولعل صفات باطنهم تتغير ، ومعاملة ظاهرهم تتبدل . ويظهروا الحرص والرغبة فى الطاعة ، والرجوع عن المعصية — وهذا طريق الوعظ والنصيحة . وكل وعظ لا يكون هكذا فهو وبال على من قال ويسمع بل قيل أنه غول وشيطان يذهب بالخلق عن الطريق ويهلكهم . فيجب عليهم أن يفرّوا منه ، لأن ما يفيد هذا القائل من دينهم لا يستطيع بمثله الشيطان . ومن كانت له يد وقدرة يجب عليه أن ينزله عن منابر المواعظ ويمنعه عما باشر ، فإنه من جملة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر .

(والثالث مما تدع) أن لا تخالط الامراء والسلاطين ولا تراهم لان رؤيتهم ومجالستهم ومخالطتهم آفة عظيمة . ولو ابتليت بها دع عنك مدحهم

وثناءهم لأن الله تعالى يغضب إذا مدح الفاسق والظالم . ومن دعا لطول بقائهم فقد أحب أن يعصى الله فى أرضه .

(والرابع مما تدع) ألا تقبل شيئا من عطايا الامراء وهداياهم وان علمت أنها من الحلال ، لان الطمع فيهم يفسد الدين ، لأنه يتولد منه المداهنة ومراعاة جانبهم والموافقة فى ظلمهم — وهذا كله فساد فى الدين وأقل مضرته انك اذا قبلت عطاياهم وانتفعت من دنياهم أحببتهم ، ومن أحب أحدا يحب طول عمره وبقائه بالضرورة . وفى محبة بقاء الظالم إرادة فى الظلم على عباد الله تعالى وارادة خراب العالم . فأى شىء يكون أضر من هذا الدين والعاقبة .

واياك إياك أن يخدعك استهواء الشياطين أو قول بعض الناس لك بأن الأفضل والأولى أن تأخذ الدينار والدرهم منهم وتفرقها بين الفقراء والمساكين فإنهم ينفقون فى الفسق والمعصية وإنفاقك على ضعفاء الناس خير من إنفاقهم ، فإن اللعين قد قطع أعناق كثير من الناس بهذه الوسوسة . وقد ذكرناه فى إحياء علوم الدين فاطلبه ثمة .

وأما الأربعة التى ينبغى لك أن تفعلها

(الأول) أن تجعل معاملتك مع الله تعالى . بحيث لو عاملك بها عبدك ترضى بها منه ولا يضيق خاطرك عليه ولا تغضب . والذى لا ترضى لنفسك من عبدك المجازى فلا ترضى أيضا لله تعالى وهو سيدك الحقيق .

(والثانى) كل ما عملت بالناس اجعله كما ترضى لنفسك منهم لانه لا يكمل ايمان عبد حتى يحب لسائر الناس ما يحب لنفسه .

(والثالث) اذا قرأت العلم أو طالعته ، ينبغى أن يكون علمك يصلح قلبك ، ويزكى نفسك . كما لو علمت أن عمرك ما يبقى غير أسبوع فبالضرورة لا تشتغل فيها بعلم الفقه والاخلاق والاصول والكلام وأمثالها لانك تعلم أن هذه العلوم لا تغنيك . بل تشتغل بمراقبة القلب ومعرفة صفات النفس ، والاعراض عن علائق الدنيا ، وتزكى نفسك عن الاخلاق الذميمة . وتشتغل بمحبة الله تعالى وعبادته ، والاتصاف بالاوصاف الحسنة . . ولا يمرّ على عبد يوم وليلة الا ويمكن أن يكون موته فيه) .

(أيها الولد[1] . اسمع منى كلاما آخر وتفكر فيه حتى تجد خلاصا . لو انك اخبرت أن السلطان بعد أسبوع يختارك وزيرا (اعلم) أنك فى تلك المدة لاتشتغل إلا بإصلاح ما علمت أن نظر السلطان سيقع عليه من الثياب والبدن والدار والفراش وغيرها .

والآن تفكر الى ما أشرت به فإنك فهم . والكلام الفرد يكفى . أليس قال رسول الله صلىّ الله عليه وسلم (إن الله لاينظر إلى صوركم ولا إلى أعمالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم ونيّاتكم) وإن أردت علم أحوال القلب فانظر الى الاحياء وغيره من مصنفاتى ـ وهذا العلم فرد عين وغيره فرض كفاية ، إلا مقدار مايؤدى به فرائض الله تعالى وهو يوفقك حتى تحصله . (والرابع) أن لا تجمع من الدنيا أكثر من كفاية سنة كما كان رسول الله عليه السلام يعد ذلك لبعض حجراته وقال (اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا) ولم يكن يعد

(١) الفقرة الثانية بعد العشرين من رسالة أيها الولد

ذلك لكل حجراته بل كان يعده لمن علم أن فى قلبها ضعفا . وامّا من كانت صاحبة يقين ما كان يعدّ لها أكثر من قوت يوم ونصف ».

كان صاحبنا يشعر بحلاوة فى قلبه قلما شعر بها قبل ، إذ هو يستمع لشيخه يسوق اليه نصيحته الخالدة ، هدى ورحمة . لقد أخذت معانيها تتسرب إلى قلبه وتتشعب فى نفسه ، متخذّة فيها للهدى سبلا ! فآلى على نفسه أن يتخذها طريقا له فى الحياة ، لا يتعدى ما رسمته من حدود ، ولا يتجاوز ما أتت به من معان . ففى ترسّم هذه الحدود نجاة لمن حرص ألاّ يتخطاها . وفى اتبّاع هذه المعانى ، ما يذكّره بنداء الرسول للمؤمنين . . . فاتبّعونى يحببكم الله . فهى تناديه إذن ، وهو قد آلى على نفسه أن يجيب.

لقد عرّفته نصيحة شيخه ما يأخذه وما يدعه .. فأمامه اهداف أربعة سيسعى اليها ، فهى الوصول لمن أراد لله سبيلا ... ومن خلفه أعداء أربعة .. وتلك سيوليها دائما ظهره ، ويسأل الله أن يعينه . فهو يعلم جيدا أنه إذا ارتد على عقبيه ، سيخسر كل شىء ، ولن يضر الله شيئا ، وإذ ذاك يختلف الوضع ، ويصبح الأمر فرطا . فيجد أمامه ما كان حريا به أن يجعله خلفه ، فيسير ولكن إلى تأخر . ويرتقى ولكن إلى أسفل . وحينذاك قد تأتيه الدنيا — فقد أراد حرثها — ولكن لا يكون له فى الآخرة من نصيب ! ويجد كذلك خلفه ما كان به أولى لو جعله أمامه . فتناديه الأشياء الأربعة فلا يجيب . إذ يكون عن ندائها فى صمم . ومن تشغله الدنيا يكون ميله مع هواه ، أليس ميل النفوس حيث تطيب ؟ وهنا انتفض صاحبنا ، كما لو كان يرزح تحت عبء ثقيل ، يريد منه خلاصا .. لقد سرى به الخيال فتصور نفسه حيث

لا يحبّ أن يكون .. فاستعاذ بالله من يوم لاينفع فيه مال ولا بنون ، وصاح قلبه .. أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم !

ثم تصّور نفسه قد استقام على الطريقة ، وساربه الخيال لا يتعدّى حدودها الأربعه ! فهو يعامل الله ولايعامل الناس ، ويحبّ لأخيه مايحبه لنفسه، ويقرأ العلم ولكن يطلبه لله ، ولاينصرف إلى الدنيا خاطباودّها بل حسبه من دنياه ، كفاية عام ! فإذا به بين قوم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .. يعبدون الله بالغداة والعشى يريدون وجهه أولئك الذين هدى الله . يحبهم ويحبونه . وهم بالآخرة يستبشرون .. سمع لهم صوتا، فأصغى قلبه لما يقولون .. إن صوتهم لعذب ، قليل فيه أن يقال رخيم . وإن غناءهم من غير مزمار وعود ، ليس كغناء الدنيا فيه همزات الشياطين، وإن كان ذا ترجيع لم تسمعه من قبل اذن .. فما هذا . تساءل صاحبنا . . . انهم يذكرون الله - أتاه الجواب - فسكنت نفسه عندهم وذكر قوله تعالى. (ومن أحسن قولا ممّن دعا الى الله)

ثم رأى أمامه نورا، فتساءل : أترى القوم يضيئون ؟ ربّ ماذا أرى ؟! أتاه الجواب .. ترى المؤمنين نورهم يسعى بين أيديهم). فخشع قلبه لله وذاب!

ثم أبصر القوم يشربون من أقداح ، لها رائحة الطيب ومذاق الراح . إذا ما أداروها انتشوا ، وسرت نشوة فى الأرواح ، فطربوا ولكن بغير سكر وخمر ! فتساءل ما يفعل هؤلاء ؟ ... أتاه الجواب ... يسقون الماء الغدق ! فأقبل على كأس من هاته الكئوس ، يريد أن يساهم فيها بقدر .

فارتدّت الكأس دونه ، وكلما أراد أن يعاود الكرة، عجز .فتساءل حيران.
لم يارب ؟ فأتاه الجواب .. لايشرب منها الا المقربون ! فأطرق خجلان .
فسعى اليه واحد من هؤلاء ـ لعله شيخه ـ وصاح به .. خذ ذاك كأسك.
تأمل وانظر فى شرابها تدرك ! .. فمدّ يده يأخذ الكاس ويرجع فيها
البصر .. فإذا ماؤها قد تغير ، حال لونه وشابه الكدر ! وقيل . . . كل
صوفى عند رتبته ، وياصاح هذا قدرك فاعتبر ! فارتعش صاحبنا وارتعد
رعدة قوية ، وقعت على إثرها الكأس من يده ، فسال ماؤها وكالحبب
انتثر .. فأفاق من سبحته ، وصحا من غفلته ، ليجد نفسه جالسا بين يدى الغزالى،
يتابعه بالحنو وبالنظر .. فأخذ يذوب بين يدى شيخه ويقول ..لدى هؤلاء
ياإمامى ، أحب أن يكون مقامى . . هاهنا ياقاب مكانك . ولدى أولئك
يانفسى تقرّين . ترى أين يكون ياشيخى المستقر ؟

فتبسم الغزالى لفتاه وأجابه .. لمثل هذا فأعمل تكن من الواصلين .
وألق بساح الرسول الأمل !

ــ ألقيته ياإمامى . فليعنى الله ولنسكت عن الليالى . شدّ ما أخاف ياشيخى
من حبالى لا يلدن إلا كل عجيب . إذا ما سكنت يوما ، واطمأن للزمان
حالى ، وهدأ البال وقلت الآن ياقلب تطيب . وأحسست نسيم الروح قد
أخذ يهب ، كريح الصبا شذاها عطر وطيب . تحمل فى طياتها ، أرج ذكرى
« خليل . وحبيب » فيهب الشوق وتصحو الروح ، وتقبل النفس ويسعف
الطبع العنيد. ويتساءل النشوان : هل من مزيد ؟ .. فلا تلبث ريح الصبا
قليلا ، حتى تغيب . فأتساءل . أين؟ ولا مجيب فأبقى حيران ، ثم تكتنفنى الظلم..
وتحيط بى الشهوات . وتبرق المنى فى خيالى ، وتتزين لى الدنيا ، وتناديني
فى عشاقها الغافلين . وتقبل علىّ بوجه ، فيه من سحر الطلاء بريق وتزويق.

فيأخذ منيّ سحرها شيئا ، لست عنك يا إمامي أخفيه . وما كنت اكتم عنك شيئا ، لك الله بيديه . فينادينى فى صرعة النشوة مناد .. أيها الغافل أفق. ولا تلق الى الدنيا بقياد .. إنها روحك ياشيخى تناجينى ، إذ يحيط بى البلاء . وقد أسمعها كما سمع ابن نوح من أبيه نداء . فأبق عن ندائك فى صمم . وهل ينفع الغافلين دعاء ؟ ! وربما رحت أجمع من نفسى أشتاتا ، عسانى أرجع وأتوب .. فإن صحت بالقلب . ياقلب :.. لم أسمع لصيحتى من صدى. فأهيب بالنفس . يانفس . وهى عنى فى صمم . فأذهب للعقل أناديه . ياعقل... وما يكون لى رشد فأدعوه ! فيجرفنى التيار إلى حيث ألقى نفسى وسط معترك الحياة . يحاول الشر أن يصرعنى ، ويأبى الخير أن يدعنى . فأبقى معلقا بين يأس ورجاء . وأمل وشقاء . لا أنا الى أولئك ولا إلى هؤلاء . فمن ترانى اكون ؟ أما الصالحون . . فلست منهم . وأما الطالحون.. فيشهد الله مارضيت لنفسى بينهمو مقاما . فما أنا منهمو بالعيش فيهم . للجسد بوادو الروح بآخر . . . لم تكونوا بالخيه إلا بشق الانفس ، ولا زالت فى النفس أنفاس، فعنى يا إمامى حتى أبذلها فى الله ، ولما فيه رضاه . لئن كنت العصى ، ففؤادى يشهد الله ما عصاه . ياطالما بكى قلبى ، واشتكى لمولاه . فهل آن لدمع العصى أن يجف، وأن ينال الرضا من أتعبته الليل عيناه؟ شد ما يتألم من ذاق . ومن بات يخش السلب من بعد ما أعطيه .. إنما أشكو بثى وحزنى الى الله .. واليك يا إمامى. يامن اصطفاه الله واجتباه !

يارب ليلة بيت فيها عزمى ، فإن أصبح الصبح وناديته لم أجد له من أثر . فأبحث عنه فى نفسى ، فيطول بحثى وليس عنه من خبر . و أقدح الزناد سدى ؛ ماينبعث بالقدح الشرر .. لقد حنث القلب عهده ، ورجع الضعيف للخور . وكذاك خلقنا وتلك طبيعة البشر قتل الانسان ما أكفره ! إن الضعف سجية فينا ، من عهد آدم سرت فى العروق مسرى المياه فى الشجر .

هكذا ورثنا الضعف أبونا ، وارتضى حمل أمانة على برّها ما اقتدر . فظلمنا وما شعر . ثم حملناها بعده ظالمين ، وجرى علينا بما حكم القدر . فالسعيد فى دنياه، من أخذتك يادنيا على حذر. لا يؤسه مافات ولا يفرحه الآت . حسبه قد عرف قدر نفسه عند ربه فاعتبر .

وها أنا أبصر فى نفسي يا إمامى ، فما أسر بما يراه النظر . فى النفس أشياء لا ترضى من خلق ، وفى القلب هنات لا تغتفر . كم تعبت مع نفسى ، وكم ضل فى نواحيها البصر . ترى أين يكون مقامها فى غد والمستقر ؟!

ـ لا تخف يابنى .. انبعث الغزالى يحدث فتاه .. نحن نقص عليك ماثبتت به فؤادك ... لكن دعنى أسألك قبل ذلك شيئا. هل وعيت جيدا ما حدثتك به منذ أن كان لقاؤنا ؟ وهل ذقت طعم الشراب الذى قدمته لك فى الايام الماضية ؟

ـ أجل يا إمامى. وأنت تدرى من قبل كلامى . لقد شربت جرعاتك الثنتين وعشرين ، وغدا فى كل عرق من عروقى منها أثر .

ـ اذن فاجعلها دستورك فى الحياة ، ولا تحد عنها قيد أنملة . قف عند حدودها دائما ، فما أقمت لك حدا منها إلا كما أمر الله ورسوله . ومن يتعدى حدود الله فأولئك هم الظالمون . إنك إن فعلت ذلك يابنى فزت فوزا عظيما، واصحبتك روحى مادمت ، على ما ارتضيت لك من نهج تسير ! فما جعله الله لى من نور ، فهو لك . والله متم نوره فتكون حياتك من بعدى ، مدا لحياتى فيك. تحوطك روحى وترعاك وتهديك . بمشيئة الله رب العالمين . فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين فإن احتجبت عنك بالجسد بعد ذلك ، لم يضرك احتجاب ، ولم يعوزك لقاء ، إذا كون دائما معك .

فإن القرب بالروح

وليس القرب بالجسم

ستدعو لك أعظمى وهى رميم ، وكذاك روحى وهى فى الخالدين . وستجد أثر ذلك فى قلبك ونفسك وعقلك وقلمك ولسانك . . . فى قلبك حين تذكر الله ، فتذكره معى كذكرى له . وفى نفسك حين تقوى عليها كما قويت . وفى عقلك حين يصيح بك أن قف . . تلك حدود الله فلا تعتدوها . فتكون فى الناجين بإذن الله . وفى قلمك حين تجلس لتكتب ، إذ تتلو روحى معك (ن . والقلم وما يسطرون) . وفى لسانك حين تعرف كيف تمسك الفضل منه ! وكذلك شاء ربك أن يجعل المؤمنين أولياء بعض ، أحياء وأموات . . بل أحياء أيضا عند ربهم يرزقون ! فانى يا بنى أعينك بروحى لا بجسدى . فما عليك إن لم ترى جسدى ما دمت ترى روحى . دائما معك ! فما أنا بغائب عنك . ما بين روحينا يا بنى ستر . وان كان بين جسدينا .. حجاب ! وما يفصل الأموات عن الاحياء غير ذاك التراب ! فلا تبالى حسبك ان الروح فى الروح ذاب ، والروح غلاب ، من أمر ربى .

فسر يا بنى على الخطة التى بينتها لك وأزيدك . . . إن عهدى ـ كما تعلم ـ يتكون من شقين هما ، العلم والعبادة ، ثم المحاسبة والمراقبة .

أما عن العلم فقد بينته لك وعرفتك ، ما العلم الذى ينفع صاحبه وكيف تطلبه ، وكيف تخلص فيه لله نيتك ، وتطلبه لوجهه ، ولو أردته لغيره لأبى[1] العلم إلا أن يكون للحق ، سبحانه ! أما عن العبادة فهى علم وعبادة

---

(١) عبارة خالدة للامام الغزالى . أردنا أن نطلب العلم لغير الله فأبى العلم إلا أن يكون لله .

فالعلم يندرج تحت العباده لأنه من الفرائض لقوله ﷺ . طلب العلم فريضة على كل مسلم . وبالعلم أمرنا الحق سبحانه أن ندعوه فقال تعالى (وقل رب زدنى علما) كما ميز الله سبحانه عباده العالمين عن الجاهلين (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) ؟. وقد جعل المصطفى عليه السلام ، العلماء هم ورثة الانبياء . فخذ حظك من العبادة بالعلم يابنى ، وتقربّ بعلمك إلى الله . أليس (يخشى الله من عباده العلماء) ؟ وما وراء خشية الله ، غير القرب منه ! إنك إن فعلت ذلك بارك الله لك فى علمك ، وزادك فيه ، وأتاك من لدنه علما . وإذ ذاك يجتمع عندك العلمان ، ويجرى بيدك القلمان ، نون والقلم وما يسطرون ، ذلك الذى تعبرّ به عن هيئة المكنون . وقلم الكسب الذى يوزن مداده يوم القيامة بدماء الشهداء . ولنعلم أجر العاملين !

ولكن أحذر يابنى فتنة العلم وآفته (فإن[1] الباعث للأكثرين على نشر العلم لذة الاستعلاء والفرح بالاستتباع والاستبشار بالحمد والثناء . والشيطان يلبس عليهم ذلك ويقول غرضكم نشر دين الله والنضال عن الشرع الذى شرعه ﷺ . وترى الواعظ يمن على الله تعالى بنصيحة الخلق ووعظه للسلاطين ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه . وهو يدعى أنه يفرح بما يسر له من نصرة الدين . ولو ظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظا وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ، ساءه ذلك وغمه . ولو كان باعث الدين لشكر الله تعالى إذ كفاه الله تعالى هذا المهم بغيره . ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه ويقول إنما غمك لانقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس عنك إلى غيرك . إذ لو اتعظوا بقولك لكنت أنت المثاب . واغتمامك لفوات

---

(١) ح إحياء ح ص ٣٢٥ — ٣٢٦

الثواب محمود . ولا يدرى المسكين أن انقياده للحق وتسليمه الامر أفضل وأجزل ثوابا وأعود عليه فى الآخرة من انفراده . وليت شعرى لو اغتم عمر رضى الله عنه بتصدى أبى بكر رضى الله تعالى عنه للإمامة . أكان غمّه محمودا أو مذموما؟ ولا يستريب ذو دين أن لو كان ذلك ، لكان مذموما لأن انقياده للحق وتسليمه الأمر إلى من هو أصلح منه أعود عليه فى الدين من تكلفه بمصالح الخلق مع مافيه من الثواب الجزيل بل فرح عمر رضى الله تعالى عنه باستقلال من هو أولى منه بالامر . فما بال العلماء لايفرحون بمثل ذلك ؟ وقدينخدع بعض أهل العلم بغرور الشيطان فيحدث نفسه بأنه لو ظهر من هو أولى منه بالامر لفرح به .واخباره ذلك عن نفسه قبل التجربة والامتحان محض الجهل والغرور. فإن النفس سهلة القياد فى الوعد بأمثال ذلك قبل نزول الامر ثم إذا دهاه الامر تغير ورجع ولم يف بالوعد . وذلك لا يعرفه إلا من عرف مكايد الشيطان والنفس وطال اشتغاله بامتحانها . فمعرفة حقيقة الإخلاص والعمل به بحر عميق يغرق فيه الجميع إلا الشاذ النادر والفرد الفذ وهو المستثنى فى قوله تعالى إلا عبادك منهم المخلصين فليكن العبد شديد التفقد لهذه الدقائق ، والا التحق باتباع الشياطين وهو لا يشعر ».

فلا تطلب يابنى علما تنال به رتبة أو جاها ، فيكون حظك منه وأجرك ما قد قصدت . بل اجعل شعارك فيه أن صلاتك ونسكك ومحياك ومماتك وعلمك .. لله رب العالمين . الصلاة والنسك اهذان هما المكملان لعبادتك. فإذا قمت الى الصلاة فاذكر قوله تعالى « واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا » . فانه نفسك عن هواها ، واحضر بقلبك فى الصلاة ، فانها كانت على المؤمنين كتابا موقوتا ، تنهى

عن الفحشاء والمنكر . بذلك تسلم عبادتك وتستقيم صلاتك ، ويكون لك العفو والعافية فى الدين والدنيا .

واجعل نسكك سرّا بينك وبين ربك لا تطلع عليه إنسانا ، ولا تتحدث به إلى مخلوق. فإن النسك كالطيب ، كلما كتمته عبق

يخفى صنائعه والله يظهرها

إنّ الجميل إذا أخفيته ظهرا .

وكلما كشفت عنه خفّ عبيره ، وضاع أثره ، فتقول مع من قال

فلا أنا ما أفاد ذووا الغنى أفدت

وأعـــدانى فأتلفت ما عندى !

فأوصيك يا بنى بكتم العبادة عن الخلق ، إلا ما اضطررت أن تطلعهم عليه منها . فالناس بشأن العابد اثنان . حاسد وشاكر . أما الحاسدون ، أولئك الذين يحسدون الناس على ما أتاهم الله من فضله ، فهم يعرفون الحق ويجادلون فيه من بعد ماتبين حسدا من عند أنفسهم ، فكلهم يودّون لو كانوا مثلك ذلك الرجل ، ولكنهم يعجزون . فدون جنى النحل ماتفعل الإبر ، ودون الورد أشواك ، ، وهنا تكون الوقيعة وتكثر الأقوال وتنضح الأنفس الخبيثة بما فيها . فالحكمة كل الحكمة قفل ذلك الباب حتى لا يدخل منه الحاسدون مدخل كذب ويخرجون مخرج كذب ، فارخ يا بنى سترا على عبادتك دونهم ، وتولّ عنهم فما أنت بملوم . أما الشاكرون وقليل ماهم (وقليل من عبادى الشكور) . فحتى هؤلاء إن وجدوا ، يخشى عليك منهم، وذلك أنهم إن عرفوا ذلك الفضل منك ، مدحوك بما تحب ، وخلق الإنسان

ضعيفا ، فتركن نفسك اليهم وتستعذب مدحهم ، وهنا تفتح على نفسك باب الهلاك . فما يردى المرء شيء مثل إعجابه بنفسه . وقد يدخلك الغرور فتكون فى الهالكين . وتصبح أعمالك فى الأخسرين . ومن شأن النفس أن تتجه الى مادحها ، وهنا تتجه الى وجه غير وجه المولى سبحانه ، فلا يكون عملك خالصا له ، ولا نيتك سالكة اليه . وقد تأخذ فى التجمل لمادحيك حتى تستزيدهم مدحا ، فإذا بك تظهر لهم أكثر مما تخفيه ، فتكتب فى المنافقين الذين بشرهم الله بالعذاب الأليم . فالمدح يجرك — كما رأيت — الى اعجابك بنفسك ، فالغرور ، فالعمل لغير وجه الحق وحده ، فالنفاق ، فالرياء ، فتذهب أعمالك حسرات (وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) . فاقفل ذلك الباب يا بنى ولا تدع الشيطان يدخل عليك منه وقل ما كان يقوله على ابن أبى طالب — كرم الله وجهه — لمادحيه — اللهم لا تؤاخذنى بما يقولون . واجعلنى كما يظنون .

ولا تقصّر فى أداء الفريضة أبدا ، وتقرّب إلى الله ما استطعت وسمح لك الوقت ، بالنوافل . فذلك يا بنى عهدى . أعطيكه فاحفظه بعدى . . . العلم والعبادة ، والمحاسبة ، المراقبة ، على ما بينته لك من معانيها .

فإن قدرت أن تسلم بعلمك ، وتخلص بعبادتك ، وتسلم بمراقبة نفسك ومحاسبتها ، نجوت . وكنت لعهد الغزالى من الحافظين .

وأسأل نفسك كل ليلة قبل رقادك .. ماحصّلت فى يومك من علم وهل طلبته لغير الله ؟ وما حصّلته من عبادة ، وهل سلمت لك أركان

الإسلام ، وهل فعلت مايغضب الله ورسوله يومك ؟ فإن وجدت أنك قد حصّلت يومك ماينفعك من العلم ، وعملت بما علمت جهدك ماقدرت ، فبورك لك فى ذلك اليوم ، وسيورّثك الله علم مالم تعلم « وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك » وإلاّ فاعقد العزم أن تتدارك فى غدك مافاتك يومك ، فيكون فى تجديد العزم ، تجديد لهمتك ، والله يوفق من يريد الحق ، ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم . وان وجدت أنك قد أدّيت الفرائض يومك على وجهها ، وأطعت الله حقّ طاعته ، فلم تغضب الله ولا رسوله فى شىء . فقل « ذلك الفضل من الله » وأسأل الله أن يختم لك بالسعادة ، وقل « ربنا لاتزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا . وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » . وان رأيت نفسك قد قصّرت فى أى شىء من فرض طاعة أو عبادة ، سحابة يومك ، فاعقد العزم على أن يكون غدك خيرا من يومك ، لتتدارك مافات « واتبع السيئة الحسنة تمحها » وتب الى الله ، تجد الله توابا رحيما . فهو غافر الذنب قابل التوب . واحذر أن تصرّ على ما فعلت وأنت من العالمين ! وكن من الذين « اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب الاّ الله ، ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون » . وأسأل الله دائما أن يجعل سيئاتك سيئات من أحبّ ، ولا يجعل حسناتك حسنات من أبغض . وليتك تضع نصب عينيك أن حسنات الأبرار سيئات المقرّبين !

أما عن المحاسبة والمراقبة ، فياطالما حدّثتك فى ذلك فارجع دائما إلى ماحدّثتك به فى حلقات الإحياء ، وعه واتّبع ماينشرح له صدرك ، وسلّم به تكن من الفائزين « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام »

وتذكّر دائما ماحدثتك به فى دروسنا الماضيات ، وأوجزُ لك الآن شيئا مما قلت ، تذكرة لك وبعثا لهمتك .

يابنى

إذا ماخلوتَ الدهر يوما فلا تقل خلوت ولكن قل علىّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أنّ ماتخفيه عنه يغيب
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب وأن غدا للناظرين قريب

فالله هو « (١) القائم على كل نفس بما كسبت ، الرقيب على كل جارحة بما اجترحت ، المطلع على ضمائر القلوب إذا هجست . الحسيب على خواطر عباده إذا اختلجت ، الذى لايغرب عن علمه مثقال ذرّة فى السموات والأرض ، تحركت أو سكنت . المحاسب على النقير والقطمير والقليل والكثير من الأعمال وإن خفيت . المتفضل بقبول طاعات العباد وإن صغرت . المتطول بالعفو عن معاصيهم وإن كثرت . وإنما يحاسبهم لتعلم كل نفس ما أحضرت ، وتنظر فيما قدمتْ وأخرت . فتعلم أنه لولا لزومها للمراقبة والمحاسبة فى الدنيا لشقيت ، فى صعيد القيامة وهلكت . وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراقبة لولافضله بقبول بضاعتها المزجاة لخابت وخسرت . فسبحان من عمت نعمته كافة العباد وشملت ، واستغرقت رحمته الخلائق فى الدنيا والآخرة وغمرت . فبنفحات فضله اتسعت القلوب للإيمان وانشرحت . وبيمن توفيقه تقيدت الجوارح بالعبادات وتأدبت . وبحسن هدايته انجلت عن القلوب ظلمات الجهل وانقشعت . وبتأييد نصرته انقطعت

---

(١) احياء علوم الدين ج ٤ ص ٣٣٦

مكايد الشيطان واندفعت ، وبلطف عنايته ترجح كفة الحسنات إذا ثقلت وبتيسيره تيسرت من الطاعات ماتيسرت . فمنه العطاء والجزاء والإبعاد والإدناء والإسعاد والإشقاء ، والصلاة على محمد سيد الأنبياء ، وعلى آله سادة الأصفياء ، وعلى أصحابه قادة الأتقياء . . . قال الله تعالى (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) وقال تعالى (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا ّ أحصاها ووجدوا ماعملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا) وقال تعالى (يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه . والله على كل شيء شهيد) وقال تعالى (يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) وقال تعالى (ثم توفّى كل نفس ماكسبت وهم لايظلمون) . وقال تعالى (يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا وما عملت من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا . ويحذركم الله نفسه) وقال تعالى (واعلموا أن الله يعلم مافى أنفسكم فاحذروه) فعرف أرباب البصائر من جملة العباد أن الله تعالى لهم بالمرصاد . وأنهم سيناقشون الحساب ويطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات ، وتحققوا أنه لاينجيهم من هذه الأخطار إلا ّ لزوم المحاسبة وصدق المراقبة ومطالبة النفس فى الأنفاس والحركات ومحاسبتها فى الخطرات واللحظات . فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب ، خفّ فى القيامة حسابه ، وحضر عند السؤال جوابه ، وحسن منقلبه ومآبه . ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته وطالت فى عرصات القيامة وقفاته . وقادته إلى الخزى والمقت سيئاته . فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لاينجيهم منه

إلا طاعة الله وقد أمرهم بالصبر والمرابطة فقال عز من قائل (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا) فرابطوا أنفسهم أولا بالمشارطة ثم بالمراقبة ثم بالمحاسبة ثم بالمعاقبة ثم بالمجاهدة ثم بالمعاتبة ».

ولن أطيل عليك يابنى فى تفسير هذه المقامات ، فقد وفيتها حقها فى حلقات الأحياء وأنت لها من الذاكرين . ولكن ثمّ ما أحبّ لفت نظرك اليه مرة أخرى ، فأنا أعلم أن نفسك كثيرا ماتتوانى بحكم الكسل فى كثير من الفضائل والأوراد — وللملازمة الأوراد خير يابنى — بقدر ما يسعفك الوقت « [1] فينبغى أن تزدها بتثقيل الأوراد عليها وتلزمها فنونا من الوظائف جبرا لما فات منك وتداركا لما فرط . فهكذا كان يعمل عمال الله تعالى فقد عاقب عمر بن الخطاب نفسه حين فاتته صلاة العصر فى جماعة بأن تصدقّ بأرض كانت له قيمتها مائتا ألف درهم . وكان ابن عمر إذا فاتته صلاة فى جماعة أحيا تلك الليلة . وأخرّ ليلة صلاة المغرب حتى طلع كوكبان فأعتق رقبتين . وفات ابن أبى ربيعة ركعتا الفجر فأعتق رقبة . وكان بعضهم يجعل على نفسه صوم سنة أو الحج ماشيا أو التصدق بجميع ماله . كل ذلك مرابطة للنفس ومؤاخذة لها بما فيه نجاتها » .

— فإن كانت نفسى — ياشيخى — لاتطاوعنى على المجاهدة والمواظبة على الأوراد فما سبيل معالجتها ؟

— « (٢) سبيلك فى ذلك أن تسمعها ماورد فى الأخبـــار من فضل

---

(١) إحياء . ج ٤ ص ٣٤٨ مع التصرف بجعل الخطاب للحاضر بدل الغائب ليستقيم لنا المعنى، وهو تصرف لايمس الأصل فى معناه بشىء كاترى . المؤلف

(٢) احياء علوم الدين ج ٤

المجتهدين ومن أنفع أسباب العلاج أن تطلب صحبة عبد من عباد الله مجتهد في العبادة فتلاحظ أحواله وتقتدى به . وكان بعضهم يقول كنت إذا اعترتني فترة في العبادة نظرت إلى أحوال محمد بن واسع وإلى اجتهاده فعملت على ذلك أسبوعا . إلا أن هذا العلاج قد تعذر إذ فقد في هذا الزمان من يجتهد في العبادة اجتهاد الأولين . فينبغي أن تعدل عن المشاهدة إلى السماع . فلا شيء أنفع من سماع أحوالهم ومطالعة أخبارهم وما كانوا فيه من الجهد الجهيد . وقد انقضى تعبهم وبقي ثوابهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع . فما أعظم ملكهم وما أشد حسرة من لا يقتدى بهم فيمنع نفسه أياما قلائل بشهوات مكدرة ثم يأتيه الموت ويحال بينه وبين كل ما يشتهيه أبد الآباد نعوذ بالله تعالى من ذلك » .

« (١) فعليك إن كنت من المرابطين المراقبين لنفسك أن تطالع أحوال الرجال والنساء من المجتهدين لينبعث نشاطك ويزيد حرصك . وإياك أن تنظر إلى أهل عصرك فإنك إن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله » .

أما عن حكايات المجتهدين يابني فهي غير محصورة ، وقد ذكرت لك منها الكفاية فيما مضى وفي حلقات الأحياء رويت لك منها الكثير « (٢) فإن أردت مزيدا فعليك بالمواظبة على مطالعة كتاب « حلية الأولياء » فهو مشتمل على شرح أحوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم . وبالوقوف

---

(١) احياء علوم الدين ج ٤ ص ٣٥٥
(٢) إحياء علوم الدين ج ٤

عليه يستبين لك بعدك وبعد أهل عصرك من أهل الدنيا ، فإن حدثتك نفسك بالنظر إلى أهل زمانك وقالت : إنما تيسر الخير فى ذلك الزمان لكثرة الأعوان والآن فإن خالفت أهل زمانك رأوك مجنونا وسخروا منك فوافقتهم فيما هم فيه وعليه ، فلا يجرى عليك إلا ما يجرى عليهم . والمصيبة إذا عمت طابت ، فإياك أن تتدلى بحبل غرورها وتنخدع بتزويرها وقل لها : أرأيت لو هجم سيل جارف يغرق أهل البلد وثبتوا على مواضعهم ولم يأخذوا حذرهم لجهلهم بحقيقة الحال وقدرت أنت على أن تفارقهم وتركبي فى سفينة تتخلصين بها من الغرق أيختلج فى نفسك أن المصيبة إذا عمت طابت أم تتركين موافقتهم وتستجهلينهم فى صنيعهم وتأخذين حذرك مما دهاك ؟ فإذا كنت تتركين موافقتهم خوفا من الغرق وعذاب الغرق لا يتمادى الا ساعة فكيف لا تهربين من عذاب الأبد وأنت متعرضه له فى كل حال ؟ ! ومن أين تطيب المصيبة إذا عمت ولأهل النار شغل شاغل عن الإلتفات الى العموم والخصوص ؟ ! ولم يهلك الكفار الا بموافقة أهل زمانهم حيث قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون فعليك اذا اشتغلت بمعاتبة نفسك وحملها على الاجتهاد فا تعصت أن لا تترك معاتبتها وتوبيخها وتقريعها وتعريفها سوء نظرها لنفسها فعساها تنزجر عن طغيانها » .

« (١) واعلم أن أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك وقد خلقت أمارة بالسوء ميالة إلى الشر فراره من الخير وأمرت بتزكيتها وتقويمها وقودها

---

(١) إحياء علوم الدين ج ٤ ص ٣٥٥ : ٣٦١ . وهو فصل فى منتهى الروعة وهو من الفتوحات الربانية التى فتح الله بها على حجة الاسلام وإمام العارفين الامام الغزالى قدس الله سره

بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها فإن أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بعد ذلك . وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة كانت نفسك هى النفس اللوامة التى أقسم الله بها ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل فى زمرة عباد الله راضية مرضية . فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ولا تشتغلن بوعظ غيرك مالم تشتغل أولا بوعظ نفسك . أوحى الله تعالى الى عيسى عليه السلام يا ابن مريم عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس والا فاستحى منى . وقال تعالى وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين . وسبيلك أن تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغباوتها وأنها أبدا تتعزز بفطنتها وهدايتها ويشتد أنفها واستنكافها اذا نسبت الى الحمق فتقول لها يانفس ما أعظم جهلك . تدعين الحكمة والذكاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقا . أما تعرفين مابين يديك من الجنة والنار وأنك صائرة الى احداهما على القرب فمالك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم . وعساك اليوم تختطفين أو غدا فأراك ترين الموت بعيدا ويراه الله قريبا . أما تعلمين أن كل ماهو آت قريب ، وأن البعيد ماليس بآت؟ أما تعلمين أن الموت يأتى بغتة من غير تقديم رسول ومن غير مواعدة ومواطأة وأنه لايأتى فى شىء دون شىء ، ولا فى شتاء دون صيف ، ولا فى صيف دون شتاء ، ولا فى نهار دون ليل ، ولا فى ليل دون نهار . ولا يأتى فى الصبا دون الشباب ولا فى الشباب دون الصبا بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة ، فإن لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فجأة ثم يفضى الى الموت . فمالك لاتستعدين للموت وهو أقرب اليك من كل قريب . أما تتدبرين قوله تعالى . اقترب للناس حسابهم وهم فى

غفلة معرضون . ما يأتيهم من ذكر من ربهم محـــدث إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم . ويحك يانفس ان كانت جراءتك على معصية الله لاعتقادك أن الله لايراك . فما أعظم كفرك . وان كان مع علمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك وأقل حياءك . ويحك يانفس لو واجهك عبد من عبيـدك بل أخ من اخوانك بما تكرهينه ، كيف كان غضبك عليه ومقتك له ؟ ! فبأى جسارة تتعرضين لمقت الله وغضبه وشديد عقابه . أفتظنين أنك تطيقين عذابه ؟ ! هيهات . هيهات . جربى نفسك ان ألهاك البطر عن أليم عذابه فاحتبسى ساعة فى الشمس أو فى بيت الحمام أو قربى اصبعك من النار ليتبين لك قدر طاقتك . أو تغترين بكرم الله وفضله واستغنائه عن طاعتك وعبادتك ؟ فمالك لاتعولين على كرم الله تعالى فى مهمات دنياك ؟ فإذا قصدك عدو فلم تستنبطين الحيل فى دفعه ولا تكلفينه الى كرم الله تعالى ؟! واذا أرهقتك حاجة الى شهوة من شهوات الدنيا مما لاينقضى الا بالدينار والدراهم فمالك تنزعين الروح فى طلبها وتحصيلها من وجوه الحيــــل؟ ! فلم لاتعولين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك على كنز أو يسخر عبدا من عبيده فيحمل اليك حاجتك من غير سعى منك ولا طلب ؟ ! أفتحسبين أن الله كريم فى الآخرة دون الدنيا وقد عرفت أن سنة الله لاتبديل لها ، وأن رب الآخرة والدنيا واحد ، وأن ليس للإنسان الا ما سعى ؟ ! ويحك يانفس ما أعجب نفاقك ودعاويك الباطلة فإنك تدعين الإيمان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك . ألم يقل لك سيدك ومولاك : وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها ؟ وقال فى أمر الآخرة . وأن ليس للإنسان الا ماسعى ؟ فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة وصرفك عن السعى فيها فكذبتيه بأفعالك وأصبحت تتكالبين على طلبها تكالب المدهوش المستهتر !

ووكل أمر الآخرة إلى سعيك فأعرضت عنها إعراض المغرور المستحقر!
ماهذا من علامات الإيمان . لو كان الايمان باللسان فلم كان المنافقون
فى الدرك الأسفل من النار ؟ ويحك يانفس كأنك لاتؤمنين بيوم الحساب،
وتظنين أنك إذا مت انفلت وتخلصت وهيهات . أتحسبين أنك تتركين
سدى ؟ ألم تكونى نطفة من منى يمنى ثم كنت علقة فخلق فسوى . أليس
ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟ فإن كان هذا من إضمارك . فما أكفرك
واجهلك . أما تتفكرين أنه لماذا خلقك . من نطفة خلقك فقدرك . ثم
السبيل يسرك . ثم أماتك فأقبرك أفتكذبينه فى قوله تعالى : ثم إذا شاء
انشرك . فإن لم تكونى مكذبة به فمالك لاتأخذين حذرك ولو أن يهوديا
أخبرك فى ألذ أطعمتك بأنه يضرك فى مرضك لصبرت عنه وتركته
وجاهدت نفسك فيه . أفكان قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات وقول الله
تعالى فى كتبه المنزلة أقل عندك تأثيرا من قول يهودى يخبرك عن حدس
وتخمين وظن مع نقصان عقل وقصور علم . والعجب أنه لو أخبرك طفل
بأن فى ثوبك عقربا لرميت ثوبك فى الحال من غير مطالبة له بدليل
وبرهان . أفكان قول الأنبياء العلماء والحكماء وكافة الأولياء أقل عندك
من قول صبي من جملة الأغبياء ؟ أم صار حر جهنم وأغلالها وأنكالها
وزقومها ومقامعها وصديدها وسمومها وأفاعيها وعقاربها أحقر عندك من
عقرب لاتحسين بألمها إلا يوما وأقل منه . ماهذه أفعال العقلاء ! بل لو
انكشف للبهائم حالك لضحكوا منك وسخروا من عقلك . فإن كنت
يانفس قد عرفت جميع ذلك وآمنت به . فمالك تسوفين العمل والموت
لك بالمرصاد . ولعله يختطفك من غير مهلة . فبما أذن أمنت استعجال
الأجل . وهبك أنك وعدت بالإمهال مائة سنة . أفتظنين أن من يطعم
الدابة فى حضيض العقبة يفلح ويقدر على قطع العقبة بها ؟ إن ظننت ذلك

فما أعظم جهلك ! أرأيت لو سافر رجل ليتفقه فى القرية فأقام فيها سنين متفقها بطالا يعد نفسه بالتفقة فى السنة الأخيرة عند رجوعه إلى وطنه . هل كنت تضحكين من عقله وظنه أنّ تفقيه النفس مما يطمع فيه بمدة قريبة ؟ أو حسبانه أن مناصب القضاء تنال من غير تفقه اعتمادا على كرم الله سبحانه وتعالى . ثم هبي أن الجهد فى آخر العمر نافع وأنه موصل إلى الدرجات العلى فلعل اليوم آخر عمرك فلم لاتشتغلين فيه بذلك ؟ فإن أوحى إليك بالإمهال فما المانع من المبادرة وما الباعث لك على التسويف . هل له سبب إلاّ عجزك عن مخالفة شهوتك لما فيها من التعب والمشقة ؟ أفتنظرين يوما يأتيك لاتعسر فيه مخالفة الشهوات . هذا يوم لم يخلقه الله قط ، ولا يخلقه . فلا تكون الجنة قط الا محفوفة بالمكاره . ولا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس وهذا محال وجوده أما تتأملين منذكم تعدين نفسك وتقولين . غدا . غدا . فقد جاء الغد وصار يوما . فكيف وجدته ؟ أما علمت أن الغد الذى جاء وصار يوما كان له حكم الأمس . لا بل تعجزين عنه اليوم فأنت غداعنه أعجز وأعجز لأن الشهوة كالشجرة الراسخة التى تعبد العبد بقلعها . فإذا عجز العبد عن قلعها للضعف وأخرّها كان كمن عجز عن قلع شجرة وهو شاب قوى فأخرّ ها إلى سنة أخرى مع العلم بأن طول المدة يزيد الشجرة قوة ورسوخا ويزيدالقالع ضعفا ووهنا . فما لا يقدر عليه فى الشباب لايقدر عليه قط فى المشيب بل من العناء رياضة الهرم ومن التعذيب تهذيب الديب . والقضيب الرطب يقبل الانحناء فإذا جف وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك . فإذا كنت أيتها النفس لا تفهمين هذه الأمور الجلية وتركنين إلى التسويف فما بالك تدعين الحكمة وأية حماقة تزيد على هذه الحماقة . ولعلك تقولين ما يمنعنى عن الاستقامة إلا حرص

على لذة الشهوات وقلة صبرى على الآلام والمشقات . فما أشد غباوتك وأقبح اعتذارك . إن كنت صادقه فى ذلك فاطلبي التنعم بالشهوات الصافية عن الكدورات الدائمة أبد الأباد ولا مطمع فى ذلك إلا فى الجنة . فإن كنت ناظرة لشهوتك فالنظر لها فى مخالفتها فرب أكله تمنع أكلات . وما قولك فى عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ليصح ويهنأ بشربه طول عمره وأخبره أنه إن شرب ذلك مرض مرضا مزمنا وامتنع عليه شربه طول العمر . فما مقتضى العقل فى قضاء حق الشهوة ؟ أيصبر ثلاثة أيام ليتنعم طول العمر ، أم يقضى شهوته فى الحال خوفا من ألم المخالفة ثلاثة أيام حتى يلزمه ألم المخالفة ثلثمائة يوم وثلاثة آلاف يوم. وجميع عمرك بالاضافة إلى الابد الذى هو مدة أهل الجنة وعذاب أهل النار أقل من ثلاثة أيام بالاضافة الى جميع العمر وإن طالت مدته وليت شعرى ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة أو ألم النار فى دركات جهنم. فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب الله ؟ ما أراك تتوانين عن النظر لنفسك الا لكفر خفى أو لحمق جلى . أما الكفر الخفى فهو ضعف ايمانك بيوم الحساب وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب . وأما الحمق الجلى فاعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه من غير التفات إلى مكره واستدراكه واستغنائه عن عبادتك مع أنك لا تعتمدين على كرمه فى لقمة من الخبز أو هبة من المال . أو كلمة واحدة تسمعينها من الخلق بل تتوصلين الى غرضك فى ذلك بجميع الحيل . وبهذا الجهل تستحقين لقب الحماقة من رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والاحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى ويحك يانفس لاينبغى أن تغرك الحياة الدنيا ولا يغرنك بالله الغرور . فانظرى لنفسك فما أمرك بمهم لغيرك ولا تضيعى أوقاتك فالأنفاس معدودة فإذا مضى منك نفس فقد ذهب بعضك . فاغتنمى الصحة قبل السقم . والفراغ

قبل الشغل . والغنى قبل الفقر . والشباب قبل الهرم . والحياة قبل الموت واستعدى للآخرة على قدر بقائك فيها . يانفس أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته فتجمعين له القوت والكسوة والحطب وجميع الأسباب ولا تتكلين فى ذلك على فضل الله وكرمه حتى يدفع عنك البرد من غير جبة ولبد وحطب وغير ذلك فإنه قادر على ذلك أفتظنين أيتها النفس أن زمهرير جهنم أخف بردا وأقصر مدة من زمهرير الشتاء .أم تظنين أن ذلك دون هذا . كلا . أن يكون هذا كذلك أو أن يكون بينهما مناسبة فى الشدة والبرودة أفتظنين أن العبد ينجوا منها بغير سعى؟ هيهات . كما لايندفع برد الشتاء إلا بالجبة والنار وسائر الأسباب فلايندفع حر النار وبردها إلا بحصن التوحيد وخندق الطاعات . وإنما كرم الله تعالى فى أن عرفك طريق التحصن ويسر لك أسبابه ، لا فى أن يندفع عنك العذاب دون حصنه كما أن كرم الله تعالى فى فى دفع برد الشتاء أن خلق النار وهداك للطريق استخراجها من بين حديدة وحجر حتى تدفعى بها برد الشتاء عن نفسك . وكما أن شراء الحطبه والجبة مما يستغنى منه خالقك ومولاك وإنما تشتريه لنفسك إذ خلقه سببا لاستراحتك فطاعاتك ومجاهداتك .أيضا هو مستغن عنها . وإنما هى طريقك إلى نجاتك فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها والله غنى عن العالمين . ويحك يانفس انزعى عن جهلك وقيس آخرتك بدنياك فما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة وكما بدأنا أول خلق نعيده وكما بدأكم تعودون . وسنة الله تعالى لا تجدين لها تبديلا ولا تحويلا . ويحك يانفس ماأراك إلا ألفت الدنيا وأنست بها فعسر عليك مفارقتها وأنت مقبلة على مقاربتها وتؤكدين فى نفسك مودتها . فاحسبي أنك غافلة عن عقاب الله وثوابه وعن أهوال القيامة وأحوالها فما أنت مؤمنة بالموت المفرق بينك وبين محابك أفترين أن من يدخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر فمد بصره الى وجه مليح

يعلم أنه يستغرق ذلك قلبه . ثم يضطر لا محالة إلى مفارقته أهو معدود من العقلاء أم من الحمق . أما تعلمين أن الدنيا دار لملك الملوك ومالك فيها إلا مجاز وكل ما فيها لا يعجب المجتازين بها بعد الموت ولذلك قال سيد البشر ﷺ إن روح القدس نفث فى روعى أحبب من أحببت فانك مفارقه . واعمل ما شئت فانك مجزى به وعش ماشئت فانك ميت . ويحك يا نفس أتعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا ويأنس بها مع أن الموت من ورائه فانما يستكثر من الحسرة عند المفارقة وإنما يتزود من السم المهلك وهو لا يدرى أو ما تنظرين الى الذين مضوا كيف بنوا وعلوا ثم ذهبوا وخلوا . وكيف أورث الله أرضهم وديارهم أعداءهم . أما ترونهم كيف يجمعون مالا يأكلون ويبنون مالا يسكنون ويؤملون مالا يدركون . يبنى كل واحد قصرا مرفوعا الى جهة السماء ومقره قبر محفور تحت الأرض . فهل فى الدنيا حمق وانتكاس أعظم من هذا . يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقينا ويخرب آخرته وهو صائر اليها قطعا . أما تستحين يا نفس من مساعدة هؤلاء الحمق على حماقتهم واحسبي انك لست ذات بصيرة تهتدى الى هذه الأمور ، وانما تميلين بالطبع الى التشبه والاقتداء فقيس عقل الأنبياء والعلماء والحكماء بعقل هؤلاء المنكبين على الدنيا واقتدى من الفريقين بمن هو أعقل عندك إن كنت تعتقدين فى نفسك العقل والذكاء . يا نفس ما أعجب أمرك وأشد جهلك واظهر طغيانك . عجبا لك كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة الجلية . ولعلك يا نفس اسكرك حب الجاه وادهشك عن فهمها . أو ما تتفكرين أن الجاه لا معنى له الا ميل القلوب من بعض الناس إليك . فاحسبي أن كل من على وجه الأرض ممن عبدك وسجد لك وسيأتى زمان لا يبقى ذكرك ولا ذكر من ذكرك . كما اتى على الملوك الذين كانوا من قبلك

(فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا) فكيف تبيعين يانفس مايبق
أبد الآباد بما لايبق أكثر من خمسين سنة أن بق هذا . إن كنت ملكا
من ملوك الأرض . سلم لك الشرق والغرب حتى أذعنت لك الرقاب
وانتظمت لك الأسباب . كيف وبأبى إدبارك وشقاوتك أن يسلم لك
أمر محلتك بل أمر دارك فضلا عن محلتك فإن كنت يانفس لاتتركين الدنيا
رغبة فى الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك . فما لك لاتتركينها ترفعا عن خسة
شركائها وتنزها عن كثرة عنائها وتوقيا من سرعة فنائها . أم مالك لاتزهدين
فى قليلها بعد أن زهد فيك كثيرها ومالك تفرحين بدنيا إن ساعدتك فلا
تخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها ويزيدون عليك فى
نعيمها وزينتها : فأن لدنيا يسبقك بها هؤلاء الأخساء . فما أجهلك وأخس
همتك وأسقط رأيك إذا رغبت عن أن تكونى فى زمرة المقربين من
النبيين والصديقين فى جوارب العالمين أبد الأبدين . لتكونى فى صف
النعال من جملة الحمق الجاهلين أياما قلائل . فياحسرة عليك إن خسرت
الدنيا والدين . فبادرى ويحك يانفس قد أشرفت على الهلاك واقترب الموت
وورد النذير . فمن ذا يصلى عنك بعد الموت ومن ذا يصوم عنك بعد الموت
ومن ذا يترضى عنك ربك بعد الموت . ويحك يانفس مالك إلا أيام معدودة
هى بضاعتك أن أتجرت فيها وقد ضيعت أكثرها فلو بكيت بقية عمرك
على ماضيعت منها لكنت مقصرة فى حق نفسك . فكيف إذا ضيعت البقية
وأصررت على عادتك أما تعلمين يانفس أن الموت موعدك والقبر بيتك
والتراب فراشك والدود أنيسك والفزع الأكبر بين يديك . أما علمت
يانفس أن عسكر الموتى عندك على باب البلد ينتظرونك . وقد آلوا على
أنفسهم كلهم بالإيمان المغلظة أنهم لايبرحون من مكانهم مالم يأخذوك معهم .
أما تعلمين يانفس أنهم يتمنون الرجعة إلى الدنيا يوما ليشتغلوا بتدارك

مافرط منهم . وأنت فى أمنيتهم ويوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا بحذافيرها لاشتروه لو قدروا عليه . وأنت تضيعين أيامك فى الغفلة والبطالة . ويحك يانفس أما تستحين . تزينين ظاهرك للخلق وتبارزين الله فى السر بالعظائم .

أفتستحين من الخلق ولا تستحين من الخالق ويحك هو أهون الناظرين عليك . أتأمرين الناس بالخير وأنت متلطخة بالرذائل تدعين إلى الله وأنت عنه فارة . وتذكرين بالله وأنت له ناسية . أماتعلمين يانفس أن المذنب أنتن من العذرة . وأن العذرة لاتطهر غيرها . فلم تطمعين فى تطهير غيرك وأنت غير طيبة فى نفسك . ويحك يانفس لو عرفت نفسك حق المعرفه لظننت أن الناس مايصيبهم بلاء إلا بشؤمك . ويحك يانفس قد جعلت نفسك حمارا لإبليس يقودك إلى حيث يريد ويسخر بك ومع هذا فتعجبين بعملك وفيه من الآفات ما لو نجوت منه رأسا برأس لكان الربح فى يديك . وكيف تعجبين بعملك مع كثرة خطاياك وزللك وقد لعن الله إبليس بخطيئة واحدة بعد أن عبده مائتى ألف سنة وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه نبيه وصفيه . ويحك يانفس ما أعذرك . ويحك يانفس ماأوقحك ويحك يانفس ما أجهلك وأجرأك على المعاصى . ويحك كم تعقدين فتنقضين . ويحك كم تعاهدين فتغدرين . ويحك يانفس أتشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك كأنك غير مرتحلة عنها . أما تنظرين إلى أهل القبور كيف كانوا جمعوا كثيرا وبنوا مشيدا وأملوا بعيدا ، فأصبح جمعهم بورا وبنياهم قبورا وأملهم غرورا . ويحك يانفس أمالك بهم عبرة . أمالك إليهم نظرة ، أتظنين أنهم دعوا إلى الآخرة وأنت من المخلدين . هيهات . هيهات . ساء ماتتوهمين . ماأنت

إلا فى هـدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك . فابنى على وجه الأرض قصرك فإن بطنها عن قليل يكون قبرك . أما تخافين إذا بلغت النفس منك التراقى أن تبدو رسل ربك منحدرة إليك بسواد الألوان وكلح الوجوه وبشرى بالعذاب . فهل ينفعك حينئذ الندم أو يقبل منك الحزن أو يرحم منك البكاء . والعجب كل العجب منك يانفس أنك مع هذا تدعين البصيرة والفطنـة . ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك ولا تحزنين بنقصان عمرك ومانفع مال يزيد وعمر ينقص . ويحك يانفس تعرضين عن الآخرة وهى مقبلة عليك وتقبلين على الدنيا وهى معرضة عنك . فكم من مستقبل يوما لايستكمله . وكم من مؤمل لغد لايبلغه . فأنت تشاهدين ذلك فى إخوانك وأقاربك وجيرانك . فترين تحسرهم عند الموت ثم لاترجعين عن جهالتك ، فاحذرى أيتها النفس المسكينة يوما آلى إلى الله فيه على نفسه أن لايترك عبدا أمره فى الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله دقيقه وجليله سره علانيته فانظرى يانفس بأى بدن تقفين بين يدى الله وبأى لسان تجيبين وأعدى للسؤال جوابا وللجواب صوابا واعملى بقية عمرك فى أيام قصار لأيام طوال وفى دار الزوال لدار مقامه . وفى دار حزن ونصب لدار نعيم وخـلود . اعملى قبل أن لاتعملى . اخرجى من الدنيا اختيارا خروج الأحرار قبل أن تخرجى منها على الاضطرار . ولاتفرحى بما يساعدك من زهرات الدنيا . فرب مسرور مغبون ورب مغبون لايشعر . فويل لمن له الويل ثم لايشـعر . يضحك ويفرح ويلهو ويمرح ويأكل ويشرب . وقد حق له فى كتاب الله أنه من وقود النار فليكن نظرك يانفس إلى الدنيا اعتبارا وسعيك لهـا اضطرارا ورفضك لها اختيارا . وطلبك للآخرة ابتدارا . ولا تـكونى ممن يعجز عن شكر ماأوتى ويبتغى الزيادة فيما بقى وينهى

الناس ولا ينتهي . واعلمي يانفس أنه ليس للدين عوض ولا للإيمان بدل
ولا للجسد خلف . ومن كانت مطيته الليل والنهار فانه يسار به وإن لم يسر
فاتعظي يانفسي بهذه الموعظة واقبلي هذه النصيحة . فان من أعرض عن
الموعظة فقد رضي بالنار . وما أراك بها راضية ولا لهذه الموعظة واعية
فان كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة فاستعيني عليها بدوام التهجد
والقيام فان لم تزل فبالمواظبة على الصيام فان لم تزل فبقلة المخالطة والكلام .
فان لم تزل فبصلة الأرحام واللطف بالأيتام . فان لم تزل فاعلمي أن الله قد
طبع على قلبك وأقفل عليه وأنه قد تراكمت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه
فوطني نفسك على النار فقد خلق الله الجنة وخلق لها أهلا . وخلق النار وخلق
لها أهلا فكل ميسر لما خلق له . فإن لم يبق فيك مجال للوعظ فاقنطي من
نفسك والقنوط كبيرة من الكبائر نعوذ بالله من ذلك . فلا سبيل لك الى
القنوط ولا سبيل لك الى الرجاء مع انسداد طرق الخير عليك . فإن ذلك
اغترار وليس برجاء فانظرى الآن هل يأخذك حزن على هذه المصيبة التي
ابتليت بها . وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك . فإن سمحت
فستقى الدمع من بحر الرحمة فقد بقي فيك موضع للرجاء فواظبي على النياحة
والبكاء واستغيثي بأرحم الراحمين واشتكي الى أكرم الأكرمين وادمني الاستغاثة
ولا تملي طول الشكاية لعله أن يرحم ضعفك ويغيثك فان مصيبتك قد عظمت
وبليتك قد تفاقمت وتماديك قد طال . وقد انقطعت منك الحيل وراحت
عنك العلل فلا مذهب ولا مطلب ولا مستغاث ولا مهرب ولا ملجأ ولا منجا إلا
إلى مولاك فافزعي اليه بالتضرع واخشعي فى تضرعك على قدر عظم جهلك
وكثرة ذنوبك لانه يرحم المتضرع الذليل ويغيث الطالب المتلهف ويجيب
دعوة المضطر . وقد أصبحت إليه اليوم مضطرة وإلى رحمته محتاجة . وقد

ضاقت بك السبل وانسدت عليك الطرق وانقطعت منك الحيل ولم تنجح فيك العظات ، ولم يكسرك التوبيخ فالمطلوب منه كريم والمسئول جواد والمستغاث به بر" رؤوف والرحمه واسعة والكرم فائض والعفو شامل وقولى : يا أرحم الراحمين يا رحمن يا رحيم يا حليم يا عظيم يا كريم . أنا المذنب المصر . أنا الجرىء الذى لا أقلع . أنا المتمادى الذى لا أستحى . هذا مقام المتضرع المسكين والبائس الفقير والضعيف الحقير والهالك الغريق فعجل اغاثتى وفرجى وأرنى آثار رحمتك . وأذقنى برد عفوك ومغفرتك وارزقنى قوة عظمتك يا أرحم الراحمين اقتداء بأبيك آدم عليه السلام . فقد قال وهب بن منبه لما أهبط الله آدم من الجنة إلى الأرض مكث لا ترقأ له دمعة فاطلع الله عز وجل عليه فى اليوم السابع وهو محزون كئيب كظيم منكس رأسه فأوحى الله تعالى اليه يا آدم ماهذا الجهد الذى أرى بك؟ قال يارب عظمت مصيبتى وأحاطت بى خطيئتى وأخرجت من ملكوت ربى فصرت فى دار الهوان بعد الكرامة منه دار الشقاء بعد السعادة وفى دار النصب بعد الراحة وفى دار البلاء بعد العافية وفى دار الزوال بعد القرار وفى دار الموت والفناء بعد الخلود والبقاء : فكيف لا أبكى على خطيئتى فأوحى الله تعالى اليه يا آدم ألم أصطفك لنفسى وأحللتك دارى وخصصتك بكرامتى وحذرتك سخطى . ألم أخلقك بيدى ونفخت فيك من روحى وأسجدت لك ملائكتى فعصيت أمرى ونسيت عهدى وتعرضت لسخطى فوعزتى وجلالى لو ملأت الأرض رجالا كلهم مثلك يعبدوننى ويسبحوننى ثم عصونى لانزلتهم منازل العاصين . فبكى آدم عليه السلام عند ذلك ثلثمائة عام . وكان عبيد الله البجلى كثير البكاء يقول فى بكائه طول ليله . إلهى أنا الذى كلما طال عمرى زادت ذنوبى . أنا الذى كلما هممت بترك خطيئة عرضت لى شهوة أخرى .

واعبيداه خطيئة لم تبل وصاحبها فى طلب أخرى واعبيداه . إن كانت النار لك مقبلا ومأوى . واعبيداه إن كانت المقامع لرأسك تهيأ واعبيداه . قضيت حوائج الطالبين ولعلك حاجتك لا تقضى . وقال منصور بن عمار سمعت فى بعض الليالى بالكوفة عابدا يناجى ربه وهو يقول يارب وعزتك ما أردت بمعصيتك مخالفتك ولا عصيتك إذ عصيتك وأنا بمكانك جاهل ولا لعقوبتك متعرض ولا لنظرك مستخف ولكن سولت لى نفسى وأعانى على ذلك شقوتى وغرنى سترك المرخى على فعصيتك بجهلى وخالفتك بفعلى . فمن عذابك الآن من يستنقذنى أو بحبل من اعتصم إن قطعت حبلك عنى واسوأتاه من الوقوف بين يديك غدا إذا قيل المخفين جوزوا وقيل المثقلين حطوا . أمع المخففين أجوز أم مع المثقلين أحط . ويلى كلما كبرت سنى كثرت ذنوبى . ويلى كلما طال عمرى كثرت معاصى فإلى متى أتوب وإلى متى أعود أما آن لى أن استحى من ربى ؟! فهذه طرق القوم فى مناجاة مولاهم وفى معاتبة نفوسهم وإنما مطلبهم من المناجاة الاسترضاء ومقصدهم من المعاتبة التنبيه والاسترعاء . فمن أهمل المعاتبة والمناجاة لم يكن لنفسه مراعاة . ويوشك أن لا يكون الله تعالى عنه راضيا) .

فدوام على المراقبة والمحاسبة يا بنى ، تحفظ بذلك عهدى ، وأكون معك فى السر وفى العلن . وتكون الخليفة من بعدى . أورثك سرى فتحيا بالسر سعيدا على الزمن .. ويأذن الله لروحينا أن تلتقيا ، فأشد أزرك وأرعاك بعين لها فى قلبك سكن . كلما أعوزتك الأمور وجدتها ، تبصر بنور لك به العليم أذن . فينطلق لسانك حين يتعثر اللسن . وتصيب بالبينات حين يخطىء الصواب الفطن . وتجد الرأى حين يسكت العلم وينطق الفؤاد بالمكنون المستتر . هى هديتى يا بنى اليك أن سرت على طريق تصل . ذلك الطريق الذى وضحت لك

معالمه ورسمت لك حدوده . وبحت لك بمكنونه، وبينت لك أوامره ونواهيه (فهل أنتم منتهون) ؟ أبصر بك وأسمع إن أنلتني أذنك الواعية . فإنك بأعيننا إن ألقيت السمع وأنت شهيد .

— ستجدني ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمر . فهل من مزيد ؟

—(أيها الولد[1] . انى أجبت فى هذه الدروس ملتمساتك ، فينبغي لك أن تعمل بها ولا تنسنى فيها من أن تذكرنى فى صالح دعائك) .

أمثلى يدعو لك يا امام . يا نور الله يا حجة الإسلام ؟

- ولم لا يابنى . إن شرط الدعاء النية . وتلك لا تحتاج إلا إلى قلب . وماكانت الدعوة الصالحه لتقدر قيمتها بعظم علم صاحبها . ولكن تسمو بقدر مايصفو قلبه لله إذ يدعو ويبتهل . وأنت إذ تدعو لى . فقلب يذوب فى حبى . فحين تدعو الله لى وتبتهل «إليه يصعد الكلم الطيب» . وأنا وإن كنت شيخك وإمامك ، فما خرجت عن كونى أخالك فى الله . «(٢) وفى الحديث يستجاب للرجل فى أخيه مالايستجاب له فى نفسه . وفى الحديث دعوة الرجل لأخيه فى ظهر الغيب لاترد» .

— إذن لك علىّ هذا العهد ياإمامى . وهل لك أن تعلمنى دعاء ينفعنى؟

---

(١) الفقرة الأخيرة من رسالة أيها الولد . مع ملاحظة أننا استبدلنا بكلمة الفصل (حيث ورد فى الأصل . . إنى أجبت فى هذا الفصل ملتمساتك) كلمة الدروس وذلك ليستقيم لنا المعنى حسب دواعى التأليف والتمشى مع ختام الفكرة مع عدم الاخلال بالمعنى فى الأصل كما هو واضح . المؤلف .

(٢) احياء ج ٢ ص ١٦٤

— « الدعاء(١) الذى سألت منى فاطلبه من دعوات الصحاح . واقرأ هذا الدعاء فى أوقاتك أعقاب صلواتك .. اللهم انى أسألك من النعمة تمامها . ومن العصمة دوامها . ومن الرحمة شمولها . ومن العافية حصولها ومن العيش أرغده . ومن العمر أسعده . ومن الإحسان أتمّه ومن الإنعام أعمه . ومن الفضل أعذبه . ومن اللطف أقربه . اللهم كن لنا ولا تكن علينا . اللهم اختم بالسعادة آجالنا . وحقق بالزيادة آمالنا . واقرن بالعافية غدونا وآصالنا . واجعل الى رحمتك مصيرنا ومآلنا . واصبب سجال عفوك على ذنوبنا . ومنّ علينا باصلاح عيوبنا . واجعل التقوى زادنا . وفى دينك اجتهادنا . وعليك توكلنا واعتمادنا . اللهم ثبتنا على نهج الاستقامة . وأعذنا فى الدنيا من موجبات الندامة يوم القيامة . وخفف عنا ثقل الأوزار ، وارزقنا عيشة الأبرار ، واكفنا واصرف عنا شرّ الأشرار ، واعتق رقابنا ورقاب آبائنا وأمهاتنا وإخواننا وأخواتنا من النار . برحمتك ياعزيز ياغفار . ياكريم ياستار : ياحليم ياجبار . يا الله يا الله يا الله . برحمتك ياأرحم الراحمين . وياأول الأولين . ويا آخر الآخرين ويا ذا القوة المتين ـ ويا راحم المساكين . وياأرحم الراحمين ، لا إله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين » .

... ...

كانت الشمس تجنح للمغيب ، وقد لبست البيد حلة الشفق . وهناك

---

(١) بقية الفقرة الأخيرة من رسالة أيها الولد

بعيدا ... فى صحارى مكة ... رجلان يضربان فى الأرض . أحدهما يسعى نوره بين يديه ، والآخر ... يمسى على استحياء !

ثم استقر النور حيث هو ، فكف صاحبنا عن السير ، ورفع وجهه صوب شيخه ، فاذا دمعة كبيرة ، يتكلم بها قلبه ، تفصح عما يريده من كلام . يحسه معنى ، ويعجزه ألفاظا . وأنى لصاحبنا أن ينطق ، وهل فراق الشيخ عليه هين ، حتى يسعفه الكلام وتواتيه الألفاظ ؟ !

لقد كانت دموعه تشرح حاله ... ياشيخى ..

لم أقصّر ولا بخلت بقولى
بيد أن الكلام فيك عصانى
كلما حاول البيان لسانى
حجب الحزن ما أراد بيانى
وإذا ما الدموع فاضت بعين
حجبت ما تراه من ألوان(١)

فأخذ الغزالى بيد فتاه . إنه يعلم حاله ونجواه . ألم يجده ريشة فى مهب الريح طائرة ، فأسكنه واديه واستقر به الحال فى حماه . فاستقرّ بعد طول اضطراب ، وسكن بعد لأى وعذاب ، وعرف كيف يبصر به فى نفسه ، وما كان ليبصر فيها لولاه ؟ وكان ذلك الفضل من الله . وإنّه ليجده عليه عظما ، يقابله دائما بشكر من أنعم ، والثناء على من جعله الله السبب . وما كمثل الغزالى إن كان فى الهدى سببا . من أبصر ربه بمنظاره اقترب

---

(١) من أبيات للمؤلف

ومن زاغ بصره فيه طغى واحتجب .... وصاحبنا ؟ ما زاغ بصره وما طغى . لقد رأى فحدّث بما رأى . وعند « حلقاتك » ياشيخى المنتهى . مالى بعدها أرب . لقد دنا قلبى فى بحارك وتدلى . فكان قاب قوسين منك أو أدنى . ولكن يالبعد ما بيننا . أين منك يا شيخى أنا ؟ ! إن قوسا أراه فى القرب منك أو قوسين . لهو البعد مابين المشرقين . عند من ذاق قدرك أوعرف !

كان قلب صاحبنا ينبض بهذه الأحاسيس ، والغزالى يضغط على يديه برفق مابعده رفق ، وحنو ما له غير حنو المرضعات على الفطيم مثل .... ومن كانت يد الغزالى فى يده ، فيد الله من فوقهما . . . بوركت اليدان ، وبوركت « الصحبة » فى الله .

يابنى - أهاب الغزالى بفتاه - لقد أكملت لك ما وعدتك به من درس ، وقد آن لنا أن نفترق إلى حين . بالجسم لا بالروح الضنين . فلئن .

تفرق جسمى فى البلاد وجسمك

فلن يتفرّق خاطر وضمير (١)

سأكون دائماً بالروح معك . فاحفظ يابنى عهدى أحفظك . وسر على نهجى تجدنى بالروح أصحبك . إن ناديتنى بالغيب أسمعك . أذن الله للارواح إن تحابت فيه أن تلتقى ، رغم المسافة والزمن . فان كنت ميتا ، وأنت حى ، لم يحجبنى الموت عنك ، ولم تردك الحياة دونى . سألتقى بك وتلتقى بى . أحادثك وتحادثنى ، ولكن بغير لغة وحديث ! بسرّ القلب « أذن له الرحمن وقال صوابا » سيكون ماييننا من كلام . وبلغة الروح « من أمر ربى » سيتم

---

(١) البيت فى الأصل كالآتى : تفرق جسمى فى البلاد وجسمه ... ألخ وهو للمرحوم شوقى بك : المؤلف

اللقاء . فلا تحزن يابنى على فراق ، أنا دائما باذن الله معك . وعد إلى مصر بلدك . وعلمهم ممّا علمت رشدا . ودعهم يقولون عنك :

قد سلك البـلاد ثم عادا

ليخبر القوم بما اسـتفادا

فان كذّبوك فاصبر ، وإن حاجّوك فقل... هكذا علّمنى الغزالى !

... وكانت دموع .. وكانت بسمات .. وكان وداع .. على وعد باللقاء قريب !

الفهرس

كتب للمؤلف

١) الشيء الصغير (نقلا عن الفرنسية) تحفة الفونس دوديه الخالدة وقدم له المرحوم الأستاذ الاكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق ونشرته لجنة النشر للجامعيين — ٢٥ ص

٢) مع الغزالى فى منقذه من الضلال نشرته دار الفكر العربى — ٢٠ ص

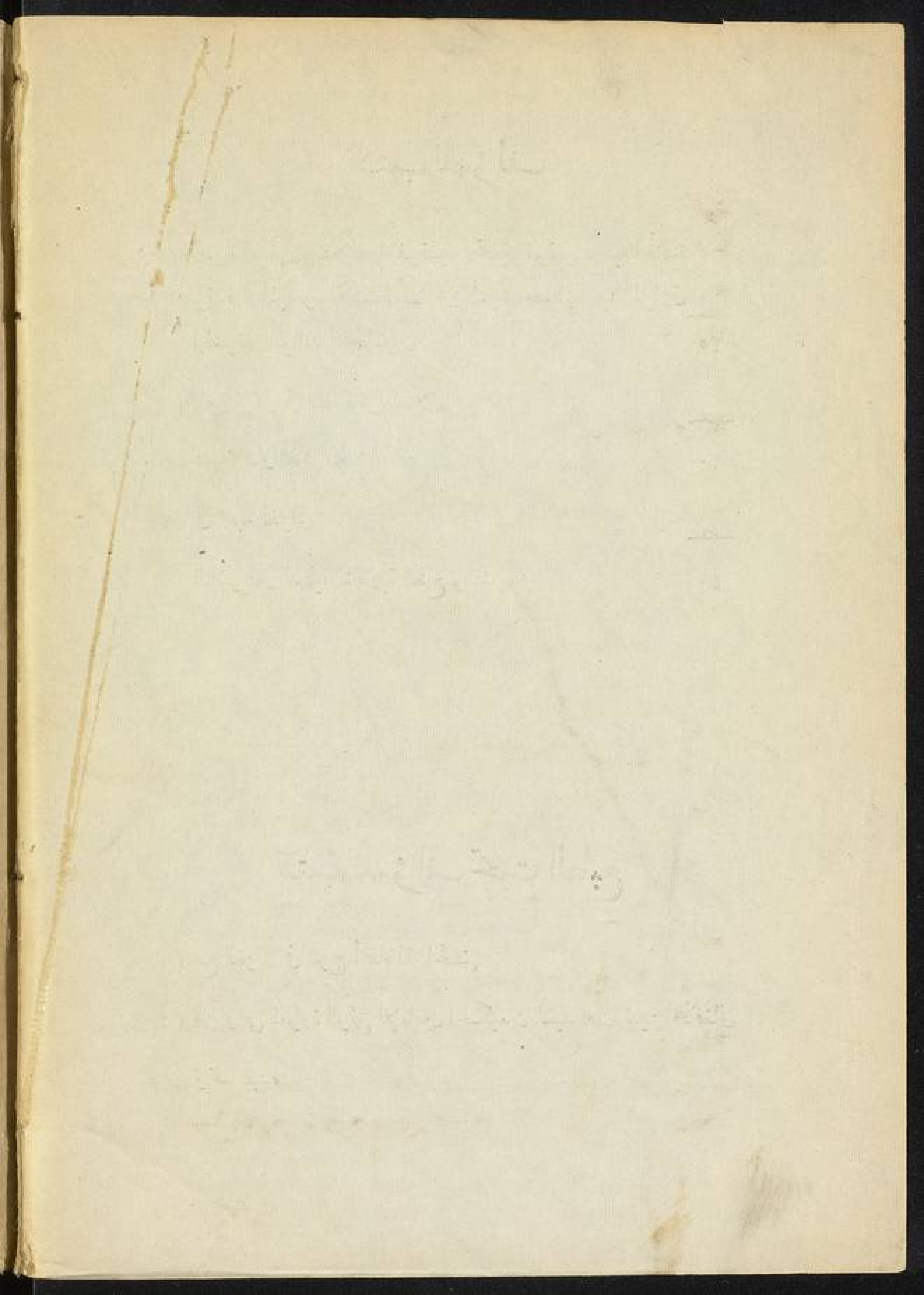
٣) فى صحبة الغزالى الناشر دار الدعاية التجارية للطبع والنشر — ٤٠ ص

....

كتب للمؤلف تحت الطبع

١) مع الغزالى فى شرح أسماء الله الحسنى

٢) من وحى العروة الوثقى للإمامين الحكيمين السيد جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده



الثمن ٤٠ ج